http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } ؛ أي إصبرْ على أمرهِ ونَهْيِهِ حتى الموتِ ، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } ؛ أي شَبيهاً ومِثْلاً يُعْبَدُ ، وَقِيْلَ : هل تَعْلَمُ مَن يستحقُّ الإلهيَّةَ سواهُ ، وَقِيْلَ : هل تعلمُ أحداً يُسَمَّى اللهَ غيرَهُ ، وَقِيْلَ : هل تعلمُ مِن أحدٍ سُمِّيَ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ.

(٠/٠)

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجَمْحِيُّ ، قَالَ هَذا الْقَوْلَ إنْكَاراً لِلْبَعْثِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } أي أُخْرَجُ من القبرِ حيّاً ؛ استهزاءً وتكذيباً منه للبعثِ.

(٠/٠)

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ } ؛ قرأ نافعُ وابن عامر وعاصم : (أَوَلاَ يَذْكُرُ) بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديدِ وهو الاختيارُ ؛ أي أوَلاَ يَتَّعِظُ ويتفكَّرُ ، وعلى القراءةِ الأُولى (يَذْكُرُ)

بالتخفيفِ ضد النِّسيانِ ، والمعنى : أوَلاَ يَتَّعِظُ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نطفةٍ ، { وَلَمْ يَكُ شَيْئاً } ؛ موجُوداً ، فيُستَدلُّ بالابتداءِ على الإعادة.

(٠/٠)

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ } ؛ يعني المنكرينَ للبعثِ ، أقْسَمَ اللهُ تعالى على نفسهِ لنَحْشُرَنَّهُمْ مِن قبورِهم مع الشياطينِ الذين أضَلُّوهم ، { ثُمَّ } لَنَجْمَعَنَّهُمْ ، { لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً } ؛ بَارِكِيْنَ على الرُّكَب ؛ لأن المحاسبةَ إنَّما تكونُ بقُرْب جهنَّمَ ، يُقْرَنُ مع كلِّ كافرٍ شيطانٌ في سِلْسِلَةٍ.

(٠/٠)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيّاً } ؛ أي ثُم لَنُخْرِجَنَّ مِن كلِّ فرقةٍ وجماعة أيُّهم أشدُّ على الرَّحمنِ تَمَرُّداً وجُرْأةً وفُجُوراً وكُفْراً بدءاً بالأَعْتَى فالأعتَى ، والأكثرُ جُرماً. قالَ قتادةُ : (الْمَعْنَى : لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ وَأَهْلِ دِيْنٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ).
والشِّيْعَةُ : الْجَمَاعَةُ المعاونونَ على أمرٍ من الأمور. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيُّهُمْ } رُفِعَ على الاستثناءِ ، و { لَنَنزِعَنَّ } يعملُ في موضعِ { مِن كُلِّ شِيعَةٍ } ، هذا قولُ يونسَ. وقال الخليلُ : على معنى الذين يقالُ لَهم أيُّهم أشدُّ فَلَنُخْرِجَ.

(٠/٠)

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً } ؛ أي نحنُ أعلمُ بالأَوْلى بدخولِ النار وشدَّة العذاب ، وأحقُّهم بعظيمِ العقاب. والصِّلِيُّ : هو اللُّزُومُ ، من قولِهم صَلِيَ بالنارِ صِلِيّاً.

(٠/٠)

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } ؛ اختلَفُوا في الخطاب الذي في أوَّل هذه الآيةِ ، قال بعضُهم : هو راجعٌ إلى الكفارِ ؛ لأنه تقدَّمَه قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً }[مريم : ٧٠] ، وقالَ الأكثرون : هذا خطابٌ مبتدَأ لجميعِ الخلقِ ، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ } ؛ أي نُنْجِي مِن الواردينَ مَنِ اتَّقَى.

ثُم اخْتَلَفَ هؤلاءِ أيضاً في معنى الْوُرُودِ ، قال بعضُهم : هو الدُّخُولُ كما في قولهِ تعالى{ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ }[هود : ٩٨] أي أدْخَلَهم النارَ ، وقالوا : إلاّ أنَّها تكونُ على المؤمنينَ بَرْداً وسَلاماً ، واستدلُّوا بما روى جابرٌ رضي الله عنه : أنَّهُ أهْوَى بيَدَيْهِ إلَى أُذُنَيْهِ وَقَالَ : صُمَّتا إنْ لَمْ أكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " الْوُرُودُ الدُّخُولُ ، لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إلاَّ دَخَلَهَا ، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ بَرْداً وَسَلاَماً ، كَمَا كَانَتْ عَلَى إبْرَاهِيْمَ ، حَتَّى أنَّ لِلنَّارِ ضَجِيْجاً بوُرُودِهِم " ". وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةُ أوْلاَدٍ لَمْ يَلِجِ النَّارَ إلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ ، ثُمَّ قَرَأ : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } ".

ومعنى القَسَمِ : أن أولَ هذه الآيةِ فيها إضمارُ القَسَمِ ؛ تقديرهُ : وَاللهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَارِدُهَا ، ورُوِيَ عن ابنِ مسعود أنهُ قال : " الصِّرَاطُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ ، تَمُرُّ عَلَيْهِ الطَّائِفَةُ الأُوْلَى كَالْبَرْقِ ، وَالثَّانِيَةُ كَالرِّيْحِ ، وَالثَّالِثَةُ كَالْجَوَادِ السَّابِقِ ، وَالرَّابِعَةُ كَأَجْوَدِ الْبَهَائِمِ ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلاَئِكَةُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ ؛ اللَّهُمَّ سَلِّمْ "

وعن أبي هريرةَ : أنَّهُ أوَى إلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ : (يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي ، فَقَالَتِ امْرَأتُهُ مَيْسَرَةُ : إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أحْسَنَ إلَيْكَ ، هَدَاكَ إلَى الإسْلاَمِ. قَالَ : أجَلْ ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ لَنَا أنَّا لَوَارِدُونَ النَّارَ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أنَّا خَارِجُونَ مِنْهَا).

وقال بعضُهم : الورودُ هو الإشرافُ على النار بلا دخولٍ ؛ لأن موضعَ المحاسبةِ يكون قريباً من النار ، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ }[القصص : ٢٣] ولَم يكن موسى دَخَلَ الماءَ ، واستدَلُّوا

بما روي أن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ – إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى – وَاحِدٌ شَهِدَ بَدْراً أو الْحُدَيْبِيَةَ ".

وعن مجاهدٍ أنهُ قالَ : (الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ). فعلَى هذا مَن حَمَّ مِن المسلمينَ فقد وَرَدَهَا ، لأن الْحُمَّى مِن فَيْحِ جهنَّم.

" وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ عَادَ مَرِيْضاً مِنْ وَعَكٍ كَانَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : " أبْشِرْ ؛ إنَّ اللهَ يَقُولُ : هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّار ".

قال الزجَّاجُ : (وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ عَلَى أنَّهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ }[الأنبياء : ١٠١-١٠٢]) وهذهِ حُجَّةٌ لا معارضَ لَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً } ؛ الْحَتْمُ : القطعُ بالأمرِ ، والمقضيُّ هو الذي قَضَى بأنه يكونُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ } ؛ أي الذينَ اتَّقوا الشركَ وصدَّقوا ، { وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً } ؛ أي وَنَذرُ المشركينَ فيها جِثِيّاً على الرُّكب.

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ معناهُ : وإذا تُتْلَى على الكفَّار آياتُ القُرْآنِ الْمُنَزَّلَةِ قالُوا { لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ } ؛ أي الدِّينين ، { خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } ؛ خيرٌ مَسْكناً وخيرٌ مجلساً في الدُّنيا ، فكذلكَ يكون في الآخرةِ.

يعني أنَّ مشركي قريشٍ كانوا يقولون لفقراءِ المؤمنين : أيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاماً ؛ نُحْنُ أم أنتم ؟ والْمَقَامُ والمسكن والمنْزِلُ والنَّدِيُّ والنادي : مجلسُ القوم ومجتمعُهم ، وكانوا يلبسون أحسنَ الثِّياب ، ثُمَّ يقولون مِثْلَ هذا للمؤمنين.

فأجابَهم اللهُ تعالى بقوله : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً } ؛ أي وَكَمْ أهلكنا قبلَ قُريشٍ مِن الأمم الخاليةِ هُم أحسنُ أموالاً وأحسنُ منظراً ، والأثاثُ : المالُ ، جَمْعُ الإبلِ والغنمِ والعبيد والمتاعِ ، وقال الحسنُ : (الأَثَاثُ : اللِّبَاسُ ، وَالرِّئِيُّ : الْمَنْظَرُ).

وقُرِئَ (وَرِياً) بغيرِ همزٍ من الرَّيِّ الذي هو ضدُّ العطشِ ، والمرادُ : أن منظَرَهم مُرْتَوٍ من النعمةِ كأنَّ النعيمَ بيِّن فيهم ؛ لأن الرِّيَّ يتبعهُ الطَّرَاوَةُ ، كما أنَّ العطشَ يتبعهُ الذُّبولُ.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدّاً } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : مَن كان في العمايةِ عن التوحيدِ ، ودِين الله فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ ؛ أي لِيَزِدْ في مالِهِ وعُمره وولدِهِ ، ويقالُ : لَيَدَعُهُ اللهُ في طُغيانه حتى إذا وصلَ الآخرةَ لَم يكن له فيها نصيبٌ. وهذا اللفظُ أمْرٌ ؛ ومعناهُ الخبرُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ } ؛ يعني الذين مَدَّهُمُ اللهُ في الضلالةِ. وأخبرَ عن الجماعةِ لأنَّ لفظَ (مَنْ) يصلحُ للجماعةِ.
ثُم ذكرَ ما يوعدون ، فقال : { إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ } يعني القتلَ والأسرَ والقيامةَ والخلود في النارِ ، { فَسَيَعْلَمُونَ } ؛ حينئذ { مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً } ؛ أي أهُمْ أمِ المؤمنونَ ؛ لأن مكانهم جهنمُ ، ومكانَ المؤمنين الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَضْعَفُ جُنداً } ؛ هذا ردٌّ عليهم في قولِهم : أيُّ الْفريقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ، وَأحْسَنُ نَدِيّاً.

(٠/٠)

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَواْ هُدًى } ؛ أي يَزيدُهم هذا بالإيْمانِ والشَّرائع ، ويزيدُهم هُدًى بالأدلَّة والحجَجِ والطاعاتِ التي تَدْعُو إلى الحسناتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُها ، سُميت باقياتٍ ؛ لبقاء ثوابها للإنسانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً } ؛ أي أنفعُ من مقاماتِ الكفَّار التي يفتخرون بها ، { وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } ؛ أي وأفضلُ مَرْجِعاً في الآخرةِ ، وأفضلُ ما يُرَدُّ على صاحبِهِ.

(٠/٠)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً } ؛ أنزلت هذه الآيةُ في العَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، قال خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ : (كَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى الْعَاصِ ابْنِ وَائِلٍ ، فَحَسِبَ دَيْنَهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : لاَ أَقْضِيْكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ ، قال : لاَ وَاللهِ ؛ لاَ أَكْفُرُ بمُحَمَّدٍ حَيّاً وَلاَ مَيِّتاً وَلاَ حِيْنَ أُبْعَثُ ، قَالَ : فَدَعُ مَالَكَ ، فَإذا بُعِثْتُ أُعْطِيْتُ مَالاً وَوَلَداً وَأُعْطِيْكَ هُنَالِكَ – قالَ ذلكَ مستهزءاً – قَالَ : فَذَكَرْتُ ذلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَة).

وقال الحسنُ : (نَزَلَتْ فِي الْوَلِيْدِ بَنِ الْمُغِيْرَةِ) ، ومعنَى : لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً : لَئِنْ كَانَ ما يقولُ مُحَمَّدٌ في الآخرةِ حَقّاً لأُعَطَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً فِي الآخِرَةِ. ومَن قرأ (وُوْلْداً) بالضمِّ ؛ فمعناهُ واحدٌ ، كالْحُزْنِ والْحَزَنِ ، وَقِيْلَ : إنه جمعُ الولدِ كما يقالُ أسَدٌ وَأُسْدٌ.

(٠/٠)

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً } ؛ أي أعَلِمَ ذلكَ غيباً أمْ عَهِدَ اللهُ إليهِ عهداً بما تَمنَّى؟! وقال ابنُ عبَّاس : (وَمَعْنَاهُ : مَا غَابَ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَ أفِي الْجَنَّةِ هُوَ أمْ لاَ). وقال الكلبيُّ : (أنَظَرَ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً } ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ أمْ قَالَ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ فَأَرْجُوهُ بهَا). وقال قتادةُ : (أقَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً يَرْجُوهُ) ، { كَلاَّ } ؛ أي ليس الأمرُ على ما قال : أنه يولِّي المالَ والولد. ويجوزُ أن يكون معناهُ : كَلاَّ إنَّهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْغَيْبَ ، وَلَمْ يتَّخذْ عندَ الرحمن عهداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } ؛ أي سَنَأْمُرُ الْحَفَظَةَ بإثباتِ ما يقولُ لنجازيَهُ بهِ في الآخرة ، { وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً } ؛ أي نزيدهُ عذاباً فوق العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ } ؛ أي نَرِثُهُ المالَ والولدَ بعد إهلاكنا إياهُ ، فلا يعودُ بعد ذلكَ إليه ، كما لا يعودُ المال إلى مَن خَلْقَهُ بعد موته ، { وَيَأْتِينَا } ؛ في الآخرةِ ، { فَرْداً } ؛ أي وَحِيْداً خالياً من المالِ والوَلَدِ.

(٠/٠)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً } ؛ أي واتَّخَذ أهلُ مكة مِن دون اللهِ أصناماً آلِهَةً ؛ ليكونوا لَهم أعْوَاناً وشُفعاء في الآخرةِ. والعِزُّ : الامتناعُ من الضمِّ ، فَهُمُ اتخذوا هذه الآلهةَ ؛ ليصيروا بها إلى العزِّ في زَعْمِهِمْ فلا يصيبُهم سوءٌ ، وذلك أنَّهم رَجَوا منها الشفاعةَ والنُّصرةَ والمنعَ من عذاب الله.

(٠/٠)

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ } ؛ أي لا يَمنعُهم منِّي شيءٌ ، { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ } ؛ أي يَجْحَدُ الآلِهَةُ عبادةَ المشركين لَها كما قالوا : { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }[القصص : ٦٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً } ؛ أي يصِيرون أعوَاناً عليهم يكذِّبونَهم يلعنونَهم يتبرَّأون منهم.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً } ؛ أي أَلَم تَعْلَمْ أنَّا خَلَّيْنَا بينَ الشياطين والكفار وسلطانِهم عليهم ، فلَمْ نعصم الكفارَ من القبول منهم ، وتسمَّى التخليةُ إرسالاً في سَعَةِ اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَؤُزُّهُمْ أَزّاً } أي تُزعِجُهم إلى معصيةِ الله تعالى إزعاجاً ، وتغرِيهم إغراءً. وقال القتيبيُّ : (تُحَرِّكُهُمْ إلَى الْمَعَاصِي). وأصلهُ الحركةُ والغَلَيَانُ ، ومنهُ الحديث المرويُّ : " وَلِجَوْفِهِ أزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمِرْجَلِ ".

(٠/٠)

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ } ؛ أي لا تَعْجَلْ بمسألة إهلاكهم ، { إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً } ؛ أي نَعُدُّ أنفاسَهم نَفَساً بعد نَفَسٍ ، كما نَعُدُّ أيَّامَهم وآجالَهم.

(٠/٠)

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْداً } ؛ أي اذْكُرْ لَهم يا مُحَمَّدُ اليومَ الذي نجمعُ فيه مَن اتَّقَى اللهَ في الدُّنيا ؛ أي اجتنبَ الكبائرَ والفواحش إلى دارِ الرَّحْمَنِ ؛ وهي موضعُ الكرامةِ والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفْداً } أي رُكْبَاناً ، قال ابنُ عبَّاس : (يُؤْتَوْنَ بنُوقٍ لَمْ تَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا ، عَلَيْهَا رحَالُ الذهَب وَأزِمَّتُهَا الزُّبُرْجُدُ ، فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَقْرُبُوا أبْوابَ الْجَنَّةِ) ، وإنَّما وحَّدَ الوفدَ لأنه مصدرٌ.

(٠/٠)

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ } ؛ أي يحثُّهم على السيرِ إلى جهنم ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وِرْداً } ؛ أي عَطَاشَى مشاةً حفاة عُراةً قد تقطَّعت أعناقُهم من العطشِ ، والوِرْدُ : الجماعةُ التي تَرِدُ الماءَ ، ولا يردُ أحدٌ الماءَ إلاّ بعدَ العطشِ.

(٠/٠)

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ } ؛ أي لا يقدرون على الشفاعةِ ، { إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً } ؛ أي لكن مَن اتَّخذ عند الرحمنِ عهداً وهم المؤمنون ، فإنَّهم يَملكون الشفاعةَ. قال ابنُ عبَّاس : (شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). و(مَنْ) في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطعِ. قال ابنُ عبَّاس : (لاَ يَشْفَعُ إلاَّ مَنْ قَالَ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَتَبَرَّأَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَيْهِ ، وَلاَ يَرْجُو إلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ).

وعن ابن مسعودٍ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ ذاتَ يَوْمٍ : " أيَعْجَزُ أحَدُكُمْ أنْ يَتَّخِذ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللهِ عَهْداً؟! " قَالُواْ : كَيْفَ ؟ قَالَ : يقولُ : " اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، إنِّي أعْهَدُ إلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بأَنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، وَأنَّكَ إنْ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي ، تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ ، وإنِّي لاَ أثِقُ إلاَّ برَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلْهُ لِي عَهْداً تُوَفِّينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ. فَإذا قَالَ ذلِكَ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهِ بطَابِعٍ وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، نَادَى مُنَادٍ : أيْنَ الَّذِيْنَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ".

(٠/٠)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً } ؛ أي قالَ المشركون : الملائكةُ بناتُ اللهِ ، وقالت النَّصارَى : المسيحُ ابنُ اللهِ ، وقالتِ اليهودُ : عزيرٌ ابنُ الله. يقالُ لَهم : { لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً } أي مُنكراً عظيماً.

(٠/٠)

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } ؛ أي يَتَشَقَّقْنَ من عِظَمِ هذا القولِ ، { وَتَنشَقُّ الأَرْضُ } ؛ فَتَصَدَّعُ ، { وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } ؛ أي يسقطُ بعضُها على بعضٍ بشدَّة صوتٍ ، بأن سَمَّوا ، { أَن دَعَوْا

لِلرَّحْمَانِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً } ؛ قرأ أهلُ الحجازِ والكسائي : (يَتَّفَطَّرْنَ) بالتاء مشدَّدةً ، وقرأ نافعُ (يَكَادُ) بالياء لتقدُّمِ الفعل. قال المفسرون : اتخذ الرحمنُ ولداً ، اقشَعَرَّتِ الأرضُ ، وغضبت الملائكةُ ، وأُسْعِرَتْ جهنمُ ، وفَزِعَتِ السمواتُ والأرض والجبالُ.

(٠/٠)

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْداً } ؛ أي ما مِن أحدٍ في السَّموات والأرضِ إلاّ سيأتِي الرحمنَ مُقِرّاً بالعبودية ، ويأتيهِ يومَ القيامة عَبْداً ذليلاً. يعني أن الخلقَ كلَّهم عبيدهُ ، وأن عيسى والعُزَيْرَ مِن جملة العبيدِ.

(٠/٠)

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً } ؛ أي لقد عَلِمَ عددَهم وأفعالَهم ، ولا يخفَى عليه شيءٌ منهم مع كثرتِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً } ؛ لا أنْصَارَ لَهم أعوانَ ولا مالَ ولا ولد ، كلُّ امرِيءٍ مشغولٌ بنفسه لا يهمُّهُ غيرهُ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدّاً } ؛ أي يُحِبُّهُمْ في الدُّنيا ، ويُحَبِّبُهُمْ إلى عبادهِ المؤمنين من أهلِ السَّموات وأهلِ الأرضين. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إذا أحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا جِبْرِيْلُ إنِّي قَدْ أحْبَبْتُ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيْلُ ، ثُمَّ

يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ : إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الأَرْضِ. وَإِذا أَبْغَضَ الْعَبْدَ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ. وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ إِلاَّ أَقْبَلَ اللهُ بِقُلُوب الْمُؤْمِنِيْنَ إِلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقُهُ اللهُ مَوَدَّتَهُمْ وَمَحَبَّتَهُمْ ".

(٠/٠)

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } ؛ أي يَسَّرْنَا قراءةَ القُرْآنِ على لسانِكَ ، { لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } أي بالقُرْآنِ ؛ { وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً } أي قَوْماً ذوِي جَدَلٍ بالباطلِ ، واللُّدُّ جَمْعُ الألَدِّ : شَدِيْدُ الْخُصُومَةِ ، نظيرهُ الأصَمُّ.

(٠/٠)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ } ؛ أي كَمْ أهلكنا يا مُحَمَّدُ قبلَ قومِك من قرونٍ ماضية ، { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ } ؛ أي هل تَرَى منهم مِن أحدٍ ؟ { أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } ؛ أي صَوتاً.
والإحساسُ مأخوذٌ من الْحِسِّ ، يقالُ : هل أحْسَسْتَ فُلاناً ؛ أي هل رأيتَهُ. والرِّكْزُ : هو الصوتُ الْخَفِيُّ الذي لا يُفْهَمُ ، ومنهُ الرِّكَازُ : وهو الْمُغَيَّبُ في الأرضِ.
قال الحسنُ في معنى الآية : (ذهَبَ الْقَوْمُ فَلاَ يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ). وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ : هَلْ تَرَى مِنْ عَيْنٍ أوْ تَسْمَعُ مِنْ صَوْتٍ).
وعن أُبَيِّ بنِ كعب عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مَرْيَمَ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بزَكَرِيّا وَيَحْيَى وَمَرْيَمَ وَعِيْسَى وَهَارُونَ وَإِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَإِدْرِيْسَ ، وَبعَدَدِ مَنْ كَذَبَهُمْ ، وَبعَدَدِ مَنْ دَعَا للهِ وَلَداً ، وَبعَدَدِ مَنْ وَحَّدَ اللهَ تَعَالَى ".

(٠/٠)

طه (١)

{ طه } ؛ قرأ أبو عمرٍو ووَرْشٌ بفتحِ الطَّاء وكسرِ الْهَاء ، وقرأ حمزةُ والكسائي وخَلَفٌ بكسرِ الطَّاء والْهَاء ، وقرأ الباقون بالتفخيمِ فيهما. واختلفوا في معناهُ ، فقالَ أكثرُ المفسِّرين : إنَّ معناهُ : يا رَجُلُ ؛ يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو قولُ ابن عبَّاس والحسن وعكرمة وابنِ جُبير والضحَّاك وقتادة ومجاهد ، إلاّ عكرمةَ قال : (هُوَ بلِسَانِ الْحَبَشَةِ) ، وقال قتادةُ : (إنَّمَا يَقُولُ هَذِهِ اللُّغَةَ أَهْلُ السِّرْيَانِيَّةِ).

وروَى السُّدِّيُّ عن أبي مَلَكٍ معنى قولهِ طه : (يَا فُلاَنُ) ، قال الكلبيُّ : (بلُغَةِ عَكَّ : يَا رَجُلُ) ، قال ابنُ الأنباريِّ : (وَلُغَةُ قُرَيْشٍ وَافَقَتْ تِلْكَ اللُّغَةَ أيْضاً فِي هَذا الْمَعْنَى ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُخَاطِبْ نَبيَّهُ إلاَّ بلِسَانِ قُرَيْشٍ. قَالَ : الشَّاعِرُ : إنَّ السَّفَاهَةَ طَه فِي خَلاَئِقَكُمْ لاَ قَدَّسَ اللهُ أرْوَاحَ الْمَلاَعِيْنيريدُ : يا رجلُ ، وقال آخرُ : هَتَفْتُ بطَهَ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ فَخِفْتُ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ مُوَائِلاَوقُرِئَ (طَهْ) بتسكينِ الْهَاء ، ولهُ معانٍ ؛ أحدُها : أن تكون الْهَاءُ بدلاً من همزةِ الطَّاء كقولِهم في : أرْقْتُ هَرَقْتُ. والآخرانِ : أن يكون على تركِ الهمزة طَا يا رجلُ بقدمِكَ الأرضَ ، ثم يدخلُ الْهاءُ للوقفِ ، فإنه رُويَ : " أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَجْتَهِدُ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ بمَكَّةَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَكَانَ إذا صَلَّى رَفَعَ رِجْلاً وَوَضَعَ أُخْرَى ". فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (طَهَ) أيْ طَأ الأَرْضَ بقَدَمِكَ.

وقال بعضُهم : أولُ السُّورة قَسَمٌ ؛ أقْسَمَ اللهُ بطولهِ وهدايته. وقال بعضُهم : الطاءُ من الطَّهارةِ ، والْهاءُ من الهدايةِ ، كأنهُ تعالى قالَ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : يَا طَاهِراً مِنَ الذُّنُوب ، وَيَا هَادِياً إلَى عَلاَّمِ الْغُيُوب.

(٠/٠)

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } ؛ أي لِتُجْهِدَ نفسكَ وتتعبَ ، وذلك أنه لَمَّا نزلَ عليه الوحيُ اجتهدَ في العبادةِ ، حتى أنه كان يُصلِّي على إحدى رِجْلَيْهِ لشدَّة قيامهِ وطوله ، فأمَرهُ اللهُ أن يُخَفِّفَ على نفسهِ ، وذكرَ له أنهُ ما أنزلَ عليه القُرْآنَ ليتعبَ ذلك التعبَ ، ولَم يُنْزِلْهُ ، { إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى } ؛ قال مجاهدُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِسَبَب مَا كَانَ يَلْقَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنَ التَّعَب وَالسَّهَرِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ).

وقال الحسنُ : (هَذا جَوَابٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ ، وَذلِكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ قَالاَ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : وَإنَّكَ لَتَشْقَى ، لِمَا رَأوْا مِنْ طُولِ عِبَادَتِهِ وَشِدَّةِ اجْتِهَادِهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " بُعِثْتُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ " قَالُوا : بَلْ أنْتَ شَقِيٌّ ، " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } وَلَكِنْ لِتَسْعَدَ وَتَنَالَ الْكَرَامَةَ بِهِ فِي الدُّنيا والآخرةِ).

والشَّقَاءُ في اللغة : احمرارُ ما شُقَّ على النفْسِ من التعب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى } ؛ نُصِبَ على المصدرِ ؛ أي نَزَلْنَاهُ تَنْزِيلاً. والعُلَى : جمع العَلْيَاءِ.

(٠/٠)

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } ؛ وقد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } ؛ أي له ما لهُ في السَّموات وما في الأرضِ ، وما بينَهما من الخلقِ ، ومعناهُ : أنهُ مَالِكُ كلِّ شيءٍ ومُدَبرُهُ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا بَيْنَهُمَا } يعني الهواءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } أي وما تحتَ التُّراب. والمفسِّرون يقولون هو الترابُ النديُّ تحت الأرضِ السُّفلى ، وَقِيْلَ : تحتَ الصخرةِ التي عليها الثورُ ، ولا يعلمُ ما تحتَ الثَّرى إلاّ اللهُ.

(٠/٠)

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } ؛ معناهُ : ما حاجتُكَ إلى الجهرِ ، فإن اللهَ لا يحتاجُ إلى جهرِكَ ليَسْمَعَ ، فإنه تعالَى يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى منهُ. قال ابنُ عبَّاس : (السِّرُّ مَا أسْرَرْتَ بِهِ فِي نَفْسِكَ ، وَأَخْفَى مِنْهُ مَا لَمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ مِمَّا يَكُونُ فِي غَدٍ ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمَا سَوَاءٌ) وَالتَّقْدِيْرُ : وَأخفَى مِنْهُ ، إلاّ أنهُ حُذِفَ للعلمِ بهِ.

وعن سعيدِ بن جُبير قال : (السِّرُّ مَا تُسِرُّهُ فِي نَفْسِكَ ، وَأَخْفَى مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ وَهُوَ كَائِنٌ ، فَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا خَفِيَ عَنِ ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أنْ يَفْعَلَهُ).

(٠/٠)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى } ؛ أي له الصفاتُ العليا.

(٠/٠)

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } ؛ هذا استفهامُ تقريرٍ بمعنى الخبرِ ، قد أتاكَ حديثُ موسى ، { إِذْ رَأَى نَاراً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ مُوسَى عليه السلام رَجُلاً غَيُوراً لاَ يَصْحَبُ الرِّفْقَةَ ؛ لِئَلاَّ يَرَى أَحَدٌ امْرَأَتَهُ ، فَأَخْطَأَ الطَّرِيْقَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، فَرَأى نَاراً مِنْ بَعِيْدٍ). { فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ } ؛ أي قالَ لامرأتهِ : أقيموا مَكَانَكُمْ ، { إِنِّي آنَسْتُ نَاراً } ؛ أي رأيتُها وأبصرتُها ، { لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ } ؛ أي بشُعلةٍ ، { أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } ؛ أي مَن يدلُّني على الطريقِ. قال الفرَّاء : (أَرَادَ هَادِياً ، فَذُكِرَ بلَفْظِ الْمَصْدَرِ). قال السديُّ : (لأنَّ النَّارَ لاَ تَخْلُو مِنْ أَهْلٍ لَهَا وَنَاسٍ عِنْدَهَا).
كانت رؤيتهُ للنارِ في ليلةِ الجمعة ، وكان قد استأذنَ شُعيباً عليه السلام في الرجوعِ إلى والدتهِ فأذِنَ لهُ ، فخرجَ بامرأتهِ ، فولدت في الطريقِ في ليلةٍ باردة مثلجة ، وقد حادَ عن الطريقِ ، فقدحَ فلم يرَ نورَ المقدحة شيئاً ، فبينما هو في مداولةِ ذلك إذ أبصرَ ناراً عن يسار الطريق ، فقال لامرأتهِ : امْكُثُوا – أي أقِيمُوا مكانَكم – إنِّي أبصرتُ ناراً ، لَعَلِّي آتِيْكُمْ مِنْهَا بقَبَسٍ ، أوْ أجِدُ عَلَى النَّار مَن يدلُّني على الطريقِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يامُوسَى } ؛ أي فلمَّا أتَى النارَ أي شجرة خضراءَ من أسفلها إلى أعلاها كأنَّها نارٌ بيضاءُ تَتَّقِدُ ، فسمِعَ تسبيحَ الملائكة ، ورأى نُوراً عظيماً ، فخافَ وتعجَّبَ ، وألقِيَتْ عليه السكينةُ ، ثُم نودي يا موسى ، { إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ } ؛ وإنَّما كرَّرَ الكنايةَ ؛ لتوكيدِ الدلالة ، وإزالة الشُّبهة ، وتحقيقِ المعرفة. قُرِئَ (إنِّي أنْ رَبُّكَ) بفتحِ الهمزة وكسرِها ، فمن فتحَ فعلى معنى بأَنِّي ، ومَن كسرَ فعلى معنى الابتداء.

قال وهبُ : (نودي من الشجرةِ ، فقيل : يا موسى ، فأجابَ سريعاً لا يدري مَن دعاهُ ، فقال : إنِّي أسمعُ صوتَكَ فلا أرى مكانكَ ، فأين أنتَ ؟ قال : أنا فوقكَ ومعك وأمامكَ وخلفك وأقربُ إليك من نفسك ، فعَلِمَ أن ذلك لا ينبغي إلاّ لرَبهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فأيقنَ به). قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ } ؛ قال الحسنُ : (إنَّمَا أُمِرَ بخَلْعِ نَعْلَيْهِ لِيَنَالَ قَدَمَاهُ بَرَكَةَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ ، وَيُبَاشِرَ تُرَابَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بقَدَمِهِ ، فَيَنَالُهُ بَرَكَتُهَا) وقَوْلُهُ تَعَالَى : { الْمُقَدَّسِ } أي الْمُطَهَّرِ. قال عكرمةُ : (كَانَتْ نَعْلاَهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيْتٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } ؛ المقدَّس : هو المطهَّر ، وَقِيْلَ : المباركُ ، ولا يستدلُّ بما قالَهُ عكرمةُ على أنَّ جلودَ الميتة لا تَطْهُرُ بالدِّباغ ؛ لأنه إنْ كانَ كذلك فهو منسوخٌ بقولهِ عليه السلام : " إيَّمَا إهَابٍ دُبغَ طَهُرَ ". قَوْلُهُ تَعَالَى : { طُوًى } هو اسم الوادي.

(٠/٠)

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } ؛ أي اخترتُكَ للرسالة ؛ لكي تقومَ بأمرِي ، فاستمِعْ لِما يوحَى إليك ، فاحفظْهُ حتى تؤدِّيَهُ للناسِ. وقرأ حمزةُ : (وإنَّا اخْتَرْنَاكَ) بالتشديدِ في (إنَّا) على التعظيمِ.

(٠/٠)

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَاْ فَاعْبُدْنِي } ؛ ولا تعبُدْ غَيرِي ظاهرُ المعنى ، { وَأَقِمِ الصَّلاَةَ

لِذِكْرِي } ؛ أي لتَذْكُرَني بها بالتسبيحِ والتعظيم كذا قال مجاهدُ والحسن ، وَقِيْلَ : لأَنْ أذْكُرَكَ بالثناءِ والمدح ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : إذا نَسِيْتَ الصَّلاَةَ ، فَأَقِمْهَا إذا ذكَرْتَهَا) ، قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَأَخَّرَ عَنْ صَلاَةٍ أوْ نَسِيَهَا ؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذكَرَهَا ، فَإنَّ ذلِكَ وَقْتُهَا " ثُمَّ قَرَأ { وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي } ".

(٠/٠)

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أنَّ الْقِيَامَةَ كَائِنَةٌ أَكَادُ أُخْفِيْهَا عَنْ نَفْسِي ، فَكَيْفَ أُظْهِرُهَا لِغَيْرِي) ، قال الْمُبَرِّدُ : (هَذا عَلَى عَادَةِ مُخَاطَبَةِ الْعَرَب ؛ يَقُولُونَ إذا بَالَغُواْ فِي كِتْمَانِ السِّرِّ : كَتَمْتُهُ مِنْ نَفْسِي ؛ أيْ لَمْ أطْلِعْ عَلَيْهِ أحَداً).
والمعنى : أنَّ اللهَ تعالى بَالَغَ في إخْفاءِ السَّاعةِ ، فذكَرَهُ بأبلغِ ما تعرفُ العرب. قال قتادةُ : (هِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ : أَكَادُ أُخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ أخْفَاهَا اللهُ عَنِ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِيْنَ وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ ، وَفِي مُصْحَفِ أُبَيٍّ وعَبْدِاللهِ : أكَادُ أُخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي ، فَكَيْفَ يَعْلَمُهَا مَخْلُوقٌ؟).
ومعنى الآية : أكَادُ أُخْفِيْهَا عن عبادي ؛ كَي لا تأتيَهم إلاّ بَغْتَةً ، والفائدةُ في إخفائِها عن العبادِ : التهويلُ والتخويف ، وفي ذلك مصلحةٌ لَهم ؛ لأنَّهم إذا لَم يعلموا متى قيامُها كانوا على حَذرٍ منها في كلِّ وقتٍ ، خائفين من الموتِ ، مستعدِّين لذلكَ بالتوبةِ والطاعة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } ؛ أي بسَعْيِهَا ، إما الثوابُ وإما العقابُ. وقرأ الحسنُ وابن جبير : (أكَادُ أخْفِيْهَا) بفتحِ الهمزة ؛ أي أُظْهِرُهَا وَأُبْرِزُهَا ، يقالُ : خَفَيْتُ الشَّيْءَ إذا أظهرتهُ ، وأخفيتهُ إذا سَتَرْتُهُ.

(٠/٠)

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا } ؛ أي فلا يَصْرِفَنَّكَ عن الإيْمانِ بالسَّاعة مَن لا يصدِّقُ بها ، { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } بالإنكارِ { فَتَرْدَى } ؛ أي فَتَهْلَكَ ، وهو خطابٌ لِموسى عليه السلام ،

ونَهيٌ لسائرِ المكلَّفين. والصَّدُّ : هو الصَّرْفُ عن الخيرِ ، يقالُ : صَدَّهُ عن الخيرِ ، وصَدَّهُ عن الإيْمانِ ، ولا يقالُ : صَدَّهُ عن الشَّرِّ ، ولكن يقالُ : صَرَفَهُ عن الشرِّ وَمَنَعَهُ عنهُ.

(٠/٠)

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يامُوسَى } ؛ أي وما التي بيمِينِكَ يا موسى ؟ { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } أي أعتمدُ عليها إذا أُعْيِيْتُ ، وإذا مَشَيْتُ ، فلفظُ أوَّلِ الآية استفهامٌ ؛ ومعناه : التقريرُ على المخاطَب ، أن الذي في يدهِ عصا ؛ لكيلا تَهولهُ صارت ثُعباناً.
وَقِيْلَ : كان الغرضُ بهذا السُّؤال إزالةُ الوحشةِ منه ؛ لأن موسَى كان خائفاً مُستوحشاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي } ؛ أي أخْبطُ به الشجرَ ؛ ليتناثرَ وَرَقُهُ فيأكلهُ غَنَمِي. وقرأ عكرمةُ : (وَأهُشُّ) بالشِّين ، يعني أزْجُرُ بها الغنمَ ، وذلكَ أنَّ العربَ تقولُ : هَشَّ وقَشَّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } ؛ أي حوائجُ أُخرى ، تقولُ : لا إرَبَ لِي في هذا ؛ أي لا حاجةَ لِي فيه ، واحدُ الْمَآرِب مَأْرُبَةٌ بضمِّ الراء وكسرِها وفتحها ، وإنَّما لَم يقل : أُخَرَ ؛ لأجلِ رُؤوسِ الآيِ.
قال ابنُ عبَّاس : (كَانت مَآرِبُهُ أنه إذا ورد ماء قصر عنه رشاؤه وصله بالْمِحجنِ ، ثم أدلَى العصا وكان في أسفلِها عكَّازةٌ يقاتلُ بها السباعَ ، وكان يُلقي عليها كسائَهُ يستظلُّ تحتَها ، ومن مآربِهِ أيضاً أنه كان اذا أرادَ الاستسقاءَ مِن بئرٍ أدلاها ، فطالَتْ على طولِ البشر ، فصارت شُعبتاها كالدَّلو ، وكان يظهرُ على شعبَتَيها الشَّمعتين بالليلِ – يعني : يضيءُ لهُ مد البصرِ ويهتدي بها – واذا اشتهَى ثمرة من الثمارِ رَكَزَها في الأرضِ ، فَتَغَصَّنت أغصانُ تلك الشجرةِ ، وأورقت أورقُها وأثْمَرت).
ثم كان من المعلومِ أنَّ موسى لَمْ يُرِدْ بهذا الجواب إعلامَ اللهِ تعالى ؛ لأن اللهَ تعالى أعلمُ بذلكَ منه ، ولكن لَمَّا اقتضى السؤالُ جواباً لَمْ يكن بدٌّ له من الإجابةِ ، فذكرَ منافعَ العصا إقراراً بالنعمة فيها والتزاماً بما يجبُ عليه من الشُّكر للهِ ، وهكذا سبيلُ أولياءِ الله تعالى في إظهار شُكر نِعَمِ اللهِ تعالى ، وفي هذا جوابٌ عن بعضِ الْمُلْحِدَةِ في باب المسألةِ كانت عن فائدة ما في يده ، ولَم يكن عن منافعِها ، فلِمَ كان الجوابُ عن ما لَم يسأل؟

(٠/٠)

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَلْقِهَا يامُوسَى } ؛ أي أَلْقِهَا من يدكَ ، { فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } ؛ تشتدُّ رافعةٌ رأسَها ، عيناها تتوقَّدان ناراً ، تَمشي بسرعةٍ على بطنِها ، لَها عُرْفٌ كعُرف الفَرسِ ، فلما عاينَ ذلك موسى ولَّى مُدبراً ولَم يُعَقِّبْ هارباً منها ، فنُودِيَ يا موسى : إرْجِعْ ، فرجعَ وهو شديدُ الخوفِ و { قَالَ } ؛ اللهُ له : { خُذْهَا } بيمينِكَ ؛ { وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى } ؛ عصاً كما كانت.

فلما أمَرَهُ اللهُ بأخذِها أدنَى طَرَفَ ثوبهِ على يده ، وكان عليه مَدْرَعَةٌ من صُوفٍ ، فلما جعل طَرَفَ المدرعةِ على يدهِ ليتناولَها ، قال مَلَكٌ : يا موسى ؛ أرأيتَ لو أنَّ الله قد رَعَاكَ ما تحاذرهُ ؟ أكانت المدرعةُ تُغني عنكَ شيئاً ؟ قال : لاَ ، ولكنِّي ضعيفٌ ومن ضعفٍ.

فأُمِرَ أن يُدخِلَ يدهُ في فَمِها فكشفَ عن يدهِ ، ثُم وضعَها في فمِ الحيَّة ، وإذا يدهُ في الموضعِ الذي كان يضعُها فيه بين الشُّعبتين اللَّتين في رأسِ العصا ، وإنَّما أُمِرَ بإدخالِ يده فمِها ؛ لأنه إنَّما يُخشى من الحيَّة مِن فمِها ، فأرادَ اللهُ أن يُرِيَهُ من الآيةِ التي لَم يقدر عليها مخلوقٌ. ولئلا يفزعَ منها اذا ألقَاها عند فرعونَ ، فلا يولِّي مُدبراً.

(٠/٠)

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى } ؛ قالَ الفَرَّاءُ : (جَنَاحُ الإنْسَانِ عَضُدُهُ أيْ مِنْ غَيْرِ أصْلِ إبطِهِ) والمعنى : أدْخِلْ يدكَ في جيبكَ تَخرج بيضاءَ ذات شُعاعٍ من غير مَرَضٍ ولا بَرَصٍ آيَةً أُخْرَى نعطيكَها مع العصا ، { لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } ؛ سِوَى هَاتَين الآيتين ، فكان عَلَيْهِ السَّلامُ إذا جَعَلَ يدَهُ في جيبهِ خرجت بيضاءَ يغلبُ شعاعُها نورَ الشمس. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ لِيَدِهِ نُورٌ سَاطِعٌ يُضِيْءُ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَأشَدُّ ضَوْءًا).

(٠/٠)

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } ؛ أي جَاوَزَ الحدَّ في العصيان ، وكَفَرَ وتكبَّرَ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } ؛ أي وَسِّعْ لِي صَدري لأتَمَكَّنَ من تحمُّلِ أثقالِ الرسالة ، والقيامِ بأدائها ومخاصمةِ الناس فيها ، وسَهِّلْ لِي أمرِي برفعِ المشقَّة ووضع الْمَحَبَّةِ. قوله تعالى : { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي } ؛ أي وَارْفَعْ العُقْدَةَ من لسانِي ؛ ليفقهوا قَولِي : كَلامِي.

وكان سببُ العُقْدَةِ في لِسانِهِ أنه كان في حُجرة فرعونَ ، فأتَى يومٌ فأخذ بلحيتهِ فَنَتَفَ منها شيئاً ، وقال فرعونُ لامرأته آسْيَةُ : إنَّ هذا عَدُوِّي المطلوب وَهَمَّ بقتلهِ ، فقالت له آسْيَةُ : لا تفعل ، فإنه طِفْلٌ لا يعقلُ ، ولا يفرِّقُ بين الأشياءِ ولا يُميز ، وعلامةُ ذلك : أنه لا يُميز بين الدُّرَّةِ والجمرةِ ، ثُم جاءت بطِشْتَيْنِ ، فجعلت في أحدِهما الجمرَ من النار ، وفي الآخرِ الجوهرَ والْحِلِيَّ ، ووضعَتْهُما بين يَدَي موسى ، فأراد مُوسى أن يأخذ شيئاً من الحليِّ ، فأخذ جبريلُ بيدهِ فوضعَها على النارِ ، فأخذ جمرةً ووضعَها في فمهِ حتى أحْرَقَ لسانَهُ ، فكانت في لسانهِ رُتَّةٌ ، فدفعَ عنهُ أكثرَ الضَّررين بأقلِّهما.

وقد اختلفوا في هذه العُقْدَةِ : هل زَالَتْ بأجمعِها في وقتِ نُبُوَّتِهِ ، أم لاَ ؟ قال بعضُهم – وهو الأصحُّ وإليه ذهبَ الحسنُ – : أنَّ الله استجابَ له ، فَحَلَّ العُقدةَ من لسانهِ ؛ لأنه تعالى قال{ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسَى }[طه : ٣٦] فعلى هذا قولُ فرعونَ{ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ }[الزخرف : ٥٢] أي لا يأتِي ببيانٍ يُفْهِمُ ، وكان هذا القولُ كذباً منهُ ؛ ليصرفَ الوجوهَ عنهُ.

(٠/٠)

وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي } ؛ الوزيرُ الذي يُؤَازرُ الأميرَ فيحمِلُ عنه بعضَ ما يحملُ ،

فيكون المعنى : واجعل لِي عَوْناً وظَهْراً من أهلي ، وقال الزجَّاج : (اشْتِقَاقُهُ مِنَ الْوِزْر وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يُعْتَصَمُ بِهِ لِيَنْجُو مِنَ الْهَلَكَةِ).
ثُم بَيَّنَ الوزيرَ مَن هو ، فقالَ : { هَارُونَ أَخِي } ، قِيْلَ : هرونُ مَفْعُولُ (اجْعَلْ) ، تقديرهُ : اجْعَلْ هرونَ أخِي وزيراً لِي ، { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي } ؛ أي أُقَوِّي به ظَهرِي ، والأَزْرُ الظَّهْرُ ، لنتعاونَ على الأمرِ الذي أمَرْتَنَا به ، يقالُ : آزَرْتُ فُلاناً إذا عاونتهُ.

(٠/٠)

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي } ، أي اجعلهُ شَريكاً لِي في تبليغِ هذه الرسالة. ومن قرأ (أشْدُدْ) بفتح الألفِ و(أُشْرِكْهُ) بضمِّ الألف ردَّ الفعلَ إلى موسى عليه السلام.

(٠/٠)

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً } ؛ أي كَي نُصلّي لكَ ، وَقِيْلَ : كي نُنَزِّهَكَ كثيراً ، ونذكرَكَ بالحمدِ والثَّناء كثيراً بما أوْلَيْتَنَا من نِعْمَتِكَ ، ومَنَنْتَ علينا من تحمُّلِ رسالتِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً } ؛ أي عالِماً.

(٠/٠)

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ

إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسَى } ؛ أي أُوتِيْتَ ما سألتَ يا موسى ، وأوتيتَ مُرادَكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى } ؛ أي أنعَمْنا عليكَ كَرَّةً أُخرى قبلَ هذه المرَّة.

ثم بَيَّنَ تلك النعمة ، فقالَ تعالى : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّكَ } ؛ أي أَلْهَمْنَاهَا حين عَنَتْ بأمرِكَ ، وما كان فيه سببُ نَجاتِكَ من القتلِ ، { مَا يُوحَى } ؛ أي ما يُلْهَمُ ، ثم فسَّرَ ذلك الإلْهَامَ فقال : { أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ } وكان السببُ في ذلك أن فرعونَ كان يقتلُ غِلْمَانَ بنِي إسرائيلَ على ما تقدَّم ذكرهُ ، ثُم خَشِيَ أن يَفْنَى نسلُ بني إسرائيلَ ، فكان يقتلُ بعد ذلك في سنةٍ ولا يقتلُ في سنةٍ ، فوُلِدَ موسى في السَّنة التي يقتلُ فيها الغلمانَ ، فنجَّاهُ الله من القتلِ بأن أَلْهَمَ أُمَّهُ أن جعلته في التابوتِ ، وأُطْرِحَ التابوت في اليَمِّ وهو البحرُ ، وأرادَ به النِّيْلَ ومعنى قوله تعالى : { أَنِ اقْذِفِيهِ } أي اجعليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ } ؛ لفظهُ لفظ الأمر وهو خبرُ (بتقدير) حتى يلقيه اليَمُّ بالسَّاحل.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } ؛ وأرادَ به فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } ؛ وذلك أن أُمَّ موسى لَمَّا اتخذت لِموسى تابوتاً جعلت فيه قُطْناً مَحْلُوجاً ، ووضعت فيه موسَى وألقتْهُ في النِّيلِ ، وكان يشرعُ منه نَهر كبيرٌ في دار فرعون ، فبينما هو جالسٌ على رأسِ البرْكَةِ مع امرأتهِ آسْيَةُ ، إذا بالتابوتِ يَجِيْءُ بالماء.

فلما رأى ذلك أمَرَ الجوارِي والغلمان بإخراجهِ فأخرجوهُ ، فإذا هو صبيٌّ من أحسنِ الناس وَجْهاً ، فلما رآهُ فرعون أحَبَّهُ بحيثُ لَم يتمالك ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } قال عطية العوفي : (وَجَعَلَ عَلَيهِ مِسْحَةً مِنْ جَمَالٍ فَأَحَبَّهُ كُلُّ مَن رآهُ).

وقال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } أيْ لاَ يَلْقَاكَ أحَدٌ إلاَّ أحَبَّكَ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ) ، وقال عكرمةُ : (أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً ومَلاَحَةً وَحُسْناً) ، فحين أبصرَتْ آسية وجهَهُ قالت لفرعون : قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ولكَ. وقال أبو عبيدةُ : (مَعْنَاهُ : جَعَلْتُ لَكَ مَحَبَّةً عِنْدِي وَعِنْدَ غَيْرِي ، أحَبَّكَ فِرْعَوْنُ ، فَسَلِمْتَ مِنْ شَرِّهِ ، وَأحَبَّتْكَ امْرَأتُهُ فَتَبَنَّتْكَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } ؛ أي ولِتُرَبَّى وتغذى بمرأى أراكَ على ما أريدُ بك من الرفاهيَةِ في غذائِكَ. وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ : لِتُغَذى عَلَى مَحَبَّتِي).

وأرادَ في قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ } ؛ وذلكَ أن موسى جَعَلَ يبكي ويطلبُ اللَّبَنَ ، فأمَرَ فرعونُ حتى أتَى بالنِّساءِ اللَّواتِي حولَ فرعون ليُرضعْنَ موسى ، فلم يَقْبَلْ ثَديَ واحدةٍ منهن ، وكانت أُخْتُ موسى مُتَّبعَةً للتابوتِ ماشيةً خَلْفَهُ.

فلما حُمل التابوتُ إلى فرعونَ ، ذهبت هي معهُ ، فقالت : هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ أي يرضعهُ ويضمُّه ويحصنهُ ؟ فقالوا : مَن هي ؟ قالت : امرأةٌ قد قُتِلَ ولدُها ، وهي تحبُّ أن تجدَ صبيّاً ترضعهُ.

(٠/٠)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } ؛ أي اخْتَصَصْتُكَ لوحيي ورسالَتِي ، والاصطناعُ هو الإخلاصُ بالألطافِ. وقال الزجَّاج معناه : (اخْتَرْتُكَ لإقَامَةِ حُجَّتِي ، وَجَعَلْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي).

(٠/٠)

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي } ؛ أي باليدِ والعصا ، { وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي } ؛ اي لا تُقَصِّرَا في تبليغِ رسالَتِي إلى فرعونَ ، ولا تضْعُفَا عن ذِكري ، وَقِيْلَ : لا تُقَصِّرا ولا تُبْطِئَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.

(٠/٠)

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً } ؛ أي قولاَ لهُ بالشَّفَقة ، ولا تقولاَ له قولاً عَنِيفاً ، فيزدادَ غَيْضاً بغِلَظِ القولِ. قال السديُّ وعكرمةُ : (كَنِّيَاهُ قُولاَ لَهُ : يَا أبَا الْعَبَّاسِ) وَقِيْلَ : يا أبَا الوليدِ ، ويا أيُّها الملكُ. وَقِيْلَ : يعني بالقولِ اللَّينِ : { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى }[النازعات : ١٨-١٩]. وعن السديِّ قال : (الْقَوْلُ اللَّيِّنُ : أنَّ موسَى أتَاهُ فَقَالَ لَهُ : تُؤمِنُ بمَا جِئْتُ بهِ ، وَتَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ عَلَى أنَّ لَكَ شَبَابَكَ فَلاَ تَهْرَمُ ، وَأنَّ لَكَ مُلْكَكَ لاَ تُنْزَعُ حَتَّى تَمُوتَ ، وَلاَ تُنْزَعُ عَنْكَ لَذةُ الطَّعَامِ

وَالشَّرَاب وَالْجِمَاعِ حَتَّى تَمُوتَ ، فَإذا مِتَّ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ. فَأَعْجَبَهُ ذلِكَ ، وَكَانَ لاَ يَقْطَعُ أمْراً دُونَ هَامَانَ ، وَكَانَ هَامَانُ غَائِباً ، فَقَالَ فِرْعَونُ : إنَّ لِي ذا أمْرٍ غَائِبٍ ، فَاصْبرْ حَتَّى يَقْدُمَ. فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ إنَّ مُوسَى دَعَانِي إلَى أمْرٍ فَأَعْجَبَنِي – وَأخْبَرَهُ بالَّذِي دَعَاهُ إلَيْهِ – وَأرَدْتُ أنْ أقْبَلَ مِنْهُ. فَقَالَ هَامَانُ : قَدْ كُنْتُ أرَى أنَّ لَكَ عَقْلاً ، بَيْنَمَا أنْتَ رَبٌّ فَتُرِيْدُ أنْ تَكُونَ مَرْبُوباً ، وَأنْتَ تُعْبَدُ فَتُرِيْدُ أنْ تَعْبُدَ؟. فَغَلَبَهُ عَلَى رَأيِهِ فَأَبَى.

رُوِيَ أنَّ رَجُلاً قَرَأ فِي مَجْلِسِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ : { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً } فَبَكَى يَحْيَى ابْنُ مُعَاذٍ وَقَالَ : (إلَهِي ، هَذا رِفْقُكَ بمَنْ يَقُولُ أنَا إلَهٌ ، فَكَيْفَ رِفْقُكَ بمَنْ يَقُولُ أنْتَ إلَهِي ، إنَّ قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَهْدِمُ كُفْرَ خَمْسِيْنَ سَنَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } ؛ أي يَتَّعِظُ أو يخشى العاقبةَ ، وكلمة (لَعَلَّ) للترجِّي والطمعِ ؛ أي اذهبَا على رجائِكُما وطمَعِكُما وأنا عالِمٌ بما يفعلُ ، فإن قيلَ : كيفَ قال { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } وعلمهُ سابقٌ في فرعونَ أنه لا يؤمنُ ، ولا يتذكر ولا يخشَى ؟ قِيْلَ : هذا مصروفٌ إلى غيرِ فرعون ، تقديرهُ : لِكَي يتذكرُ متذكرٌ ويخشَى خَاشٍ إذا رأى بَرِئ ، وألطَافِي بمن خلقتهُ ورزقتُهُ وصحَّحتُ جِسمَهُ وأنعمتُ عليه ، ثم ادَّعى الربوبيةَ دونِي.

قال بعضُ العارفين في قولهِ تعالى : { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً } : (إذا كَانَ هَذا رِفْقُكَ بمَنْ ينافيكَ ، فكيفَ رفقُكَ بمن يصافيكَ ؟ هذا رفقُكَ بمن يعاديكَ ، فكيف رفقُكَ بمن يواليكَ ؟ هذا رفقُكَ بمن يسبُّكَ ، فكيفَ رفقُكَ بمن يحبُّكَ ؟ هذا رفقُكَ بمن يقولُ نداً فكيفَ بمن يقول فرداً ؟ هذا رفقُكَ بمن ضَلَّ ، فكيفَ رفقُكَ بمن زلَّ ؟ هذا رفقُكَ بمن اقترفَ ، فكيفَ رفقُكَ بمن اعترفَ ؟ هذا رفقُكَ بمن أصرَّ ، فكيف رفقُكَ بمن أقرَّ ؟ هذا رفقُكَ بمن استكبرَ ، فكيف رفقكَ بمن استغفرَ؟).

وعن وهب بن منبه قال : (أوحى اللهُ إلى موسى : انطلِقْ إلى فرعونَ برسالتِي ، فمعكَ نَظَرِي وأنتَ جندٌ عظيم من جُنودِي ، بعثتُكَ إلى خلقٍ ضعيف قد عزَّته الدنيا حتى كفرَ وأقسَم بعزي لولا اتخاذُ الحجَّة عليه والعذرَ إليه لبطشتُ به بطشةَ جبارٍ يغضبُ لغضبهِ السَّموات والأرض ، فإن أذنَ للسَّماء صَعَقَتْهُ ، وللأرضِ ابتلعتْهُ ، وللجبال دمَّرتهُ ، وللبحار أغرقته ، ولكنهُ وسعَهُ حِلْمي ، فبلِّغْهُ رسالَتي وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لا يغرُّ بك فألبسه من لباسِ الدُّنيا ، فأحِبْ ربك الذي هو واسعُ المغفرة ، أنه قد أمهلَكَ منذُ خمسمائة سنة لَم تَهرمْ ولَم تسقمْ وَلم تفتَقِرْ ، واعلم أنَّ أفضلَ ما تزينَ به العبادُ الزهدَ في الدنيا ، ومن أهانَ وليّاً فقد بارَزَنِي بالْمُحاربةِ).

(٠/٠)

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى } ؛ معناه : قال موسى وهارونُ : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ، قال ابنُ عبَّاس : (يُعَجِّلُ وَالْعُقُوبَةِ) ، وَقِيْلَ : تغليب أو أن يطغَى بتكبُّرٍ ويستعصِي علينا ، ويقالُ : فرَّطَ علينا فلانٌ إذا أعجلَ بمكروهٍ ، وفرَّطَ منه أمري بدر وسبق.

(٠/٠)

قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ } ؛ أي معَكُما بالبصيرةِ والعون ، { أَسْمَعُ } ؛ ما يَرُدُّ عليكُما ، { وَأَرَى } ؛ ما يصنعهُ بكما ، وَقِيْلَ : معناهُ : أسْمَعُ دعاءَكما فأجيبهُ ، وأرى ما يريدُ بكما فأمنعهُ ، ولستُ بغافلٍ عنكُما ، فلا تَهتمَّا ، { فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ } ؛ أرسلنا إليكَ ، { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ } ؛ أي أطلِقْهُم من اعتقالِكَ ، ولا تُتْعِبْهُمْ بالأعمالِ الشَّاقة ، { قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ } ؛ أي بعلامةٍ من ربك وهي اليدُ والعصا ، وهما أوَّلُ آية ، وَقِيْلَ : اليدُ خاصَّة.
وكان فرعونُ قد أتعبَ بنِي إسرائيلَ بالأعمالِ الشَّاقة ، مثلَ اللَّبن والطينِ والبناء ، وما لا يقدرونَ عليه.
فلمَّا قال موسى : قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبكَ ، قال : ما هيَ ؟ فأدخلَ يدَهُ في جيب قميصه ثُم أخرجَها ، فإذا هي بيضاءُ لَها شعاعٌ غَلَبَ نورَ الشمسِ ، ولَم يُرِهِ العصا إلاّ بعدَ ذلك يوم الزِّينة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } ؛ ليس هو بتحيَّةٍ لفرعون ولكن معناهُ : أن مَن اتَّبَعَ الْهُدى سَلِمَ من عذاب الله بدليلِ أنه عَقَّبَهُ بقولهِ تعالى : { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى } ؛ أي إنَّما يُعَذِّبُ اللهُ مَن كذبَ بما جئنا به وأعرضَ عنه ، فأمَّا مَن اتَّبَعَهُ فإنه يَسْلَمُ.

(٠/٠)

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يامُوسَى } ؛ أي من إلَهُكما الذي أرسلَكُما ، { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ

شَيءٍ خَلْقَهُ } ؛ أي ربُّنا الذي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ على الْهَيْأَةِ التي ينتفعُ بها ، فأعطاهُ صحَّته وسلامتَهُ وَرَكَّبَ فيه شهوتَهُ ، ثم هَدَاهُ لمعيشتهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : الذي صَوَّرَ كُلَّ جنسٍ من الحيوان على صورةٍ أُخرى ، فلم يجعل خَلْقَ الإنسانِ كخلق البهائمِ ، ولا خَلْقَ البهائمِ كخلق الإنسانِ ، ولكن خَلَقَ كلَّ شيء فقَدَّرَهُ تقديراً.

وقال الضحَّاك : (أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ؛ يَعْنِي لِلْيَدِ الْبَطْشَ ، وللرِّجْلِ الْمَشْيَ ، وَلِلِّسَانِ النُّطْقَ ، وَلِلْعَيْنِ النَّظَرَ ، وَلِلأُذُنِ السَّمْعَ). وقال سعيدُ بن جبير : (أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ شَكْلَهُ لِلإنْسَانِ زَوْجَةً ، وَلِلْبَعِيْرِ نَاقَةً ، وَلِلْفَرَسِ رَمَكَةً ، وَلِلْحِمَارِ أتَاناً ، وَلِلثَّوْر بَقَرَةً ، { ثُمَّ هَدَى } ؛ أي ألْهمَ وعَرَّفَ كيف يأتِي الذكرُ الأنثى في النِّكاحِ).

(٠/٠)

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى } ؛ قال : ما حالُ ، وما بيانُ الأُممِ الماضية ، لَم يُبعثوا ولَم يُجازَوا على أفعالِهم ، ومعنى البالُ : الشأنُ والحالُ. والمعنَى : مَا حَالُهَا ، فإنَّها لَم تُقِرَّ بالله ، ولكنَّها عبدَتِ الأوثانَ ، ويعني بالقُرُونِ الأُولى ، مِثْلَ قوم نُوحٍ وعاد وثَمودِ ، { قَالَ } موسى : { عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ } ؛ وإذا عَلِمَ لا بدَّ أن يُجازي. وَقِيْلَ : معناهُ : عِلْمُ أعمالِها عند ربي في كتاب الله ، أراد به اللَّوحَ الْمَحفُوظَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى } ؛ أي لا يذهبُ عليه شيءٌ ، ولا يخطئُ ولا ينسى ما كان من أمرِهم حتى يُجازِيهم عليه ، وَقِيْلَ : لا يغفلُ ربي ولا يتركُ شيئاً ، ولا يغيبُ عنه شيءٌ ، وفي هذا دليلٌ أنَّ الله تعالى لَم يكتُبْ أفعالَ العبادِ لحاجتهِ في معرفتها إلى الكتاب ، ولكن لمعرفةِ الملائكة. ويقالُ : كان سؤالُ فرعون عن القرونِ الأُولى : هل بُعِثَ فيهم أنبياءُ كما بُعْثَتَ إلينا ، فأحالَها على ما في المعلومِ من أمرها.

(٠/٠)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } ؛ وقرأ أهلُ الكوفةِ (مَهْداً) بغيرِ ألف ؛ أي فَرْشاً ، والفراشُ : الْمِهَادُ لغةٌ فيه كالفُرُشِ والفِرَاشِ ؛ أي جعلَها مبسوطةً ليمكن القرارُ عليها ، ولَم يجعلها حادَّةً كرؤوسِ الجبال.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } أي طُرُقاً تذهبون وتجيئُونَ فيها وتسلكونَها. قال ابنُ عبَّاس : (سَلَكَ أيْ سَهَّلَ لَكُمْ فِيْهَا طُرُقاً). { وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى } ؛ أي فأخرَجْنا بالمطرِ أصنافاً من نباتٍ مختلف الألوانِ.

(٠/٠)

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُواْ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ } ؛ أي كُلُوا من نباتِ الأرض ، وارْعَوا أنعامَكم من عُشْبهَا ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى } ؛ أي إنَّما ذكَرْتُ لكم لعلامةٍ دالَّة على البعثِ لذوي العقول من الناس ، وإنَّما سُميت العقولُ (نُهَى) ؛ لأن أصحابَها ينتهون بها عن القبيحِ والمعاصي.

(٠/٠)

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ } ؛ أي من الأرضِ خلقنا أباكم آدمُ وكلُّكم من ذريَّته ، { وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } ؛ عند الموتِ والدفنِ ، { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } ؛ للبعثِ ، وقد جَرَى ذكرُ الأرضِ في قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً }[النبأ : ٦].

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى } ؛ أي أرَيْنَا فرعونَ آياتنا السَّبع كلَّها فَكَذبَ وَأبَى ، أي قال : ليست هذه مِن الله ، وأبَى أن يُسْلِمَ ويقبلَ ، ونسبَ موسى إلى السِّحر ؛ ف { قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا } ؛ أي مصْرَ ، { بِسِحْرِكَ يامُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ } ؛ أي مِثْلِ ما جِئْتَنَا به ، { فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً } ؛ أي مِيْقَاتاً وأجَلاً في موضعٍ معلوم ، { لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ } ؛ أي لا نجاوزهُ ولا يقع منا خَلْفٌ في حضورهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَكَاناً سُوًى } ؛ أي مكاناً مُستوياً يُبَيِّنُ للناسِ ما بيننا ، ويستوي حالُنا من الرِّضى به. وَقِيْلَ : تستوي مسافتهُ على الفريقينِ فتكونُ مسافةُ كلِّ فريقٍ إليه كمسافة الفريق الآخر.

فواعدَهُ موسى يوماً مَعْلُوماً وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ } أي يومُ العيدِ الذي لكم. قال سعيدُ بن جبير : (كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ) ، قرأ الحسنُ : (يَوْمَ الزِّيْنَةِ) بنصب الميم ؛ أي فِي يوم. وقرأ الباقون بالرفعِ على الخبرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } ؛ أي ضُحى ذلك اليوم ، وأراد بالناسِ أهلَ مصر ، ومعنى يُحشرون أي يجتمعون إلى العيدِ ، وإنَّما جعلَ موسى موعدَهم نَهاراً في يومِ اجتماعهم ؛ ليكون أبلغَ في الحجَّة ، وأبعدَ من الرِّيبة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَن يُحْشَرَ } يحتمل أن يكون في موضعِ رفعٍ على معنى موعدٍ كما حُشِرَ الناسُ وقتَ الضُّحى يوم الزينة ، ويحتملُ أن يكون في موضعِ خَفْضٍ عَطْفاً على الزينةِ ، المعنى يومُ الزينةِ ، ويومُ حشرِ الناس في وقتِ الضَّحوة.

(٠/٠)

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى } ؛ أي فأعرضَ فرعونُ عن الحقِّ والطاعة فجمع كَيْدَهُ ومَكْرَهُ ، وذلك جمعهُ السَّحرةَ ثُم أتى الموعدَ ، والمعنى : { فَجَمَعَ كَيْدَهُ } أي سحرتَهُ ، وَقِيْلَ : كانوا أربعمائةِ ساحرٍ ؛ و { قَالَ لَهُمْ مُّوسَى } ؛ للسحرة : { وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ أي لا تُشركوا

مع اللهِ أحداً ، ولا تَخْتَلِقُوا عليه كَذِباً بتكذيبي ، { فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ } ؛ أي فيُهْلِكَكُمْ ويستأصِلَكم بعذاب من عندهِ ، { وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى } ؛ أي وقد خابَ منِ اخْتَلَقَ على اللهِ كَذباً. ومعنى قولهِ : { وَيْلَكُمْ } أي أُلْزِمُكُمُ الوَيْلَ. قرأ أهلُ الكوفة : (فَيُسْحِتَكُمْ) بضمِّ التاء وكسرِ الحاء ، يقالُ : سَحَتَهُ اللهُ وأسْحَتَهُ ؛ أي أهْلَكَهُ.

(٠/٠)

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَنَازَعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى } ؛ أي فتشاورتِ السحرةُ فيما بينهم من فرعون في أمرِ موسى ، وأسرُّوا المناجاةَ ، فقالوا : إن غَلَبَنَا موسى اتَّبَعْنَاهُ وآمَنَّا به فهذا نَجْوَاهُمْ.

(٠/٠)

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ } ؛ أي قال الملأُ من قومِ فرعون : إنَّ موسى وهارون لَسَاحرانِ ، { يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا } ؛ من أرضِ مصرَ ، { وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى } ؛ أي بدِيْنِكُم الأمثلُ ، وَقِيْلَ : معناه : ويَذْهَبَا بأهلِ طريقتكم.
وأختلفَ القُرَّاء في قولهِ تعالى { إِنْ هَاذَانِ } ، قرأ أبو عمرو (هَذيْنِ) على اللغة المعروفةِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز ، وقرأ نافعُ وابن عامر وحمزةُ والكسائي (هَذانِ) بالألفِ وهي لغَةُ كنانةَ وبني الحارثِ بن كعب وخَثْعَمَ وزيدٍ وقبائلَ من اليمنِ : يجعلون ألِفَ الاثنين في الرفعِ والنصب والخفضِ على لفظٍ واحد ، يقولون : أتاني الزَّيدان ، ورأيتُ الزَّيدان ، مَرَرْتُ بالزيدان. قال الفرَّاءُ : (أنْشَدَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أسَدٍ ، وَمَا رَأيْتُ أفْصَحَ مِنْهُ : فَأَطْرَق إطْرَاقَ الأُفْعُوَانِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا)ويقولون : كَسَرْتُ يَدَاهُ وَرَكِبْتُ عُلاَهُ ، يعني يديهِ وعليه ، قال شاعرُهم : تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاه ضَرْبَةً دَعَتْهُ إلَى هَابي التُّرَاب عَقِيْمُأراد بين أُذُنيهِ فقال آخرُ : أيُّ قُلُوصٍ رَاكِبٍ تَرَاهَا طَارُوا عَلاَهُنَّ فَطِرْ عَلاَهَا أي عليهنَّ وعليها ، وقال آخرُ : إنَّ أبَاهَا وَأبَا أبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَاوقال بعضُهم (إنْ) هنا بمعنى : نَعَمْ. رويَ أنَّ أعرابياً سألَ ابن الزُّبير شيئاً فَحَرَّمَهُ ، فقال : لَعَنَ اللهُ نَاقَةً حَمَلَتْنِي إلَيْكَ ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : (إنْ

وَصَاحِبُهَا) يعني نَعَمْ. وقال الشاعرُ : بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فِي الصَّبا حِ يَلُمْنَني وَأَلُومُهُنَّهْوَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَ كَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إنَّهْأي نعم. وقد ذكرَ أهلُ النحوِ لتصحيح هذه القراءةِ وجُوهاً :

أحدُها : ضَعْفُ عملِ (إنْ) لأنَّها تعملُ بالمشبَّه بالفعلِ وليست بأصلٍ في العمل ، ألا ترى أنَّها خُففت لَم تعمل.

والثاني : أنَّها تشبهُ (اللَّذيْنِ) في البناءِ ؛ لأن (اللَّذيْنِ) في الرفع والنصب والخفض سواءٌ ، ولأنَّ الألفَ في (هَذانِ) ليس ألفَ التشبيهِ لوجودها في الوِحْدَانِ ، وإنَّما زيْدَتْ النونُ في التثنيةِ ليكون فرقاً بين الواحدِ والاثنين ، كما قالواُ (الَّذِيْ) ثُم زادوا نُوناً تدلُّ على الجمعِ ، قالوا (الَّذِيْنَ) في رفعِهم ونصبهم.

والثالثُ : (إنْ) ها هُنا مخففة وليست مضمرة إلاّ أنه حُذفت الهاء.

والرابعُ : أنه لَمَّا حُذفت الألِفُ صارت ألفَ التثنية عِوَضاً منها.

والخامسُ : أنَّ (إنْ) بمعنى نَعَمْ.

(٠/٠)

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ } ؛ قرأ أبو عمرو (فَاجْمَعُوا) بوصلِ الألف وفتحِ الميم من الجمعِ ، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَمَعَ كَيْدَهُ }[طه : ٦٠] ، وقرأ الباقونَ (فَأَجْمِعُوا) بقطعِ الألف وكسرِ الميم ، مأخوذٌ من أجْمَعْتُ الأمرَ إذا عزمتُ عليه وأحكمتهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { كَيْدَكُمْ } أي مَكْرَكُمْ وسِحرَكم ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ ائْتُواْ صَفّاً } ؛ مُجتمعين ؛ ليكونَ أنظَمَ لأُموركم ، وأشدَّ لِهيبَتكم. وَقِيْلَ : معناهُ : ثُم ائتوا الْمُصَلَّى. والعربُ تسمِّي الْمُصَلَّى صَفّاً. قال الزجَّاج : (فَعَلَى هَذا مَعْنَاهُ : ثُمَّ ائْتُوا الْمَوْضِعَ الَّذِي تَجْتَمِعُونَ فِيْهِ لِعِيْدِكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى } ؛ أي قد فَازَ بالفلاحِ والبقاء مَن كانت الغَلَبَةُ لهُ.

(٠/٠)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ يامُوسَى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى } ؛ أي قالتِ السَّحرةُ : يَا مُوسَى إِمَّا أنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ إلى الأرض ، وَإِمَّا أنْ نَكُونَ أوَّلَ مَنْ ألْقَى الْعِصِيَّ والحبالَ ، { قَالَ } لَهم موسى : { بَلْ أَلْقُواْ } ؛ فألْقَوا حبالَهم وعِصِيَّهم.

روي أنَّهم كانوا سبعينَ ألفَ ساحرٍ ، وكان عددُ ما عمِلُوا من الحبالِ والعصيِّ حِمْلَ ثلاثِمائة بعيرٍ ، فألْقَوا ما معهم ، { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } ؛ أي تَمشي وتتحرَّكُ ، وكانوا قد احتالُوا فيها بحيلةٍ ، فكان كلُّ مَن رآها مِن بعيد يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها تتحركُ.

قرأ ابنُ عامر : (تُخَيِّلُ) بالتاء ، ردَّهُ إلى الحبالِ والعِصِيِّ ، وقرأ الباقون بالياء ، ردُّوهُ إلى الكيدِ والسِّحر ، وذلك أنَّهم لَطَّخُوا حبالَهم وعصيَّهم بالزِّئبقِ ، فلما أصَابَهُ حرُّ الشمسِ ارتعشت واهتَزَّت ، فظنَّ موسى أنَّها تقصده ، { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى } ؛ أي أحسَّ ووَجَدَ ، وَقِيْلَ : أضْمَرَ في نفسه خِيْفَةً.

فإن قِيْلَ : لِمَ جازَ أمرُهم بالإلقاءِ وهو كفرٌ ؟ قِيْلَ : يجوزُ أن يكون معناهُ : ألْقُوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ كما زعمتُم ، ويجوزُ أن يكون أمراً بالإلقاءِ على وجه الاعتبارِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ } ، فإن قِيْلَ : ما الذي خَافَهُ موسى ؟ قِيْلَ : خافَ أن يلتبسَ على الناسِ أمرُ السَّحَرَةِ فيتوهَّمون أنَّ حبالَهم وعصيهم بمنْزِلة عصاهُ. وَقِيْلَ : كان خوفهُ خوفَ الطبعِ لِمَا رأى من كثرةِ الحيَّات العِظَامِ.

(٠/٠)

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى } ؛ عليهم بالظَّفَرِ والغلبة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ } ؛ يعني العصَا ، { تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ } ؛ أي تَلْقَمْ وتَبْلَعْ ما طَرحُوا من العصيِّ والحبالِ ، { إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ } ؛ أي أنَّ الذي صنعوهُ كَيْدُ سَاحِرٍ. وقُرئ (كَيْدُ سِحْرٍ) كما قالوا بمعنى حذر ، { وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } ؛ أي لا يَغْلِبُ حَقَّكَ بباطلِهِ. وَقِيْلَ : لا يُسْعَدُ السَّاحرُ حيث كان.

فألقَى موسى عصاهُ فتلقَّفت جميعَ ما صنعوا ، ثُم أخذها موسى فرجعت عصا كما كانت ، { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } ؛ فما رفَعُوا رؤوسَهم حتى رأوا الجنةَ والنار ، ورأوا ثوابَ أهلِها ، فعندَ ذلك قالوا : (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البيِّنات) يعني الجنةَ والنار ، وما رأوا مِن درجاتِهم.

قال : وكانتِ امرأةُ فرعون تسألُ مَنْ غَلَبَ ؟ فقيل لَها : موسى ، فقالت : آمنتُ برب موسى وهارون ، فأرسلَ إليها فرعونُ ، فقال : انظرُوا إلى أعظمِ صخرة تَجدونَها فأْتُوها ، فإنْ هي رجعت عن قولِها وإلاّ فألْقُوها عليها ، فلما أتَوها رفعت ببصرِها إلى السَّماءِ فرأتِ الجنَّةَ فقالت : { رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ }[التحريم : ١١] فانْتُزِعَتْ روحُها ، والصخرةُ على جسدٍ لا روحَ فيه.

(٠/٠)

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ آمَنتُمْ لَهُ } ؛ بموسى ، { قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } ؛ في الإيْمانِ. والفرقُ بين (آمَنْتُمْ لَهُ) وآمَنتُم بهِ : أنَّ في (آمَنْتُمْ لَهُ) معنى الاتِّباع لهُ ، وآمنتم به إيْمانٌ بالخبر من اتباع له في ما دعَا اليه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } ؛ أي رئيسُكم ومعلِّمُكم ، وإنَّما قال فرعونُ هذه المقالةَ قصداً منه إلى صَرْفِ الناس عن اتِّباع موسى ؛ لأن السَّحرةَ لَم يتعلَّموا من موسى ، وإنَّما كانوا يعلَّمون السحرَ قبل قُدوم موسى وقبل ولادته ، { فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ } ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ ، { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } ؛ أي على جُذوع النَّخلِ ، أُقيمَ حرفُ (في) مقام حرفِ (على) ، فكان فرعونُ أوَّلَ من قطعَ اليد والرِّجل من خلافٍ وصَلَبَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى } ؛ أي لتعلمنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى عذاباً ، أنا أمْ ربُّ موسى وهارون.

(٠/٠)

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ } ؛ أي قالتِ السحرةُ لفرعونَ : لن نَخْتَارَكَ على ما جاءَنا من الحقِّ والبراهين يعني اليدَ والعصا. وقال عكرمةُ : (هُوَ لَمَّا رَفَعُواْ رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ رَأوا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَرَأواْ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي فَطَرَنَا } ؛ أي لن نُؤْثِرَكَ على الله الذي فَطَرَنَا ؛ أي خَلَقَنَا ، ويجوزُ أن يكون قولهُ

{ وَالَّذِي فَطَرَنَا } قَسَماً ، { فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ } ؛ أي إصْنَعْ ما أنتَ صانع ، { إِنَّمَا تَقْضِي هَاذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ } ؛ أي إنَّما تحكمُ علينا في الدُّنيا وهي منقضيةٌ لا محالةَ ، وأما الآخرةُ فليسَ لك فيها حظٌّ.

(٠/٠)

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا } ؛ أي إشْرَاكُنا في الجاهليَّة ويغفر لنا { وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ فِرْعَوْنُ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ حَتَّى لاَ يَنْقَطِعَ عَنْهُمْ). وقِيْلَ : إنه أكْرَهَ هؤلاء السَّحرة على معارضةِ مُوسى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } ؛ أي هو خيرٌ ثواباً إنْ أُطِيْعَ ، وأبقى عقاباً إنْ عُصِي. ويقالُ : ما عندَ الله من الكرامةِ والثواب أفضلُ وأدوم مما تعطينا أنتَ من المالِ ، وهذا جوابٌ عن قوله{ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى }[طه : ٧٣] وها هنا انتهى قولُ السَّحرةِ.

(٠/٠)

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً } ؛ أي مَن يَأْتِ إلى موضعِ الحساب عَاصِياً ، { فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا } ؛ فيستريحَ ، { وَلاَ يَحْيَى } ؛ حياةً تنفعهُ ، قال ابنُ عبَّاس : (الْمُجْرِمُ الْكَافِرُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ } ؛ أي قد عَمِلَ الطاعاتِ ، { فَأُوْلَـائِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } ؛ أي الرفيعةُ في الجنَّة.
ودرجاتُ الجنة بعضُها أعلى من بعضٍ ، والعُلْى جمعُ العُلْيَا ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أسْفَلُ مِنْهُمْ كَأَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ ، وَإنَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ ".

(٠/٠)

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذالِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّى } ؛ أي مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوب بالطاعة بدلاً من تَدَنُّسِ النفوسِ بالمعصية.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } ؛ يعني أسْرِ بهم في أوَّلِ الليل من أرضِ مصرَ ، يعني بني إسرائيلَ ، { فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً } ؛ أي يَابساً ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أيْبَسَ لَهم ذلك الطريقَ حتى لَم يكن فيه ماءٌ ولا طين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى } ؛ أي إنكَ آمنٌ لا تخافُ أن يُدركَكَ فرعونُ ، ولا تخشَ الغرقَ من البحرِ.
وقرأ حمزةُ (لاَ تَخَفْ) على النَّهي مجزوماً ، (وَلاَ تَخْشَى) بالألفِ ، كأنه استأنفٌ ، وتقديرهُ : وأنتَ لا تخشى ، كقولهِ : { يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ }[آل عمران : ١١١].

(٠/٠)

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } ؛ مَن قرأ (فَأَتْبَعَهُمْ) بالتخفيف فمعناهُ : ألْحَقَ جُنُودَهُ بهم ، والباءُ في (جُنُودِهِ) زائدةٌ ، والمعنى : أمَرَهُم أن يتَّبعُوا موسى وقومَهُ ، ومن قرأ (فَأَتَّبَعَهَمْ) بالتشديدِ ، فالمعنى اتَّبَعَهُمْ بنفسهِ ومعهُ الجنود. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ } ؛ أي عَلاَهُمْ وسَتَرَهُمْ من البحرِ ما علاهُم وهو الغرقُ.
وذلك أنَّهُ لَمَّا تَرَاءَى الجمعانِ ، أمرَ اللهُ موسى أن يضربَ بعصاهُ البحرَ ، فضربه فانفلقَ الماءُ في عِرْضِ

البحرِ حتى صارَ فيه اثنا عشرَ طريقاً ، وبَقِيَ الماءُ قائماً بين الطريقين كالجبلِ ، فسَلَكَ موسى ، وأخذ كلُّ سِبْطٍ من بني إسرائيل طَريقاً من هذه الطُّرُقُ.

فلما أشرفَ فرعونُ وقومُهُ على البحرِ فرأوهُ مُنْفَلِقاً فيه طُرُقٌ يابسةٌ ، أوْهَمَ قومَهُ أنَّ البحرَ إنَّما انفلقَ من هَيْبَتِهِ! فدخلَ فرعونُ خَلْفَ بني إسرائيلَ ، فصاحَتِ الملائكةُ في القومِ : أنْ الْحَقُوا الْمَلِكَ حتى إذا دَخَلَ آخرُهم ، وهَمَّ أوَّلُهم بالخروجِ أن يخرجَ ، أطبقَ اللهُ تعالى البحرَ عليهم فَغَرِقُوا.

وقال وهبُ : (استعارَ بنُو إسرائيلَ حُلِيّاً كثيراً من القِبْطِ ، ثُم خرجَ بهم موسى من أوَّلِ الليل ، وكانوا سبعينَ ألفاً ، فأُخْبِرَ فرعونُ بذلك فركِبَ في ستمائة ألفٍ مِن القِبْطِ يَقُصُّ أثرَ بني إسرائيل.

فلما رأى قومُ موسَى رَهَجَ الخيلِ – أي غُبَارَها – قالوا : إنا لَمُدْرَكون ، قال موسى : كلاَّ ، إنَّ معي ربي سيهدينِ ، فلما قَرُبوا قالوا : يا موسى أينَ تَمضي البحرُ أمامَنا وفرعونُ خَلفَنا؟!

فضربَ البحرَ بعصاهُ فانفلقَ وصار فيه اثنا عشرَ طريقاً يابسةً ، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ ، وصارَ بين كلِّ طريقين كالطَّوْدِ العظيم من الماءِ ، وكانوا يَمُرُّونَ في الطريق ولا يرَى بعضُهم بعضاً ، فاستوحَشُوا وخافوا ، فجعلَ اللهُ الأطوادَ شبَكاتٍ يرَى بعضُهم بعضاً ، ويسمعُ بعضُهم كلامَ بعضٍ.

فلما أتَى فرعونُ الساحلَ ورأى بني اسرائيل قد عَدَوا البحرَ ، جاء جبريلُ على رَمَكَةٍ طالبةٍ للذكَرِ ، وكان فرعونُ على حصانٍ ، فأدخلَ الرَّمَكَةَ في الماء فلم يتمالكِ حصانُ فرعون أن اقْتَحَمَ على إثْرِها ، ودخلَ القِبْطُ عن آخرهم ، فلما وَلَجُوا كلُّهم أوحى اللهُ تعالى إلى البحرِ : أنْ أغرِقْهُمْ عن آخرِهم ، فعلاهم الماءُ فغَرِقُوا).

قال كعبٌ : (فَعَرَفَ السَّامِرِيُّ فَرَسَ جِبْرِيْلَ ، فَحَمَلَ مِنْ أثَرِهِ تُرَاباً ، وَأَلْقَاهُ فِي الْعِجْلِ حِيْنَ اتَّخَذُوهُ).

(٠/٠)

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } ؛ أي أضلَّهُم حين دعاهُم إلى عبادتهِ ، { وَمَا هَدَى } أي وما أرْشَدَهم حين أورَدَهم مواقعَ الْهَلَكَةِ ، وهذا تكذيبٌ له في قولهِ{ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ }[غافر : ٢٩].

(٠/٠)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ } ؛ يعني فرعونَ أغْرَقَهُ بمرأى منهم ، { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ } ؛ قرأ حمزةُ : (نَجَّيْتُكُمْ... وَوَعَدْتُكُمْ... وَرَزَقْتُكُمْ) بغيرِ ألف.
وذلك أنَّ اللهَ وَعَدَ موسى بعد ما أغرقَ فرعون ليأتِي جانبَ الطُّورِ الأيْمَنَ فيؤتيهِ التوراةَ فيها بيانُ ما يحتاجُ إليه. { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } في التِّيْهِ ، { كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ؛ أي من حَلاَلِ ما رزقناكم من الْمَنِّ والسَّلْوَى ، واشكروا إنعامِي. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ } ، أي لا تَبْطَرُوا فيما أنعمتَ فتكونوا طاغينَ ، { فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي } ، أي فتجبُ عليكم عقوبَتي. قرأ الأعمشُ والكسائيُّ : (فَيَحُلُّ) أي فينْزِلُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } ؛ أي فقد تَرَدَّ في النار. وَقِيْلَ : معناهُ : فقد هَلَكَ وسقط في النارِ. وقرأ الكسائيُّ : (وَمَنْ يَحْلُلْ) بضمِّ اللام ، قال الفرَّاءُ : (وَالْكَسْرُ أَوْلَى مِنَ الضَّمِّ ؛ لأنَّ الضَّمَّ مِنَ الْحُلُولِ وَهُوَ الْوُقُوعُ ، وَيَحْلِلُ بالْكَسْرِ يَجِبُ ، وَجَاءَ التَّفْسِيْرُ بالْوُجُوب لاَ بالْوُقُوعِ).

(٠/٠)

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى } ؛ أي لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ ، وآمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالحاً ، ثُم استقامَ على معرفةِ اللهِ وأداءِ فرائضه واجتناب مَحَارِمِهِ حتى ماتَ على ذلكَ بتوفيقِ اللهِ.

(٠/٠)

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يامُوسَى } ؛ الآيةُ ، روي : أنَّ موسى لَمَّا ذهبَ مع السبعينَ الذين اختارَهم إلى الميقاتِ ليأخذ التوراة من رَبِهِ ، تعجَّلَ إلى الميقاتِ قبل السَّبعين شَوْقاً إلى رَبِهِ ، وخَلَفَ أولئكَ السبعين وأمَرَهم أن يلحقوهُ ويتبعوه إلى الجبلِ وهو الطُّورُ والميقاتُ ، فقال اللهُ تعالى لهُ : { وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يامُوسَى } { قَالَ } ؛ أي موسى : يا رب ، { هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي } ؛ أي هُم أولاء يجيئون بعدي ، { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } ؛ أي لتزدادَ رضىً عنِّي ، والرِّضَى من اللهِ إيجابُ الدرجةِ والكرامة لَهم.

(٠/٠)

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } ؛ أي ابتَلَينا قومَكَ الذين خلفتَهُم مع هارون وكانوا ستمائة ألفٍ. وقال الزجَّاجُ : (مَعْنَى : فَتَنَّا قَوْمَكَ ؛ أيْ ألْقَيْنَاهُمْ فِي فِتْنَةٍ وَمِحْنَةٍ) ، وقال ابنُ الأنباريِّ : (صَيَّرْنَاهُمْ مَفْتُونِيْنَ أشْقِيَاءَ بعِبَادَةِ الْعِجْلِ ، فَافْتَتَنُواْ بالْعِجْلِ غَيْرَ اثْنَي عَشَرَ ألْفاً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن بَعْدِكَ } أي مِن بعد انطلاقِكَ إلى الجبلِ ، قولهُ { وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } أي دَعَاهُمْ إلى عبادةِ العجل وحَمَلهم عليها.

(٠/٠)

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً } ؛ أي رَجَعَ من الميقاتِ إلى السبعين ، إلى قومِهِ. فلما سَمِعَ صوتَ الفتنةِ رجعَ { غَضْبَانَ أَسِفاً } أي حَزِيناً شديدَ الحزن جَزِعاً مع عصبة و { قَالَ ياقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً } ؛ أي أَلَمْ يَعِدْكُمْ إنزالَ التوراةِ لتعمَلُوا بما فيها فتستحقُّوا الجنة والكرامة الدائمة ، { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } ؛ مدَّةَ مُفارقَتي إياكم ، { أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ بأن يَنْزِلَ بكم بعبادتكم العجلَ ، { فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي } ؛ ما وَعَدَ الْمَوْلَى منْ حُسنِ الخلافةِ بعدي.

(٠/٠)

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ } ؛ أي الذين لَم يعبدوا العجلَ ، { مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا } ؛ ونحنُ نَملكُ من أمرِنا شيئاً ؛ أي لَم نُطِقْ رَدَّ عَبَدَةِ العجلِ مِن ما ارتكبوهُ لكثرَتِهم وقِلَّتِنَا ؛ لأنَّهم اثنا عشر ألفاً ، والذين عَبَدُوا العجلَ خمسُمائة ألفٍ وثَمانية وثَمانون ألفاً ؛ لأنَّهم كانوا جميعاً ستُمائة ألف.

وأكثرَ القُرَّاءُ (بِملْكِنَا) بالكسرِ أي بأمرِنا. ومَن قرأ بفتحِ الميم فهو المصدرُ ، ومَن قرأ بضمِّ الميم فمعناه : بسُلطاننا وقُدرتنا ؛ أي لَم نقدِرْ على ردِّهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ } ؛ أي أثْقَالاً وحمالاً من حِلِيِّ آلِ فرعون ، والوِزْرُ في اللغة : هو الْحِمْلُ الثقيلُ ، وذلك أن موسَى كان أمرَهم أن يستعيرُوا مِن حِلِيِّهم حين أرادوا أن يَسْرُوا ، هكذا روي عن ابنِ عباس. وَقِيْلَ : إنهم كانوا استعارُوها ؛ ليتزيَّنُوا بها في عِيْدٍ كان لَهم ، ثم يردُّوها عليهم عند الخروجِ ، وكان ذلك ذنْباً منهم ، فعلى ذلك يكونُ معناه : حُمِّلْنَا آثاماً مِن حِلِيِّ القوم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَذَفْنَاهَا } ؛ أي فَقَذفْنَا الحِلِيِّ في النارِ ليُذابَ ، { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } ؛ ما معهُ من الحليِّ كما ألقينا ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد وَقَّتَ لِموسى ثلاثينَ ليةً ثُم أتَمَّها بعشرٍ ، فلما مضت الثلاثونَ قال السامريُّ : إنَّما أصابَكم هذا عقوبةً لكم بالحليِّ الذي معكم ، فاجْمَعُوها حتى يجيءَ موسى فيقضي فيها ، فجُمعت لهُ ، فصنعَ منها العجلَ في ثلاثةِ أيَّام ، ثُم قَذفَ فيه القبضةَ التي اتخذها من أثَرِ فرسِ جبريلَ.

(٠/٠)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ } ؛ أي أخرجَ لَهم من النار صورةَ عِجْلٍ صاغَها من الحليِّ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُ خُوَارٌ } أي صَوْتٌ كصوتِ العجل.

واختلفوا في هذا الْخُوَارِ ؛ قال مجاهدُ : (خُوَارُهُ حَفِيْفُ الرِّيْحِ إذا دَخَلَتْ جَوْفَهُ ، وَذلِكَ أنَّهُ كَانَ جَعَلَ فِي جَوْفِ الْعِجْلِ خُرُوقاً إذا دَخَلَتْهَا الرِّيْحُ أوْهَمَ أنَّهُ يَخُورُ). قال الحسنُ وقتادة والسديُّ : (كَانَ

السَّامِرِيُّ أَلْقَى عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ أثَرِ فَرَسِ جِبْرِيْلَ كَمَا قَالَ : { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا }[طه : ٩٦] ، فَانْقَلَبَ الْعِجْلُ حَيْوَاناً يَخُورُ) أي وكان معلوماً في ذلكَ الزمانِ أنَّ مَن أخذ من حافرِ دابة مَلَكٍ ، فألقاها على شيءٍ صارَ ذلِك الشيءُ حيواناً.

قالوا : وإنَّما عَرَفَ أن راكبَ تلك الدَّابة جبريلُ ؛ لأنَّها كانت لا تضعُ حافِرَها على موضعٍ إلاّ اخْضَرَّ.

ويروَى أن هارونَ مَرَّ بالسامريِّ وهو يصنعُ العجلَ ، فقالَ لهُ : ما تصنعُ ؟ قال : أصنعُ ما ينفع ولا يضرُّ ، ثُم قال لِهارون : ادعُ لِي ، فقال : اللَّهُمَّ أعْطِهِ ما يسألُ كما يحبُّ ، فسألَ اللهَ أن يجعلَ للعجلِ خُواراً ، فكان الخوارُ يخرج من ذلك الجسدِ الْمُجَسَّدِ كما يخورُ الثور ، فأوهَمَهم السامريُّ أنه حَيٌّ فافتتنَ به قومٌ فعبدوه ، ولو رجَعُوا إلى عُقولِهم لعرفوا أنه لا يصلحُ أن يكون إلَهاً ؛ لأنه مصنوعٌ صنعةَ آدميٍّ مخلوقٍ من حُلِيٍّ مخلوقة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالُواْ هَاذَآ إِلَاهُكُمْ وَإِلَاهُ مُوسَى } ؛ أي قال لَهم السامريُّ ذلك ووافقَهُ قومٌ على ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَسِيَ } ؛ أي فَنَسِيَ السامريُّ الإسلامَ ؛ أي فَتَرَكَهُ ، وَقِيْلَ : معناه : قال السامريُّ لِمن وافقَهُ على كُفْرِهِ : إن موسَى أرادَ هذا العجلَ ، فترك الطريق الذي كان يصلُ إليه ؛ أي أن موسى تركَ إلَهَهُ هنا ، وذهبَ يطلبهُ.

(٠/٠)

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً } ؛ أفلاَ يرى السامريُّ وأصحابهُ (أنَّهُ) يعني العجلَ لا يَرُدُّ إليهم جواباً ، { وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً } ؛ جرَّ منفعةٍ ولا دفعَ ضُرٍّ شيءٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ياقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ } ؛ وذلكَ أن السامريَّ لَمَّا دعاهُم إلى عبادةِ العجل وقال لَهم : إنَّ هذا إلَهُنا وإلهُ موسى ، وأن موسَى مَعْنِيٌّ في طلبِهِ ، وهو ههنا.

فقامَ هرونُ فيهم خطيباً ، وقالَ : يَا قَوْمِ إنَّمَا فُتِنْتُمْ بعبادةِ العجل ، { وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ } ؛ لا العجلُ ، { فَاتَّبِعُونِي } ؛ لِما أدعوكم اليه ، { وَأَطِيعُواْ أَمْرِي } ؛ لا أمرَ السامريِّ ، فَعَصَوْهُ ؛ { قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ } ؛ أي لا نزالُ مقيمين على عبادتهِ ، { حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } ؛ ومعنى قولهِ تعالى { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ } أي من قبلِ أن يأتِي موسى.

فلما رجعَ موسى ؛ { قَالَ } ؛ لِهارون : { ياهَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ } ؛ بعبادةِ العجل ، { أَلاَّ تَتَّبِعَنِ } ؛ لا زائدةٌ ؛ أي ما منعكَ من اتِّباعي واللحوقِ بي بمن أقامَ على إيْمَانِهِ ، { أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } ؛ بإقامتِكَ بينهم وقد كفروا ، ثُم أخذ موسى برأسِ هارون ولِحيَته غضباً منهُ عليه فـ { قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي } ؛ ولا بشعرِ رأسي ، { إِنِّي خَشِيتُ } ؛ إن فارقتُهم واتبعتك بمن أقامَ على دِينك أن يتفرَّقُوا أحزاباً ، وخشيتُ أن يَقْتُلَ بعضُهم بعضاً و { أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ } ؛ أي ولَم تحفَظْ ، { قَوْلِي } ؛ وصيَّتي ، ولَم تنتَظِر قُدُومِي وأمري ، فلذلك لَم أتَّبِعْكَ بمن أقامَ منهم على دِينك.

قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ هَارُونُ أخَا مُوسَى لأَبِيْهِ وَأُمِّهِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : يَا ابْنَ أُمِّ ليرفقَهُ ويستعطفه عليه) ، وفي قولهِ (يَا ابْنَ أُمِّ) قِرَاءَتان ، مَن قرأ بفتح الميمِ جعلهُ بمنْزِلة اسمٍ واحد يصلُ الثانِي بالأول ، مثلُ خمسةَ عشر ، ومَن قرأ بالكسرِ فعلى معنى الإضافة ، ودلَّتْ كسرةُ الميم على الياءِ التي بعدها.

فإن قِيْلَ : كيف جازَ أن يأخذ موسى بلحيةِ هارون ورأسه مع أن ذلك يقتضِي الاستخفافَ به ؟ قِيْلَ : لأن العادةَ في ذلك الوقتِ لَم تكن كهذهِ العادة ، بل كان ذلكَ في زمانِهم يجري مجرَى القبضِ على يده ، وَقِيْلَ : لأنه أجرَى هرون مُجرى نفسهِ ؛ لأنه لَم يكن يتَّهم ، كما لا يتهم على نفسهِ ، فقد يأخذُ الإنسانُ بلحيةِ نفسهِ إذا غَضِبَ ، ويقال : (إنَّ عُمَرَ عليه السلام كَانَ إذا غَضِبَ يَفْتِلُ شَارِبَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } أي فتركتَ وصيَّتي ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } يعني : ولَم تحفَظْ وصيَّتي حين قلتُ لكَ أخلفني في قومي وأصلِحْ.

فلما اعتذرَ هارونُ بهذا العذرِ أقبلَ موسى السامريِّ ؛ { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسَامِرِيُّ } ؛ أي ما شأنُكَ وما الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ ؟ وَقِيْلَ : معناه : ما هذا الْخَطْبُ الْعظيم الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ ، والْخَطْبُ هو الجليلُ من الأمرِ.

قال قتادةُ : (كَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إسْرَائِيْلَ ، مِنْ قَبِيْلَةٍ يُقَالُ لَهَا سَامِرَةٌ ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ مَا قَطَعَ الْبَحْرَ مَعَ بَنِي إسْرَائِيْلَ مَرَّ بجَمَاعَةٍ وَهُم يَعْكِفُونَ عَلَى أصْنَامٍ لَهُمْ وَمَعَهُ بَنُو إسْرَائِيْلَ ، فَقَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، فَاغْتَنَمَهَا السَّامِرِيُّ فَاتَّخَذَ الْعِجْلَ) ، { قَالَ } ؛ السَّامِرِيُّ مُجيباً لِموسى : { بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ } ؛ أي رأيتُ ما لَم يَرَوا ، بَصُرْتُ به ، وعرفتُ ما لَم يعرفوا وفطنتُ ما لَم

يفطنوا ، قال له موسى : وما الذي بَصُرْتَ به دون بني إسرائيل؟
قال : { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } ؛ من حافرِ فرسِ جبريل ، وكان قد أُلقي في نفسِي أن أقبضها ؛ وما ألقيهِ على شيءٍ إلاّ صارَ له روحٌ ولَحم ودمٌ ، فحين رأيتُ قومَكَ طلبوا منكَ أن تجعل لَهم إلَهاً حدَّثتني نفسي بذلكَ ، { فَنَبَذْتُهَا } أي فطرحتُها في العجلِ ، { وَكَذالِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي } ؛ أي زَيَّنَتْ لِي نَفْسِي) أي أطمَعَتني نفسي في أن العجلَ ينقلبُ حيواناً.

(٠/٠)

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ } ؛ أي قال موسَى : فَاذهَبْ مِن بيننا ، فإن لكَ ما دُمْتَ حيّاً أن تقولَ : (لاَ مِسَاسَ) أي لا أُمَسُّ ولا أُمَسُّ ولا أخالطُ ، وأمرَ موسى أن لا يؤاكلوهُ ولا يخالطوه ولا يبايعوهُ ، فَحَرَّمَ عليهم مخالطةَ السامريِّ زَجْراً لفعلهِ ، وكان هو يقيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباع.
ويقالُ : إنه ابْتُلِيَ بالوَسْوَاسِ ، ويقال : إنَّ موسى هَمَّ بقتلِ السامريِّ فقال اللهُ : لا تَقتُلْهُ فإنه سخيٌّ! فكان السامريُّ إذا لَقِيَ أحداً يقولُ : لاَ مِسَاسَ ؛ أي لا تَقْرَبْنِي ولا تَمسَّني ، وذلك عقوبة لهُ ولولدهِ ، عَاقَبَهُ اللهُ بذلك حتى أن بقايَاهم اليومَ يقولون كذلكَ. وذُكِرَ أنه إذا مَسَّ واحدٌ من نَسْلِهِ أحداً من غيرهم حَمَّ كلاهُما في الوقت. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ } ؛ معناهُ : وإن لكَ يا سامريُّ أجَلاً يُكَافِؤُكَ اللهُ فيه على ما فعلتَ وهو يومُ القيامة.
قرأ الحسنُ وابن مسعود : (نُخْلِفَهُ) وابن كثير وابن عامرٍ (تُخْلِفَهُ) بكسرِ اللام ؛ أي لن يغيبَ عنه بل يوافقهُ ، ولا مذهبَ لك عنه ، وقرأ الباقون بفتحِ اللام بمعنى لن يَخْلَفَهُ اللهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَانظُرْ إِلَى إِلَـاهِكَ } ؛ أي وانظر إلى العجلِ الذي أقمتَ على عبادتهِ ، وزعمتَ أنه إلَهُكَ ومعبودُك ، { الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً } ؛ أي مُقيماً تعبدهُ ، تقولُ العرب ظَلْتُ أفْعَلُ كذا بمعنى ظَلَلْتُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (حَرَّقَهُ بالنَّارِ ، ثُمَّ ذرَّاهُ فِي الْيَمِّ) وهذه القراءةُ تدلُّ على أن ذلك العجلَ صار حيواناً لَحماً ودماً لأن الذهبَ والفضَّة لا يُمكن إحراقُهما بالنار.
وذُكِرَ في بعضِ التفاسير : أن موسى أخذ العجلَ فذبَحَهُ فسالَ منه دمٌ ، لأنَّه كان قد صارَ دماً ولحماً ، ثُم أحرقه بالنارِ ثم ذرَّاهُ في البحرِ.

وكان الحسنُ يقرأ (لَنُحْرِقَنَّهُ) بالتخفيف ، ومعناه : لَنَذْبَحَنَّهُ ثم لنحرقنه بالنار ، لأنه لا يجوزُ إحراقُ الحيوانِ قبل الذبحِ كما روي في الخبر : " لاَ تُعَذِّبُوا أحَداً بعَذاب اللهِ ".
وقرأ أبو جعفرٍ وأشهبُ العقيلي : (لَنَحْرُقَنَّهُ) بنصب النونِ وضمِّ الراء ؛ أي لَنَبْرُدَنَّهُ بالْمِبْرَدِ ، يقال : حرقتُ الشيءَ أُحرِقهُ أذا بَرَدْتَهُ ، والْمِحْرَقُ هو الْمِبْرَدُ ، وهذه القراءةُ تدلُّ على أن العجلَ كان ذهباً ، ولكن كان له خُوار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً } أي لَنُذرِّيَهُ في البحرِ تذريةً ، يقالُ : نَسَفَ فلانٌ الطعامَ بالْمَنْسَفِ إذا ذرَّاهُ ليطيرَ عنه قشوره وترابه.

(٠/٠)

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ أي قال لَهم موسى : { إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } أي لا معبودَ للخلقِ سواهُ ، فهو الذي يستحقُّ العبادةَ لا العجلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } ؛ أي أحاطَ علمهُ بكلِّ شيء ، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِ العباد.

(٠/٠)

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ } ؛ أي كما قصَصْنا عليكَ يا مُحَمَّدُ خبرَ موسى وقومِهُ كذلك نقصُّ عليك مِن أخبارِ مَن قد مضَى وتقدَّمَ من أخبارِ الرُّسل وأُمَمِهم ، { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً } أي وقد أكرمناكَ بالقُرْآنِ العظيم.

(٠/٠)

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً } ؛ أي مَن أعرضَ عن القُرْآنِ فلم يؤمِنْ به فإنه يَحْمِلُ يوم القيامة إثْماً. والوِزْرُ ها هنا : الْحِمْلُ الثقيلُ من الإثْمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهِ } ؛ أي مُقيمين في عقوبةِ ذلك الإثمِ وعذابِه ، { وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً } ؛ أي ساء وِزْرُهُمْ ، يومئذ حملاً.

(٠/٠)

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ } ؛ قرأ ابو عمرٍو بنون مفتوحةٍ ، وقرأ الباقون بياءٍ مَضمومة غير تسمية الفاعل ، والصُّورُ : قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه يومئذٍ ؛ ليقومَ الناسُ من قبورهم مثلَ بُوقِ الرَّحيل وبوقِ النُّزولِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقاً } ؛ قِيْلَ : معناهُ : قد ازْرَقَّتْ أعيُنهم من شدَّة العطشِ ؛ لأن العطشَ إذا اشتدَّ يغيِّرُ سوادَ العين إلى الزُّرقة. وَقِيْلَ : معناهُ : عُمْياً ، ومعنى الزُّرقَةِ الْخُضْرَةُ في سَوادِ العين كعَيْنَي السَّنُّورِ ، والمعنى في هذا : تشويهُ الْخَلْقِ سوادُ الوُجوهِ ، وزُرْقَةُ العيون.

(٠/٠)

يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ } ؛ أي يَتَشَاوَرُونَ فيما بينهم ، يقولُ بعضُهم لبعضٍ : { إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً } ؛ أي ما لَبِثْتُمْ من النَّفخة الأُولى إلى الثانيةِ إلاّ عشرَ ليال ، وذلك أنَّهم يُكَفُّ عنهم العذابُ فيما بين النَّفختين وهو أربعونَ سنةً ، فاسْتَقْصَرُوا مدَّةَ لُبْثِهِمْ لِهولِ ما عاينوا. وَقِيْلَ : معناهُ : يقولون ما لَبِثْتُمْ في الدُّنيا إلاّ عشرَ ليالٍ ، وذلك لشدَّة ما يَرَوْنَ من هَوْلِ يوم القيامة يَنْسُونَ ما لَبثوا في الدُّنيا.

(٠/٠)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } ؛ أعلَمُهم عندَهم ، { إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً } ؛ نَسَوا مقدارَ لُبْثِهِمْ لشدَّة وهمِهم ، فقالوا هذا القولَ وهو كذبٌ منهم.

(٠/٠)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ } ؛ أي يسألُكَ الكفارُ عن حالِ الجبال يومَ القيامة : أينَ تذهبُ مع عِظَمِهَا. وقال ابنُ عبَّاس : (سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيْفٍ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } ؛ أي يُصَيِّرُها رَمْلاً تسيلُ سَيلاً ، ثُم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرِّقُها كتَذْرِيَةِ الطعامِ من القشُور والتراب ، فيصيِّرُها كالْهَبَاءِ ، وكالصُّوف المنفوشِ.

(٠/٠)

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً } ؛ أي أرْضاً ملساءَ مستويةً لا نَبَاتَ فيها ، والصَّفْصَفُ : الأَمْلَسُ الذي لا نباتَ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (الْعِوَجُ : الأَوْدِيَةُ ، وَالأَمْتُ : الرَّوَابي) ، وقال مجاهدُ : (انْخِفَاضاً وَارْتِفَاعاً) ، وقال قتادةُ : (لاَ تَرَى فِيْهَا صَدْعاً وَلاَ أَكَمَةً) ، وقال الحسنُ : (الْعِوَجُ : مَا انْخَفَضَ مِنَ الأَرْضِ ، وَالأَمْتُ : مَا يَسْتُرُ مِنَ الرَّوَابي) ، ويقالُ : مَدَّ حَبْلَهُ حتى ما تركَ فيه أمتاً ، وملأَ سقَاءه حتى ما ترك فيه أمتاً ؛ أي انثناءً.

(٠/٠)

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ } ؛ أي يومئذٍ يتَّبعون داعِيَ اللهِ الذي يدعوهم إلى موقفِ القيامة وهو اسرافيلُ لا عِوَجَ لدعائهِ ، وَقِيْلَ : لا عِوَجَ لَهم عن دعائهِ ؛ أي لا يزيغون عنه ، بل يَتْبَعُونَهُ سَرَايا لا يُعدِلُونَ عن الطريقِ يَميناً ولا شِمالاً ولا يَملكون التأخُّرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ } أي ذلَّتِ الأصواتُ لِهَيْبَةِ الرَّحمنِ ، وَقِيْلَ : سَكَنَتِ الأصواتُ لهُ ، فَوَصَفَ الأصواتَ بالخشوعِ ، والمعنى لأهْلِها ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً } ؛ أي إلاَّ صَوتاً خَفيّاً يعني صوتَ نقل الأقدامِ إلى الْمَحْشَرِ.

والْهَمْسُ : الصوتُ الخفيُّ كأخفافِ صوت الإبل في المشيِ. وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى الْهَمْسِ تَحْرِيْكُ الشِّفَاهِ بغَيْرِ مَنْطِقٍ) وهو قولُ مجاهد ، والكلامُ الخفيُّ ، والمعنى على هذا التفسيرِ : سَكَنَتِ الأصواتُ فلا يَجْهَرُ أحدٌ بكلامٍ إلاّ كالمشير مِن الإشارة بالشَّفَةِ ، وتحريكِ الفمِ مِن غيرِ صوتٍ.

(٠/٠)

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ } ؛ أي لا تنفعُ لأحدٍ من الناس إلاّ مَن أذِنَ اللهُ أن يُشْفَعَ له فذاك الذي تنفعُ الشفاعة ، وَقِيْلَ : لا تنفعُ شفاعةُ أحدٍ إلاّ مَن أُذِنَ له الرَّحمنُ في أن يَشْفَعَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } ؛ في الدُّنيا وهم المؤمنونَ ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى إلاّ قول المؤمنين.

(٠/٠)

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ؛ هذا كنايةٌ راجعة إلى الَذين يتَّبعون الداعيَ ؛ أي يعلمُ ما قَدَّمُوا واخْلَفُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً } ؛ الكنايةُ تعودُ إلى ما في قولهِ { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } أي هو يعلمُ ذلك.

(٠/٠)

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ } ؛ أي ذلَّتِ الوجوهُ وخضعت واستسلَمَت للحيِّ الذي لا يَموتُ ، القائمُ الذي لا نِدَّ لهُ ، والعَانِي في اللغة : هو الأسيرُ ، ومنهُ قولُهم : أخذتَ الشيءَ عُنْوَةً ؛ أي غَلَبَةً بدلٌ الماخوذ منه : قال الشاعرُ : مَلِيْكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُوقال الحسنُ : (الْقَيُّومُ : الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بمَا كَسَبَتْ حَتَّى يَجْزِيَهَا). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً } ؛ أي خابَ مِن ثواب الله مَن حَمل شِرْكاً ، ومعنى خابَ أي خَسِرَ.

(٠/٠)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً } ؛ في سيِّئاته ، { وَلاَ هَضْماً } ؛ بالنُّقصان من حسناتهِ ، والْهَضْمُ : النَّقْصُ ؛ يقال : هَضَمَنِي فلانٌ حَقِّي ؛ أي نَقَصَنِي ، وهذا شيءٌ يَهْضِمُ الطعامَ أي ينقصُ نقله.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً } ؛ أي وهكذا أنزلناهُ قُرْآناً على اللُّغة العربية ، { وَصَرَّفْنَا فِيهِ } ؛ أي وكَرَّرْنَا فيه ، { مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ؛ وَقِيْلَ : معنى (وَصَرَّفْنَا) أي بَيَّنَّا فِيْهِ مِنَ الْوَعِيْدِ ، يعني الوقائعَ في الأُممِ الْمُكَذِّبَةِ ؛ لكي يَتَّقُوا الشِّركَ بالاتِّعاظ بمن قبْلَهم ، { أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً } ؛

أي يُحْدِثُ لَهمُ الْقُرْآنُ اعتباراً فيذكروا به عقابَ الله ، وَقِيْلَ : معناهُ : أوْ يُحْدِثَ لَهُمْ ذِكْراً شَرفاً بإيْمانِهم ، كما قالَ تَعَالَى{ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }[الزخرف : ٤٤] أي شَرَفٌ لكَ ولقومك.

(٠/٠)

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } ؛ أي ارتفعت صفةُ الرَّحمن فوقَ كلِّ شيء سواهُ ، لأنه أقدرُ من كلِّ قادرٍ ، وأعلمُ من كلِّ عالِم ، وكلُّ قادرٍ وعالِم سواهُ مُحْتَاجٌ إليه ، وهو غَنِيٌّ عنه ، قولهُ { الْمَلِكُ الْحَقُّ } أي يَحِقُّ له الْمُلْكُ ، وإن كان مَلِكٌ سواهُ يَملكُ بعضَ الأشياء ويبيد مُلْكَهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } ؛ قال الحسنُ : "كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ عَجَّلَ بِقِرَاءَتِهِ مَخَافَةَ نِسْيَانِهِ ، وَكَانَ يَقْرَأُ مَعَ الْمَلَكِ مَخَافَةَ أنْ يَذْهَبَ عَنْهُ ، فَنُهِيَ عَنْ ذلِكَ " فَقَالَ { وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } أيْ بقِرَاءَتِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَفْرَغَ جِبْرِيْلُ مِنْ تِلاَوَتِهِ عَلَيْكَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً } ؛ أي زِدْنِي حِفْظاً لا أنساهُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ } ؛ أي أمَرْنَاهُ أن لا يأكلَ مِن الشَّجرةِ مِن قَبْلِ هؤلاء الذين نَقَضُوا عهدي ، وتركُوا الإيْمانَ بي ، وهمُ الذين ذكَرَهم اللهُ في قولهِ{ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }[طه : ١١٣] ، والمعنى أن هؤلاءِ الذينَ صَرَّفَ لَهم في القُرْآنِ الوعيدَ إذ ضيَّعُوا عهدي وخالَفُوا أمري ، فإنَّ أبَاهُم آدمُ عليه السلام عَهِدْنَا إليه أيضاً ، { فَنَسِيَ } ؛ وتركَ عهدِي وما أُمِرَ بِهِ ، { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } ؛ أي لَم نَجِدْ له حِفْظاً لِمَا أمَرْنَا به.
وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ صَبْراً عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ ، وَلَمْ نَجِدْ لَهُ رَأْياً مَعْزُوماً عَلَيْهِ) ، حيثُ أطاعَ عَدُوَّهُ إبليسَ الذي حَسَدَهُ وأبَى أن يسجُدَ لهُ. قال الحسنُ : (كَانَ عَقْلُ آدَمَ كَعَقْلِ جَمِيْعِ ذُرِّيَّتِهِ) ، قال اللهُ { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً }. وجاءَ في الحديث : " لَوْ وُزِنَ حِلْمُ بَنِي آدَمَ مُذْ كَانَ آدَمُ إلَى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ لَرَجَحَ حِلْمُ آدَمَ عَلَى حِلْمِهِمْ ، وَقَدْ قالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } ".

(٠/٠)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى } ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقُلْنَا يآءَادَمُ إِنَّ هَاذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ } ؛ أي لكَ ولامرأتِكَ ، فلا تَميلاَ إليه ، ولا تعيلاَ منهُ ، { فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا } ؛ أي فيكونُ ذلك سببَ خروجكما ، { مِنَ الْجَنَّةِ } ؛ إلى شَدائِدِ الدنيا وجُوعِها وعطَشِها وفَقْرِها وتعبها في طلب المعاش ، وهذا معنى قولهِ : { فَتَشْقَى } ؛ أي تتعبُ بالأكلِ من كَدِّ يدِكَ ، وما تكسبهُ لنفسك ، والمعنى : إنَّ عيشَكَ لا يكونُ إلاّ من كَدِّ يَمينك وعرقِ جبينك. قال سعيدُ بن جبير : (أَهْبَطَ اللهُ إِلَى آدَمَ ثَوْرَيْنِ ، فَكَانَ يَحْرِثُ عَلَيْهِما ، وَيَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ جَبِيْنِهِ) فهو شقاؤُهُ الذي قالَ اللهُ تَعَالَى ، وكان مِن حَقِّهِ أن يقولَ : فَيَشْقَيَا أو تَشْقَى أنتَ وزوجُكَ ، لكن غَلَّبَ المذكَّرَ ؛ لأن تَعَبَهُ أكثرُ ، وَقِيْلَ : لأجلِ رُؤُوسِ الآيِ.

(٠/٠)

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى } ؛ أي إنَّكَ ما دُمْتَ مُقيماً في الجنَّة على طاعةِ الله فلا تجوعُ فيه ولا تَعْرَى ؛ أي لكثرة أثْمَارها وأثوابها ونعيمها ، { وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا } ؛ أي لا تعطشُ ، { وَلاَ تَضْحَى } ؛ أي ولا تَبْرُزُ إلى الشَّمسِ ؛ لأنه ليس في الجنَّة شَمسٌ ، إنَّما هو ظِلٌّ ممدودٌ. وقرئ : وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَأُ) بكسرِ الهمزة عطفاً على (إِنَّ لَكَ أَنْ تَجُوعَ) ، وقرئَ بالنصب عطفاً على (أَنْ لاَ تَجُوعَ).

(٠/٠)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ } ؛ أي وَسْوَسَ لهُ ليأكلَ من الشجرةِ فـ { قَالَ ياآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ } ؛ أي على شجرةٍ مَن أكلَ منها خُلِّدَ ولَم يَمُتْ ، { وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى } ؛ وَيبقى في ملك لا يبلى ولا يفنَى.

(٠/٠)

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَكَلاَ مِنْهَا } ؛ أي أكلَ آدمُ وحوَّاءُ من الشجرة على وجهِ الخطأ في التأويلِ لا تعمُّداً في المعصيةِ إذ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يُقيمون المعصيةَ ، وهم أشدُّ خوفاً من الله أن يفعلُوا ذلك. لأنَّ بعض المفسِّرين قالَ : إن اللهَ تعالى أشارَ بالنَّهي إلى شجرةٍ بعينِها ، فقال لهُ : لا تَأْكُلْ من هذه الشجرةِ ، وأرادُوا جنسَ تلك الشجرة ، فَنَسِيَ آدمُ الاستدلالَ بذلك على الجنسِ ، فحملَ النهيَ على العينِ.
وهذا كما " رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ أخَذ الذهَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ ، وَالْحَرِيْرَ بالأُخْرَى ، وَقَالَ : " هَذانِ حَرَامَانِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي ، حِلٌّ لإنَاثِهِمْ " وأرادَ به الجنسَ دون العينِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا } ؛ أي ظهرت لَهما عوراتُهما ، وإنَّما جمع السَّوءَاتِ ولَم يثَنِّهما ؛ لأن كلَّ شيء من شيءٍ فهو جمعٌ في موضعِ التثنية. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا } ؛ أي جعلاَ يقطعان عليهما ، { مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } ؛ ويجعلانه على سوءاتِهما.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ } ؛ أي عصاهُ بأكلِ الشجرةِ ، { فَغَوَى } ؛ أي فَعَلَ ما لَم يكن لهُ فِعْلُهُ. وَقِيْلَ : ضَلَّ حين طلبَ الْخُلْدَ بأكلِ ما نُهِيَ عن أكلِهِ. وَقِيْلَ : الغيُّ الفسادُ ؛ أي فَسَدَ عليه عيشهُ ، وَقِيْلَ : (فَغَوَى) أي أخطأ ، وَقِيْلَ : خابَ في طلبه في أكلِ الشجرة.

(٠/٠)

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ } ؛ أي اجتباهُ للرِّسالة ، وَقِيْلَ : قَرَّبَهُ ، { فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } ؛ إلى ذِكْرِهِ ، وَقِيْلَ : اصطفاهُ فتابَ عليه وهداهُ حين قال{ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا }[الأعراف : ٢٣] الآيةُ.

(٠/٠)

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً } ؛ قد تقدم تفسيره ، قوله تعالى : { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } ؛ يعني آدمَ وذريَّته وإبليسَ وذريَّته ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى } ؛ أرادَ به الكتابَ والرَّسُولَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ } ؛ أي مَنِ اتَّبَعَ الكتابَ والرسول ، { فَلاَ يَضِلُّ } في الدُّنيا ، { وَلاَ يَشْقَى } في الآخرةِ. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (ضَمِنَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أَنْ لاَ يَضِلَّ وَلاَ يَشْقَى).

(٠/٠)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي } ؛ أي عن مَوْعِظَتِي ، وَقِيْلَ : عن القُرْآنِ فلم يؤمِنْ به ولَم يَتَّبِعْهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً } ، الضَّنْكُ : الضيِّقُ والشدةُ والصُّعوبَةُ. قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي أَنَّ عَيْشَهُ يَكُونُ مُنَغِّصاً عَلَيْهِ غَيْرَ مُوقِنٍ بالْخَلْفِ وَالْجَزَاءِ) ، وقال عبدُالله بنُ مسعودٍ وأبو سعيدٍ الخدريُّ والسديُّ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { مَعِيشَةً ضَنكاً } عَذابُ الْقَبْرِ ؛ يَضِيْقُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ) ، وقال الحسنُ : (هُوَ الضَّرِيْعُ وَالزَّقُّومُ فِي النَّارِ) ، قال عكرمةُ : (هُوَ أَكْلُ الْحَرَامِ فِي الدُّنْيَا الَّذِي يُؤَدِّيْهِ إِلَى النَّار).

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " أَتَدْرُونَ مَا الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكَةُ ؟ " قَالُواْ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " عَذابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إِنَّهُ لَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ تَسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيْناً ، لِكُلِّ تِنِّيْنٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ ، يَنْهَشُونَهُ وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَ لَحْمَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَوْ أَنَّ تِنِّيْناً نَفَخَ فِي الأَرْضِ لَمْ تُنْبِتْ شَيْئاً ". وقال ابنُ زيد : (الْمَعِيْشَةَ الضَّنْكَى : الزَّقُّومُ وَالْغِسْلِيْنُ وَالضَّرِيْعُ) ، وقال الضحَّاكُ : (الْكَسْبُ الْخَبِيْثُ) ، وَقِيْلَ : إذا كان العبدُ سَيِّءَ الظنِّ بالله ضاقَ عليه عيشهُ وَضَنِكَ. وقال ابنُ جبير :

(معنى قوله : { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً } أي سَلَبَهُ الْقَنَاعَةَ حَتَّى لاَ يَشْبَعَ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (عَمَى الْبَصَرِ) ، وقال مجاهدُ : (أعْمَى عَن الْحُجَّةِ ؛ أيْ لاَ حُجَّةَ لَهُ يَهْتَدِي إلَيْهَا) ، { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً } ؛ بعَيْنَيَّ ، { قَالَ كَذالِكَ } ؛ تكونُ كَمَا { أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا } ؛ أي فتَرَكْتَهَا وأعرضتَ عنها ، { وَكَذالِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } ؛ أي تُتْرَكُ في النار.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ } ؛ أي كما جَزَيْنَا مَن أعرضَ عن القُرْآنِ ، كذلك نَجْزِي مَن أسْرَفَ على نفسهِ بالمعاصي ، { وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } ؛ أي أشدُّ مِن عذاب الدُّنيا وأدومُ ، لأن عذابَ الدُّنيا ينقطعُ.

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ } ؛ من قرأ بالياء فمعناهُ : أَلَمْ نُبَيِّنْ ، يعني كفَّارَ مكَّةَ كَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ ، والمعنى : أَلَمْ نُبَيِّنْ لَهم طُرُقَ الاعتبارِ بكثرة إهلاكِنا القرونَ قبلَهم بتكذيب الرسُل فيعتَبروا ويؤمنُوا. وكانت قريشُ تَتَّجِرُ إلى الشَّام فترَى مساكنَ قومِ لُوطٍ وثَمود وعلاماتِ الإهلاك. ومَن قرأ بالنُّون فمعناهُ : أَلَمْ نُبَيِّنْ لأهلِ مكة بَيَاناً يهتدون به فيرتَدِعُوا عن المعاصي.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى } ؛ أي لِذوي العقولِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } ؛ معناهُ : وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبكَ في تأخيرِ العذاب عن هؤلاءِ الكفَّار إلى يومِ القيامة ، قولهُ { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } لكان العذابُ لاَزماً لَهم ، واقعاً في الحالِ. وتقديرُ الآية : وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبكَ وأجَلٌ مُسَمًّى لَكَانَ لاَزِماً ؛ أي لكانَ العذابُ لاَزِماً لَهم في الدُّنيا ، كما لَزِمَ القرونَ الماضية الكافرةَ.

(٠/٠)

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } ؛ أي فاصبر يا مُحَمَّدُ على ما يقولون من الشَّتمِ والتكذيب فسيعودُ عليهم وَبَالُ ذلكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ } ؛ أي صَلِّ صلاةَ الفجرِ ، { وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } ؛ يعني صلاةَ العصرِ ، { وَمِنْ آنَآءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ } ؛ يعني المغربَ والعشاءَ ، وآناءُ اللَّيلِ ساعاتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَطْرَافَ النَّهَارِ } ؛ يعني صلاةَ الظهر ، قال قتادةُ : (كَأَنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ آخِرُ النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ النَّهَارِ طَرَفٌ ، وَأَوَّلُ النِّصْفِ الثَّانِي طَرَفٌ). وقال الحسنُ : ((وَقَبْلَ غُرُوبهَا) : الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ ، (وَأَطْرَافَ النَّهَار) : صَلاَةُ التَّطَوُّعِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّكَ تَرْضَى } ؛ قرأ الكسائيُّ وأبو بكر بضَمِّ التاء ؛ أي تُعْطَى الرِّضَى بالدرجاتِ الرفيعة ، يرضاكَ اللهُ ويسمى مَرْضِيّاً ، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً }[مريم : ٥٥]. وقرأ الباقونَ (تَرْضَى) بفتحِ التاء ؛ أي لَعَلَّكَ تَرْضَى بالثَّواب والشَّفاعةِ ، ودليلُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى }[الضحى : ٥] ، والمعنى : أقِمْ هذه الصَّلَواتِ لكي تُعطى من الثواب ما ترضَى.

(٠/٠)

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعينِ الرَّغبة إلَى مَا مَتَّعْنَا بهِ رجالاً منهم زِيْنَةَ الحياةِ الدُّنيا ، { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } ؛ أي لِنَخْتَبِرَهُمْ في ما أعطيناهم من الزِّينة. وَقِيْلَ : لنجعلَهُ فتنةً لَهم وضَلالاً بأنْ أزيدَ لَهم في النعمةِ ، فيزدادوا كُفراً وطغياناً.
قال أبو رافع : " بَعَثَنِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى يَهُودِيٍّ ، فَقَالَ : " قُلْ لَهُ : إنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعَثَنِي إلَيْكَ لِتُسْلِفَهُ كَذا وَكَذا مِنَ الدَّقِيْقِ ، أوْ تَبِيْعَهُ وَتَصْبرَ عَلَيْهِ إلَى هِلاَلِ رَجَبٍ " فَأَتَيْتُهُ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا أبِيْعُهُ وَلاَ أُسْلِفُهُ إلاَّ برَهْنٍ! فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : " وَاللهِ لَوْ بَاعَنِي أوْ أسْلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ ، وَإنِّي لأَمِيْنٌ فِي الأَرْضِ ، إذهَبْ بدِرْعِي إلَيْهِ " ثُمَّ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى ذلِكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كأنه يعزِّيهِ عَنِ الدُّنْيَا "
وَقِيْلَ : معنى قولهِ تعالى { أَزْوَاجاً } أي أصْنَافاً من نِعَمِ الدُّنيا وزهرَتِها. قولهُ : { وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } ؛ أي وَرِزْقُ رَبكَ الذي وعدكَ في الجنَّة خَيْرٌ وَأبْقَى مما رُزِقَ هو.

(٠/٠)

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } ؛ أي وَأمُرْ قَوْمَكَ الذين على دِيْنِكَ ، { لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً } ؛ لِخَلْقِنَا ولا لنفسكَ ، لَم نَخْلُقْكَ لِحاجتنا إليكَ كحاجة السَّادَةِ إلى عبيدِهم ، بل { نَّحْنُ نَرْزُقُكَ } ؛ ونرزقُ جميعَ خَلْقِنَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } ؛ أي وَالْعَاقِبَةُ الْمَحمودةُ لِمن يَتَّقِي اللهَ ولا يعصيهِ ، وتقديرهُ : والعاقبةُ لأهلِ التقوى. " وَكَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الضِّيْقِ فِي الرِّزْقِ أمَرَ أهْلَهُ بالصَّلاَةِ ، ثُمَّ قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ } إلى آخِرِها ".

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ } ؛ أي قالَ المشركون مِن أهلِ مكَّة : هَلاَّ يأتينا مُحَمَّدٌ بآيةٍ من ربه كما أتى بها الأنبياءُ ، نحوُ الناقةِ والعصا ، { أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى } ؛ أي بيانُ

ما في التَّوراة والإنجيلِ من البشَارَةِ بما وافَقَهُما من صِفَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. وَقِيْلَ : معناهُ : أوَلَمْ يأْتِهم ما في الصُّحُفِ الأُوْلَى من أنبياءِ الأُمَمِ الذين أهلكنَاهم لَمَّا سألُوا الآياتِ ثُم كَفَرُوا بها ، فماذا يُؤَمِّنُهُمْ أن يكون حالُهم في سؤالِهم الآيةَ كَحَالِ أولئكَ. وهذا البيانُ إنَّما قُصَّ عليهم في القُرْآنِ.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ } ؛ أي لَوْ أنَّا أهلكنَاهُم بعذاب الاسْتِئْصَالِ من قَبْلِ إرسالِ الرُّسل لقالوا : هَلاَّ أرْسَلْتَ إلينا رَسُولاً يُرْشِدُنَا إلى دِينِكَ فنتَّبِعَ دلائلكَ ، { مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ } ؛ في الدُّنيا بالقتلِ ونُفْضَحَ في الآخرةِ بالعذاب. والمعنى : ولو أنَّا أهلكنا كُفَّارَ مكَّة بعذابٍ مِن قَبْلِ بعث مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ونُزُولِ القُرْآنِ لقالوا يومَ القيامةِ : ربَّنَا هلاَّ أرسلتَ إلينا رسُولاً يدعُونا إلى طاعتِكَ فنتَّبعَ آياتِكَ من قَبْلِ أن ينْزِلَ العذابُ ، { وَنَخْزَى } ؛ فِي جهنَّمَ.

(٠/٠)

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : كلٌّ منَّا ومنكم مُنْتَظِرٌ ، فانتظروا نحن ننتظر بكم ما وعَدَنا اللهُ فيكم من النَّصرِ والفتح ، وأنتم تنتظرون بنَا أن نَموتَ فتستريحون منَّا ، وذلك أنَّهم كانوا يقولون : نتربَّصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ الْمَنُونِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } ؛ فَسَتَعْلَمُونَ بعدَ هذا إذا قامتِ القيامةُ مَن أصحابُ الدِّين المستقيمِ ، ومَن اهتدى إلى الرُّشد والصلاحِ نحنُ أم أنتم!

وعن أُبَيِّ بنِ كعبٍ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " مَن قَرَأَ سُورَةَ طَهَ أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ ".

(٠/٠)

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)

{ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } ؛ أي اقتربَ لأهلِ مكَّة حسابُهم ، والمعنى : اقتربَتِ القيامةُ ، واقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ، والْحِسَابُ هنا : إظْهَارُ مَا لِلْعَبْدِ وَمَا عَلَيْهِ لِيُجَازَى عَلَى ذلِكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } ؛ أي في غفلةٍ عمَّا يفعلُ اللهُ بهم ذلكَ اليوم ، مُعرضون عن التَّأَهُّب له بالإيْمانِ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرْآنِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وهم في غَفْلَةٍ عن قُرْب الحساب والموت ، معرضون عن الفكرةِ في ذلك ، والتَّأَهُّب لهُ ، وهذا مِن اللهِ تنبيهٌ وعِظَةٌ ؛ لئَلاَّ يغفَلُوا عن الآخرةِ.

(٠/٠)

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ } ؛ أي ما يأتيهم من وَحْيٍ ، { مُّحْدَثٍ } ؛ تَنْزِيْلُهُ ، والإحْدَاثُ يعودُ إلى الانزالِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ مُسْتَهْزِئِيْنَ).

(٠/٠)

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ } ؛ منصوبٌ بقولهِ (يَلْعَبُونَ) ، ومعناهُ : غَافِلَةً قلوبُهم عما يرادُ بهم ، معرضةً عن ذِكْرِ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى } ؛ أي تَنَاجَوا فيما بينهم سِرّاً.
ثم بَيَّنَ مَنْ هم فقال : { الَّذِينَ ظَلَمُواْ } ؛ أي الذين أشْرَكُوا باللهِ ، و(الَّذِيْنَ) في موضعِ الرفع بدلٌ من

الضمير في (أسَرُّوا) كما في قولهِ تعالى{ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ }[المائدة : ٧١] ، ويجوزُ أن يكون (الَّذِيْنَ) خُفِضَ نعتاً للناسِ ؛ أي اقتربَ للناسِ الذين هذا حالُهم.
ثُم بَيَّنَ النَّجْوَى الذي أسرُّوهُ بقوله : { هَلْ هَاذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } أطْلَعَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنَّهم قالوا : هَلْ مُحَمَّدٌ مِثْلُكُمْ ، فإذن تتبعون بشر مثلكم ، { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } ؛ وأنتم تعلمونَ أنه سِحْرٌ. قال السديُّ : (قَالُوا مُتَابَعَةُ مُحَمَّدٍ مُتَابَعَةُ السِّحْرِ) ، والمعنى : أتَقْبَلُوا السِّحرَ ، وأنتم تعلمون أنهُ سِحْرٌ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ : ربي الذي أعبدهُ وأدعوا إلى عبادتهِ هو اللهُ الذي يعلمُ ما تُسِرُّهُ العبادُ من القولِ في السَّماء والأرضِ ، { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ؛ لذلك كلِّه ، العَالِمُ بما يجري عليه ، ومَن هذه صفتهُ ، فهو الذي يَجِبُ أن يُعْبَدَ دون الأصنامِ. وقرأ أهلُ الكوفةِ : (قَالَ رَبي) على الخبر. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } أي السميعُ لأقوالِهم ، العليمُ بأفعالِهم.

(٠/٠)

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } ؛ أي قالَ الكفارُ : إنَّ ما أُتِيَ به مُحَمَّدٌ تَخالِيْطُ رُؤْيَا رآها في الْمَنَامِ ، و (بَلْ) ها هنا انتقالٌ إلى خبرٍ آخرَ عنهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ افْتَرَاهُ } أي قالوا اخْتَلَقَهُ كَذِباً من تلقاءِ نفسه ، ثُم قالوا : (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) فجعلوا يَنْقِضُونَ أقوالَهم قولَ متحيِّرٍ لا يُمْكِنُهُ الجزمُ على أمرٍ واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ } ؛ بالآياتِ ، نحوُ انقلاب البحر ، وإحياءِ الموتى ، والناقة والعصا.
فقال اللهُ تعالى مُجيباً لَهم : { مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي ما آمَنَتْ قَبْلَ

مشركي مكَّة { مِّن قَرْيَةٍ } يعني أهلَها ، والمعنى : ما آمَنَتْ من قريةٍ مُهْلَكَةٍ بالآياتِ الْمُرْسَلَةِ ، فكيفَ يُؤْمِنُ هؤلاء ؟ والمعنى : أنَّ مَجِيْءَ الآياتِ لو كان سَبَباً للإيْمانِ من غيرِ إرادة الله لكان سَبباً لإيْمانِ أولئكَ ، فلما بَطَلَ ذلك بَطَلَ هذا.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ } ؛ يعني ما أرْسَلْنَا قَبْلَكَ من الرُّسُلِ إلاّ رجَالاً مثلكَ ، وهذا جوابٌ لقولِهم{ هَلْ هَاذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ }[الأنبياء : ٣] ، فقال اللهُ تعالى : لَمْ أُرْسِلْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ إلاّ رجَالاً من بَنِي آدمَ لا الملائكةَ ، { فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } ؛ وأرادَ بأهلِ الذِّكر علماءَ أهلِ الكتاب ؛ لأن اليهودَ النصارى لا ينكرونَ أن الرُّسُلَ كانوا بَشَراً ، وإنْ أنكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. وَقِيْلَ : أرادَ بالذِّكر القُرْآنَ ، والمعنى : فاسألوا المؤمنينَ مِن أهلِ القُرْآنِ إن كنتم يا أهلَ مكَّة لا تعلمون. قال عَلِيٌّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ : (نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ).

(٠/٠)

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } ؛ أي وما جعلنا الأنبياءَ ذوي أجسادٍ لا يأكلون الطعامَ ، ولا يشربونَ الشراب ، { وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ } ؛ لا يَمُوتُونَ ، وذلك أنَّهم قالوا : مَا لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ؟ فأُعْلِمُوا أن الرُّسُلَ جميعاً كانوا يأكون الطعامَ ، وأنَّهم يَموتون كسائرِ البشر ، وإنَّما وحَّدَ الجسدَ ؛ لأنه مصدرٌ كالخلقِ.

(٠/٠)

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ } ؛ أي ثُم أنْجَزْنَا وعدَ الأنبياءِ في إنْجائنا إياهم ، وإهلاكِ الكفار المكذِّبين بهم ، وأرادَ بالمسرفين الكفارَ ، لأن الْمُسْرِفَ في اللغة هو الذي يتجاوزُ حَدَّ الحقِّ بما تباعدَ عنه ، فالكافرُ أحقُّ بهذه الصفةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنجَيْنَاهُمْ } أي مِن العذاب { وَمَن نَّشَآءُ } يعني الذين صَدَّقُوهُمْ.

(٠/٠)

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ } ؛ أي لَقَدْ أنزَلْنَا إلَيْكُمْ كِتَاباً يا معشرَ قُرَيْشٍ ، كِتَاباً فيه شَرَفُكُمْ وعِزُّكم أن يَمسكم به يعني القُرْآن ، والذِّكْرُ هو الشَّرَفُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }[الزخرف : ٤٤] أي شَرَفٌ ، يقال : فلانٌ مذكورٌ في العُلاَ ؛ إذا كان رَفِيْعاً. وقال الحسنُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { ذِكْرُكُمْ } أيْ مَا تَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ أمْرِ دِيْنِكُمْ) ، { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ، ما فَضَّلَكُمْ به على غيرِكم ، أنْزَلْتُكُمْ حَرَمِي ، وبعثتُ فيكم نَبيّاً.

(٠/٠)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً } ؛ أي كم أهلكنا مِن قريةٍ كانوا مُشركين ، والْقَصْمُ : الْكَسْرُ وَالدَّقُّ ، { وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ } ؛ أي وأحْدَثْنَا مِن بعدِ إهلاكهم قوماً آخرين ، فسَكَنُوا دِيَارهم.

(٠/٠)

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ } ؛ أي فلمَّا أحسَّ أهلُ القرية الكافرةِ عذابَنا إذا هم منها يهرُبون سِرَاعاً هَرَبَ الْمُنْهَزِمِ مِن عدُوِّه. ومعنى قوله { أَحَسُّواْ } أي رَأوا ، وَقِيْلَ : معناهُ : لَمَّا ذاقُوا. والإحْسَاسُ : هُوَ الإدْرَاكُ بحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ.

(٠/٠)

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ } ؛ أي قِيْلَ لَهم : لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا نُعِّمْتُمْ فيه وإلى منازلكم ، تقولُ الملائكة ذلكَ استهزاءً بهم وتقريعاً على ما فُرِّطَ منهم بحيثُ يسمعون النداءَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } ؛ يقال لَهم ذلكَ على طريق الْهُزْؤِ بهم وهو توبيخٌ في الحقيقةِ ، والمعنى : لكي تُسألوا شيئاً من دُنياكم فأنتم أهل برٍّ ونعمةٍ ، فـ { قَالُواْ } عند ذلك : { ياوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ؛ لأنفسِنا حيثُ كذبنَا الرُّسلَ ، اعترفوا بالذنب حين رأوا العذابَ ، فقالوا هذا على سبيلِ النَّدمِ ، ولَم ينفعْهم حينئذٍ الندمُ. والوَيْلُ : الوقوعُ في الْهَلَكَةِ.

(٠/٠)

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ } ؛ أي فما زالت تلكَ الكلمةُ وهو قولُهم : { ياوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } لَم يزالوا يردِّدُنَها إلى أن ماتُوا وخَمَدُوا فصاروا كالزَّرْعِ الحصيدِ ، والحصيدُ : هو الزَّرْعُ الْمَحْصُودُ ، والْمَخْمُودُ : وهو الْمَهْمُودُ كَخُمُودِ النَّارِ إذا أُطْفِيَتْ.
قِيْلَ : نزلت هذه الآيةُ في أهلِ خَضُورٍ وهي قريةٌ من اليَمَنِ كان أهلُها من العرب ، بعثَ اللهُ إليهم نبيّاً يدعوهم إلى اللهِ فكَذبوهُ وقتلوهُ ، فسَلَّطَ اللهُ بخْتْنَصِّرَ حتى قَتَلَهُمْ وسَبَاهُم ونَكَّلَ بهم ، فلما أَثْخَنَ فيهم القتلَ نَدِمُوا وهربوا وانْهزمُوا ، فقالت لَهم الملائكةُ على طريقِ الاستهزاء : لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى مساكنكم وأموالكم ، فَاتَّبَعَهُمْ بخِتْنَصِّرِ وأخذتْهُمُ السيوفُ ، ونادَى مُنَادٍ من السَّماء : يا ثاراتِ الأنبياءِ ،

فلمَّا رأوا ذلك أقَرُّوا بالذنوب حيث لَم ينفعهم ، فقالوا : يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيْداً بالسيُّوف ، كما يُحْصَدُ الزرعُ ، خَامِدِينَ أي مَيِّتِيْنَ.

(٠/٠)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـاعِبِينَ } ؛ أي ما خلقنَاهُما عَبَثاً ولا بَاطِلاً بل خلقنَاهُما لأمرٍ ؛ أي لأُجَازي أوليائي ، وأُعذِّبَ أعدائي. وَقِيْلَ : معناهُ : خلقناهما دلالةً على قُدرتِنا ووحدانيَّتنا ؛ ليعتَبرُوا بخلقِهما ويتفكَّروا فيهما ، فيعلمونَ أن العبادةَ لا تكونُ إلاَّ لخالِقِهما.

(٠/٠)

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ } ؛ قال قتادةُ : (اللَّهْوُ بلُغَةِ الْيَمَنِ الْمَرْأةُ) ، وقال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ النِّسَاءَ) ، وَقِيْلَ : جاء طاووسُ وعطاء ومجاهدُ إلى الحسنِ فسألوه عن هذه الآية ، فقالَ : (اللَّهْوُ الْمَرْأةُ). وفي رواية الكلبيِّ : (اللَّهْوُ الْوَلَدُ). وَقِيْلَ : معناهُ : لو أردنا أن نَتَّخِذ شَرِيكاً أو ولَداً أو امرأةً لَم يكن لنتَّخذها مما نسَبتُمونا إليه من الذي لا يسمع ولا يعقلُ ولا مِن هذه النساء والولدان ، بل كما نَتَّخِذُهُ من جنسٍ أشرفَ من هذا الجنسِ كما قَالَ تَعَالَى في آيةٍ أُخرى{ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ }[الزمر : ٤]. وَقِيْلَ : معناهُ : لو أردنا أن نتخذ ولداً نَلْهُو به لاتَّخذناهُ عندَنا لا عندكم ؛ لأن ولدَ الرجل وزوجتهُ يكونان عندَهُ وبحضرتِهِ.
نزلت هذه الآيةُ في الَّذين قالوا اتَّخَذ اللهُ ولداً ، ولو كان ذلكَ جائزاً في صِفَةِ الله تعالى لَم يتخذ بحيثُ لَم يظهر لكم ، ويسترهُ حتى لا تطَّلعوا عليه ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كُنَّا فَاعِلِينَ } ؛ أي كُنَّا مِمَّن يفعلُ ذلك ، ولسنا مِمن يفعلهُ ، وَقِيْلَ : (إنْ) هنا بمعنى (مَا) أي مَا كُنَّا فَاعِلِيْنَ.

(٠/٠)

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ } ؛ أرادَ بالحقِّ القُرْآنَ ، وبالباطلِ الكُفْرَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : دَعْ ذاكَ الذي قالوا فإنه كذبٌ وباطل ، بل نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ من كذِبهم ، { فَيَدْمَغُهُ } أي فيُهْلِكُهُ ويذهِبهُ ، { فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } ؛ أي زائلٌ ذاهب ، والمعنى : إنَّا نُبْطِلُ كذِبَهم مما تبيَّن من الحقِّ حتى يضمحلَّ ويذهبَ ، ثم أوعَدَهم على قولِهم فقال : { وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } ؛ أي لكم العذابُ مما تصفونَ اللهَ تعالى به من الصَّاحبة والولدِ.
ثُم بيَّن أن جميعَ الخلقِ عبيدهُ ، فقالَ : { وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ عَبيداً وملكاً ، { وَمَنْ عِنْدَهُ } ؛ يعني الملائكةَ ، { لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } ؛ قال الزجَّاج : (إنَّ الَّذِيْنَ ذكَرْتُمُوهُمْ بأَنَّهُمْ أوْلاَدُ اللهِ هُمْ عِبَادُهُ وَلاَ يَأْنَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَلاَ يَتَعَظَّمُونَ عَنْهَا) ، { وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ } ؛ أي ينقَطِعون عن العبادة من الإعيَاءِ والتَّعب ، مِن قولِهم : بَعِيْرٌ حَسِيْرٌ اذا أعْيَا وقام.

(٠/٠)

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُسَبِّحُونَ الَّيلَ وَالنَّهَارَ } ؛ أي يصَلُّون للهِ تعالى الليلَ والنهار ، { لاَ يَفْتُرُونَ } ؛ أي لا يَضْعُفُونَ عن عبادتهِ ولا يَمَلُّونَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : يُنَزِّهُونَ اللهَ ، وإنَّما يقولون سُبْحَانَ اللهِ لا يَمَلُّونَ. قال الزجَّاج : (مَجْرَى التَّسْبِيْحِ مِنْهُمْ كَمَجْرَى النَّفَسِ مِنَّا ، كَمَا لاَ يَشْغَلُنَا عَنِ النَّفَسِ شَيْءٌ فَكَذلِكَ تَسْبِيْحُهُمْ دَائِمٌ).

(٠/٠)

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ } ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ ؛ أي أعَبَدَ أهلُ مكة أصناماً يُحيُونَ الموتَى؟! وفيه تقريعٌ لَهم بأنَّهم كاذبون أنَّها آلهةٌ ، لأن الإلهَ يُحيي الموتى ، وهي لا تُحيي ، فكيفَ يستحقُّ العبادةَ ؟ قِيْلَ : معنَى الآيةِ : لِمَ تَتَّخِذُون آلهةً مِن الأرضِ ، وأصنامُهم كانت من الأرضِ ؛ من أيِّ شيءٍ كانت ، من خشبٍ أو حجارةٍ أو فضَّة أو ذهب ، هم يُنْشِرُونَ ، أيُحْيُونَ الْمَوْتَى.

(٠/٠)

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا } ؛ لخَرَبَتَا وهَلَكَ مَن فيهما ، وعيَّن صفةَ الآلِهَةِ ؛ أي لو كان فيهما آلِهةٌ غيرُ اللهِ ؛ أي لو كانَ في السَّماءِ والأرضِ آلِهةٌ غيرُ الله لَمَا قامتِ السَّمواتُ والأرض ؛ لأنه لو أرادَ أحدُهما اتِّخاذ جسمٍ في مكان ، وأرادَ آخرُ اتِّخاذ جسمٍ آخر في ذلكَ المكان لَمْ يَخْلُ : إما أن يُوجَدَ مرادُهُما أو لا يوجدُ مرادُهما ، أو يوجدُ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ.
فالأولُ باطلٌ ؛ لأن في وجودُ جِسمَين في مكانٍ واحد. والثانِي باطلٌ ؛ لأنَّ في ذلك كونُهما عاجِزَين ، والعاجزُ لا يستحقُّ الأُلُوهيَّة ، وإن وُجِدَ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ ، فالذي لا يوجدُ مرادهُ يكون عاجِزاً لا يصلحُ أن يكون إلَهاً.
والمعنى : لَو كانَ فيهما آلِهةٌ غيرُ الله كما يزعمُ المشركون ، هذا قولُ جميعِ النحويِّين ؛ قالوا : (إلاَّ) ليسَ ها هنا باستثناءٍ ، ولكنهُ مع ما بعده صفةٌ للآلِهة في معنى (غَيْرَ). قال الزجَّاج : (فَلذَلِكَ ارْتَفَعَ مَا بَعْدَهَا عَلَى لَفْظِ الَّذِي قَبْلَهَا ، قَالَ الشاعرُ : وَكُلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أخُوهُ لَعَمْرُو أبيكَ إلاَّ الْفَرْقَدَانِقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ أي تَنْزِيهاً عمَّا يقولون عليه من الولدِ والشَّريكِ ، { لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } ؛ أي لا يُسأَلُ عن أفعالِهِ وقضائه في خلقِه من إعزازٍ وإذلال ، وهداية وإضلالٍ ، وإسعاد وإشقاء ؛ لأنه الربُّ مالكُ الخلقِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ يُسْأَلُونَ } ؛ أي يقالُ لَهم يومَ القيامةِ لِمَ فعلتُمْ كذا ؟ لأنَّهم عبيدٌ يجبُ عليهمُ امتثالُ أمرِ مَوْلاَهُمْ ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس فَوْقَهُ أحدٌ يقول لهُ لشيءٍ فَعَلَهُ لِمَ فَعَلْتَهُ.

(٠/٠)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً } ؛ هذا إنكارٌ عليهم وتوبيخٌ ، { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } ؛ أي حُجَّتَكُمْ بأن رَسُولاً من رُسُلِ الله أنْبَأَ أُمَّتَهُ بأن لَهم إلَهاً غيرَ الله.
قولهُ تعالى : { هَاذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي } ؛ معناهُ : هذا الْقُرْآنُ فيه ذكرُ مَن معي لِمَا يلزمهُم من الحلالِ والحرام والخطأ والصَّواب. وَقِيْلَ : خَبَرُ مَن معي على دِينِي بما لَهم من الثواب والعقاب ، وذِكْرُ مَنْ قَبْلِي مِن الأُمم مَن نَجَا منهم بالإيْمَانِ ، وأُهْلِكَ بالشِّركِ. وَقِيْلَ : معناهُ : هذا الْقُرْآنُ الذي هو ذِكْرُ مَن معي ، والتوراةُ والإنجيل هُما ذِكْرُ مَن قبلي ، هل في جميعِ ذلك غيرُ توحيدِ الله تعالى؟
والمعنى : هذا الْقُرْآنُ وهذه الكُتُبُ التي أُنزلت مِن قبلي ، فانظرُوا هل في واحدٍ منهم أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ } ؛ عن النظرِ في دلائلِ الله مقصِّرين على جهلِهم وتقليدهم.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ } ؛ أي ما أرْسَلْنَا مِن قبلك يا مُحَمَّدُ من رسولٍ إلاّ يُوحَى إليه أن يقولَ لقومهِ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاعْبُدُوهُ أي وحِّدُوهُ.

(٠/٠)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً سُبْحَانَهُ } ؛ أراد به قولَهم إنَّ المسيح ابنُ الله ، والملائكةَ بناتُ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } ؛ معناهُ : بل هم عبيدٌ أكرمَهم اللهُ بالطاعة واصطفَاهُم.

(٠/٠)

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } ؛ لا يخرجُون بقولِهم عن حدِّ ما أمرَهم ، { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } ؛ قَوْلُهُ : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ؛ أي يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّرُوا من أعمالِهم ، ويقالُ : { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } من الدُّنيا { وَمَا خَلْفَهُمْ } من الآخرةِ ، ويقال : يعلمُ ما عمِلُوا وما هم عامِلُون.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى } ؛ أي لا يشفعونَ إلاّ لِمن رَضِيَ اللهُ عنهُ وارتضى عملَهُ ، قال ابنُ عبَّاس : (لِمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } ؛ أي وهم مِن خشيتِهم منهُ ، فأضافَ المصدرَ إلى المفعولِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُشْفِقُونَ } أي خَائِفُونَ ، لا يأمَنُون مَكْرَهُ ، وفي هذا بيانُ أنّ مَن هذه صفتهُ لا يكون إلَهاً مع اللهِ ولا ولداً لهُ.

(٠/٠)

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَاهٌ مِّن دُونِهِ فَذالِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ } ؛ أي مَن يقُلْ مِن الملائكة إنِّي إلهٌ من دون اللهِ فذلك يَجْزِيْهِ جهنَّمَ ، قال المفسرون : يعني إبليسَ لأنه أمَرَ بطاعة نفسهِ ، ودعا إلى نفسهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } ؛ أي كما جَزَيْنَاهُ جهنمَ ، نَجزي الظالمين الْمُشْركينَ.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس وعطاءُ والضحَّاك : (يَعْنِي كَانَتَا شَيْئاً وَاحِداً مُلْتَزِقَتَيْنِ ، فَفَصَلَ اللهُ بَيْنَهُمَا بالْهَوَاءِ) ، قال كعبُ : (خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ خَلَقَ ريْحاً وَسْطَهُما ، فَفَتَحُمهَا بهَا).

وقال مجاهدُ : (كَانَتِ السَّمَوَاتُ طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا ، فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَكَانَتِ الأَرْضُونَ مُرْتَفِعَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا اللهُ تَعَالَى ، فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرْضِيْنَ) ، وقال عكرمةُ : (كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقاً لاَ تُمْطِرُ ، وَالأَرْضُ رَتْقاً لاَ تُنْبتُ ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بالْمَطَرِ ، وَالأَرْضَ بالنَّبَاتِ).

وأصلُ الرَّتْقِ السِّدُّ ، ومنهُ قيلَ للمرأةِ التي فرجُها ملتحمٌ : رَتْقَاءَ. وأصلُ الفَتْقِ الفتحُ ، وذلك أنَّ السمواتِ والأرضَ كانت مُستويَتين لا فَتْقَ فيهما لِخروج الزَّرْعِ ونزولِ الغيث ، ففُتِقَتِ السماءُ بالمطر ، والأرضُ بالنباتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } ؛ أي أحيينا بالمطرِ والنبات كلَّ ما على الأرضِ من حيوانٍ ، يعني أنه سببُ كلِّ شيء. وقال بعضُهم : يعني أنَّ كل شيءٍ حيٍّ فهو مخلوقٌ من الماءِ لقوله تعالى{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ }[النور : ٤٥].

قال أبو العالية : (يَعْنِي النُّطْفَةَ) ، فعلى هذا لا يتعلقُ هذا بما قَبْلَهُ ، وهو احتجاجٌ على المشركينَ بقُدرةِ الله تعالَى ، { أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي أفلا يصدِّقُون بالإلهِ الذي فَعَلَ ذلك ؛ ليعلموا أنهُ الإلهُ دونَ غيرِهِ.

وإنَّما قال (رَتْقاً) ولَم يقل رَتْقَيْنِ ؛ لأن الرَّتْقَ مصدرٌ. المعنى : كانتا ذوَي رَتْقٍ فجعلناهما ذوَاتَي فَتْقٍ.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ } ؛ أي جعلنا فيها جِبَالاً أوْتَاداً فهي راسيةٌ كي لا تَميد بهم الأرضُ ، والْمَيْدُ : الاضطرابُ بالذهاب في الجهات ، قال ابنُ عبَّاس : (إنَّ الأَرْضَ بُسِطَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، فَكَانَتْ تَمِيْدُ بأَهْلِهَا كَمَا تَمِيْدُ السَّفِيْنَةُ ، فَأَرْسَاهَا اللهُ بالْجِبَالِ الثِّقَالِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } ؛ أي جعلنا في الأرضِ طُرُقاً واسعةً ليهتدوا إلى مواطِنهم ، والفَجُّ : الطريقُ الواسع بين الجبلَين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبُلاً } تفسيرُ الفِجَاجِ.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً } ؛ أي مَحفوظاً من السُّقوط ، وَقِيْلَ : مَحْفوظاً من الشياطينِ بالنُّجوم ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ }[الحجر : ١٧]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } ؛ يعني المشركينَ يُعرِضُونَ عن آياتِها ، يعني شَمسها وقمرَها ونجومها ، لا يتفكَّرون فيها فيعلمون أن خالِقَها لا شريكَ له.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ } ؛ أي خلَقَهما بعد رَفْعِ السَّماء عن وجهِ الأرض وَسخَّرَ { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ } ؛ من الشَّمس والقمر في مواضِعها التي رُكِّبَتْ فيها ، { يَسْبَحُونَ } ؛ أي يَجْرُونَ بسرعةٍ كالسَّابحِ في الماء ، وقد قال في مواضعٍ آخر{ وَالسَّابِحَاتِ سَبْح }[النازعات : ٣] يعني النُّجومَ ، قال الضحَّاك : (الْفَلَكُ هُوَ الْمَجْرَى الَّذِي يَجْرِي فِيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) ، ويقالُ : هو موجٌ كغرف يَجريان فيهِ. قال القتيبيُّ : (الْفَلَكُ الْقُطْبُ الَّذِي تَدُورُ بِهِ النُّجُومُ ، وَهُوَ كَوْكَبٌ خَفِيٌّ بقُرْب الْفَرْقَدَيْنِ ، وَبَنَاتِ نَعْشٍ عَلَيْهِ تَدُورُ السَّمَاءُ). وقال الحسنُ : (هُوَ الطَّاحُونَةُ كَهَيْأَةِ فَلَكَة الْمِغْزَلِ) ، فالفَلَكُ في كلامِ العرب : هو كلُّ شيءٍ دَائِرٌ ، وجمعهُ أفْلاَكٌ.

(٠/٠)

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ } ؛ رويَ أنّ هذا نَزَلَ جواباً لقولِ الكفَّار : ننتظرُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنونِ فنستريحُ منه ، والمعنى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ البقاءَ الدائم ؛ يعني أن سَبِيْلَهُ سبيلَ من مضى مِن بني آدم في الموت ، { أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } ؛ يعني مشركي مكةَ لَمَّا قالوا :

نتربصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنون ، { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ } ، فقيلَ لَهم : إنْ ماتَ فأنتم أيضاً تَموتون ؛ لأن كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ.

قالت عائشةُ : (اسْتَأْذنَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَقَدْ مَاتَ وَأُسْجِيَ عَلَيْهِ الثَّوْبُ ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى صَدْغَيْهِ وَقَالَ : وَا نَبيَّاهُ ؛ وَا خَلِيْلاَهُ ؛ وَا صَفِيَّاهُ ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ *كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ }).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } ؛ أي نَبْلُوكُمْ بالشدَّة والرَّخاء ؛ والمرضِ والعافيةِ ؛ والفقر والغنَى ، كلاهُما ابتلاءٌ من الله ، وتشديدٍ في التَّعَبُّدِ ؛ ليظهرَ شكرُهم فيما يُحبُّون ، وصبرُهم فيما يكرهون { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } ؛ للجزاءِ.

(٠/٠)

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً } ؛ روي أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بأَبي سُفْيَانَ وَأبي جَهْلٍ ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ لأبي سُفْيَانِ : هَذا نَبيُّ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، كَالْمُسْتَهْزِئ ، فنَزلت هذه الآيةُ ، ومعناها : وَإذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً ، يستهزؤن بكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَهَاذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } ؛ أي يقولُ بعضُهم لبعضٍ : أهذا الذي يُعيبُ آلِهَتكم ويلومَكم على عبادتِها ، تقولُ العرب : فلانٌ يذكرُ الناسَ ؛ أي يغتابُهم ويعيبُهم ، وفلانٌ يذكرُ اللهَ ؛ أي يصفهُ بالعَظَمَةِ ويُثني عليهِ ، فيحذفون من الذِّكر ما يُعْقَلُ معناهُ ، فيكون معنى قوله : { يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } أي يذكرُ آلِهتَكم بسوءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ } ؛ أي يَجحدون الألوهيَّة ممن هو منعمٌ عليهم ، الْمُحيي الْمُمِيْتُ ، وهذا في نِهاية جهلهم.

(٠/٠)

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } ؛ أي خَلَقَ اللهُ الإنسانَ من عَجَلٍ مشتَهياً للعجلةِ فيها هواهُ ، ولذلك تستعجلُ أهلُ مكة الوعدَ والوعيدَ ، يقالُ : فلانٌ خُلِقَ مِن كذا ؛ أي أكثرَ ذلك الشيءَ كما يقال : خُلق فلانٌ من اللعب واللَّهو ، والإنسانُ اسم جنسٍ.

وقال عكرمةُ : (لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيْهِ الرُّوحَ وَصَارَ فِي رَأسِهِ ، أرَادَ أنْ يَنْهَضَ قَبْلَ أنْ تَبْلُغَ رِجلَيْهِ فَسَقَطَ ، فَقِيْلَ : خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ). وقال السديُّ : (لَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ عَيْنَي آدَمَ نَظَرَ إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ فِي جَوْفِهِ اشْتَهَى الطَّعَامَ ، فَوَثَبَ قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ الرُّوحُ رجْلَيْهِ عَجَلاً إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ فَلَمْ يَقْدِرْ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ }. وإذا كان خَلْقُ آدمَ من عجلٍ وُجِدَ ذلك في أولادهِ ، وأورثَ أولاده العجلةَ حتى استعجلوا في كلِّ شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي } ؛ يعني القتلَ ببدرٍ ، { فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } ؛ إنه نازلٌ بكم.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي يقولُ المشركونَ متَى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنَا ، يريدون وعدَهم يومَ القيامة إن كنتَ مِن الصادقين في هذا الوعدِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } ؛ أي لو يعلمون ذلكَ ما استعجلوهُ ولا قالوا متَى هذا الوعدُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لو عَلِمُوا ذلكَ لعلموا صِدْقَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فيما توَعَّدهم به.

(٠/٠)

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً } ؛ معناهُ : بل تأتيهم الساعةُ فُجْأَةً وهم غافلون ، { فَتَبْهَتُهُمْ } ؛ أي

تُحَيِّرُهُمْ ، يقال : بَهَتَهُ ؛ إذا واجَهَهُ بشيءٍ فَحَيَّرَهُ ، { فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } ؛ يُمهلون التوبةَ ، أو عُذراً ، أو صلاحَ عملٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ } ؛ أي ولقد استهزأتِ الأمَمُ من قبلك برُسُلهم ، كما استهزأ بك قومُكَ ، { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ بهم ؛ أي فَحَلَّ بهم وبَالَ استهزائِهم ، وكان ما أرادوهُ بالداعي عائداً عليهم ، كما قال تعالى : { وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ }[فاطر : ٤٣] ، وَقِيْلَ في الفَرقِ بين الْهُزْؤ وبين السُّخرية : أن في السُّخرية طلبَ الذِّلَّةِ ؛ لأن التسخيرَ هو التذليلُ ، وأما الْهُزْؤُ فهو استصغارُ القَدْر بضربٍ من القول.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَانِ } ؛ أي قُل مَن يحفَظُكم من بَأْسِ الرَّحمن ، وعوارضِ الآفات في الليل والنهار وعقوبات الدُّنيا والآخرة ، { بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ } ؛ لا يلتفتون إلى شيءٍ من الْحُجَجِ والمواعِظ.

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا } ؛ مِن عذابنا ، { لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ } ؛ معناه : أنَّ آلِهتَهم لا يقدرون على الدفعِ عن أنفسهم في دَرْءِ ما يَنْزِلُ بهم من كَسْرٍ أو فساد ، فكان ينصرُهم

ويَمنعُ عنهم مل يَنْزِلُ بهم ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ } ؛ يعني الكفارَ. قال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : وَلاَ هُمْ مُجَارُونَ مِنْ عَذابنَا) أي لا يُجيرهم منَّا أحدٌ ، لأن الْمُجِيْرَ صاحبُ الْجَار ، يقال : صَحِبَكَ اللهُ ؛ أي حَفِظَكَ اللهُ وأجارك. وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ : وَلاَ هُمْ يُصْحَبُونَ مِنَ اللهِ بخَيْرٍ) يقالُ أصْحَبْتُ الرجلَ إذا أعطيتهُ أمَاناً يأمنُ به.

(٠/٠)

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)

وقولهُ : { بَلْ مَتَّعْنَا هَاؤُلاءِ وَآبَآءَهُمْ } ؛ يعني أهلَ مكَّة متَّعهم اللهُ بما أنعمَ عليهم ، { حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } ؛ فاغْتَروا بذلكَ ، والمعنى ما حَملهُم على الإعراضِ إلاّ الاغترارُ بطول الإمهالِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ } ؛ معناهُ : أفلا يُشاهدون أنَّا نفتحُ الآرضَ مِن جوانبها ، وننقصُ من الشِّركِ بإهلاك أهلِها ، فيزدادُ هو كلَّ يوم تَمكُّناً ، وتزدادون ضَعْفاً ونقصاً ؟ والمعنى : ألَم يَرَ المشركون الذين يُحاربون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ويقاتلونَهُ أنا ننقصُهم ، ونأخذ ما حولَهم من قُراهم وأرضهم ؟ أفلا يَرَون أنَّهم هم المنقوصُون والمغلوبون؟
ومعنى قولهِ تعالى : { أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ } أي هم الغالبون للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بل هو الغالبُ لَهم.
وعن ابنِ عبَّاس في معنى نقصِها من أطرافها : (أيْ بذهَاب فُقَهَائِهَا وَخِيَار أهْلِهَا ، فَكَيْفَ يَأمَنُ الرُّذالُ؟).

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ : إنَّما أخوِّفُكم من عذاب الله بالقُرْآنِ الذي يُوحَى إلَيَّ لا مِن قِبَلِ نفسي ، وذلك أنَّ اللهَ أمَرَهُ بإنذارِهم ، كقولهِ{ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ }[الأنعام : ٥١].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ } ؛ هذا تَمْثِيْلٌ للكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعونَ

النِّداءَ ، والمعنى أنَّهم مُعانِدون ، فإذا أسْمَعْتُهُمْ لَم يعملُوا بما سمعوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا مَا يُنذَرُونَ } أي اذا ما يَخافُونَ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ ياويْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ؛ أي لو أصابَهم أدنَى عذابٍ لأيقَنُوا بالهلاكِ ، وقال ابنُ كَيسان : (مَعْنَاهُ : وَلَئِنْ مَسَّهُمْ قَلِيْلٌ مِنْ عَذاب اللهِ) ، وقال ابنُ جُريجٍ : (نَصِيْبٌ مِنْ عَذاب اللهِ) ، والمعنى : ولئن مسَّهُم طَرَفٌ من العذاب لأيقنوا بالهلاك ، ودَعَوا على أنفُسِهم بالويلِ مع الإقرار أنَّهم ظلَمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ ، وتكذيب النبيِّ صلى الله عليه وسلم. وَالنَّفْحَةُ : هي الدفعةُ اليسيرة الواقعةُ مِن الشيء دون مُعْظَمِهِ ، يقالُ : نَفَحَهُ نَفْحَةً بالسَّيْفِ ؛ أي ضَرَبَهُ ضربةً خفيفةً.

(٠/٠)

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً } ؛ أي نضعُ الموازينَ ذواتِ القسط لأهلِ يوم القيامة. قال الحسنُ : (هِيَ مِيْزَانٌ لَهُ كَفَّتَانِ وَلِسَانٌ ، لاَ يُوزَنُ فِيْهَا غَيْرُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، يُجَاءُ بالْحَسَنَاتِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ ، وَبالسَّيِّئَاتِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ ، فَلاَ يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِ أحَدٍ ، وَلاَ يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِ أحَدٍ). وقال مجاهدُ : (هَذا مَثَلٌ ، وَإِنَّمَا أرَادَ بالْمِيْزَانِ الْعَدْلَ).
ويروى : أنَّ داودَ عليه السلام سألَ رَبَّهُ أن يُرِيَهُ الميزانَ ، فلما رآهُ غَشِيَ عليهِ ثُم أفاقَ ، فقال : إلَهِي مَن الذي يقدرُ أنْ يَملأ كفَّته حسناتٍ ؟ فقالَ : يا داودُ إنِّي إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُهما بتمرةٍ. ويقالُ : إنَّما يُوزنُ خاتِمَةَ العملِ ، فمَن كان خاتِمةُ عملهِ خيراً ، جُوزيَ بخيرٍ ، ومَن كان شرّاً جُوزيَ بشَرٍّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا } ؛ وإن كان العملُ الذي عَمِلَهُ وزنَ حبَّة من خَرْدَلٍ أتَيْنَا بهَا للجزاءِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وإنْ كان الظلامةُ مثقالَ حبَّة من خردلٍ أحضرناها للمجازاة حتى

لا يبقى لأحدٍ عند أحدٍ ظلامةٌ.
قرأ أهلُ المدينةِ (مِثْقَالُ) بالرفع على (إنْ كَانَ) بمعنى وَقَعَ لا خبرَ لَها ، وقرأ العامةُ بالنصب على معنى وإن كانَ ذلك الشيءُ ، ومثلهُ في لقمان. قوله تعالى : { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } ؛ أي مُحْفِظِيْنَ ، وَقِيْلَ : حافِظِين ؛ لأن مَن حَسَبَ شيئاً عَلِمَهُ وحَفِظَهُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ } ؛ أي التوراةَ يُفَرَّقُ بها بين الحقِّ والباطلِ ؛ والحلالِ والحرامِ ، { وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ } ؛ مِن صِفَةِ التوراة مثلُ قولهِ تعالى : { هُدًى وَنُورٌ }[المائدة : ٤٤] ، والمعنى : أنَّهم استضاؤُا بها حتى اهتَدَوا في دِينهم ، وقولهُ تعالى : { وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ } أي موَعِظَةً للمتقين الكبائرَ والفواحشَ. وعن ابنِ عبَّاس : أنهُ كان يقرأُ (ضِيَاءً) بحذف الواوِ ، وكان يقولُ : (آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً).

(٠/٠)

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } ؛ في الدُّنيا غائبين عن الآخرةِ ، { وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ } ؛ أي خائفون من أن تلحَقَهم الساعةُ ، مما يَجري فيها من الْمُحَاسَبَةِ قبلَ إصلاح أعمالِهم.

(٠/٠)

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَاذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ } ؛ أي هذا القُرْآنُ الذي أنزلناهُ عليكَ يا مُحَمَّدُ ، ذِكْرٌ يَتَبَرَّكُ به قارئهُ فيجزيه الأجرَ العظيم ، { أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } ؛ يا أهلَ مكَّة ، وهذا توبيخٌ لَهم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ } ؛ أي مِن قبل بُلُوغِهِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : مِن قَبْلِ مُوسَى وهارون ، والمعنى : آتيناهُ هُدَاهُ وهو صغير حين كان في السِّرْب حتى عرفَ الحقَّ من الباطلِ ، { وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } ؛ أي آتيناهُ رُشْدَهُ ، { إِذْ } ، حين ، { قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ } ، في الوقت الذي خرجَ من أي التصاويرُ التي لأجلِها مقيمون عليها ، { مَا هَاذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } بيَّنُوا بهذا الجواب أنه لا حُجَّةَ لَهم في عبادةِ الأصنام إلاَّ تقليدَهم لآبائهم ، فأجابَهم إبراهيم ، { قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ } ؛ فِي عبادةِ الأصنام ، { قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ عن الحقِّ ظاهرٍ.

(٠/٠)

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ } ؛ قالوا له أجَادٌّ أنتَ فيما تقولُ ؟ مُحِقٌّ أم لاعبٌ مازحٌ ؟ وذلك لأنَّهم كانوا يستبعدون إنكارَ عبادتِها ، { قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فطَرَهُنَّ } ؛ أي بَلْ إلَهُكم مَالِكُ السَّمواتِ والأرضِ الذي خَلَقَهُن { وَأَنَاْ عَلَى ذالِكُمْ } ؛ ما قلتُ لكم ؛ { مِّنَ الشَّاهِدِينَ }.

(٠/٠)

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } ؛ أي لأُبْطِلَنَّهَا ولأَكْسِرَنَّهَا ولأَمْكُرَنَّ بها وقتَ مغيبكم عنها ، وذلك لأنَّهم كانوا يعزمونَ على الذهاب إلى عِيدهم ، فقال لَهم عند ذلك هذا القولَ. والكَيْدُ في اللغة : هو الإضْرَارُ بالشَّيءِ ، قال مجاهدُ وقتادة : (إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيْمَ هَذا الْقَوْلَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِرّاً ، وَلَمْ يَسْمَعْ ذلِكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي أفْشَاهُ سِرَّهُ عَلِيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ : سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيْمُ).

قال الشعبي : (كان لَهم في كلِّ سنةٍ مَجْمَعٌ وَعِيْدٌ ، وكانوا إذا رجعوا من عِيدهم دخلوا على الأصنامِ فسجَدُوا لَها ، فلما كان ذلك العيدُ قال أبو إبراهيمَ لهُ : يا إبراهيمُ لو خرجتَ معنا إلى عيدنا لأَعْجَبَكَ دينُنا! فخرجَ إبراهيمُ معهم ، فلما كان في بعضِ الطريق ألقَى نفسَهُ ، وقال : إنِّي سَقِيْمٌ ؛ أي اشتَكِي رجْلِي ، فربَطُوا رجلَهُ وهو صريع ، فلما مضَوا نادى في آخرِهم : وَتَاللهِ لأَكِيْدَنَّ أصْنَامَكُمْ ، { بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ }.

ثُم رجعَ إبراهيمُ إلى بيتِ أصنامهم ، فوجدَ معهم صَنَماً كَبيراً إلى جنبه أصنامٌ أصغَرُ منه ، وإذا هم قد جَمعوا طعاماً فوضعوهُ بين يَدَي الأصنامِ وقالوا : إذا كان وقتُ رجوعِنا رجعنا وقد باركَتِ الآلِهةُ لنا في طعامِنا فأكلنا ، فلما نظرَ إبراهيمُ إليهم وإلى ما بين أيدِيهم من الطعام ، قال لَهم على طريقِ الاستهزاء بهم : ألا تَأْكُلُونَ ؟ فلما لَم يُجيبوهُ ، قال لَهم : مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِيْنِ ، وجعل يكسِرُهم بفأسٍ في يده حتى لَم يبقَ إلاَّ الصنمُ العظيم ، فعلَّقَ الفأسَ في عُنُقِهِ ثُم خرجَ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ } ؛ فإنه لَم يكسرْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ } فيه إضمارٌ ؛ أي لَمَّا ولَّوا مدبرينَ جعلَهُم جُذاذاً. قرأ الكسائيُّ بكسرِ الجيم أي كَسْراً وقطعاً ، جمع جَذِيْذٍ وهو الهشيمُ مثل خَفِيْفٍ وخِفَافٍ وكرِيْمٍ وكِرَامٍ ، وقرأ الباقون بضمِّ الجيم ؛ أي جعلهم حُطَاماً ورُفَاتاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ } فإنه لَم يكسره ، { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } فيحتجُّ عليهم إبراهيم ويُبرهِنَ لهمْ على أن أصنامَهم لِمَ لَمْ تقدِرْ على دفع الكسرِ عن أنفُسِها ؟ فلِمَ يعبدُوها ؟ وكيف يكونُ إلَهاً مَن لا يقدرُ على دفعِ ما نَزَلَ به؟. وَقِيْلَ : معناهُ : لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؛ أي إلى دِين إبراهيم ، وإلى ما يدعوهم إليه بوجوب الْحُجَّةِ عليهم في عبادةِ ما لا يدفعُ الضُّرَّ عن نفسهِ ، وينتهوا عن جهلهم وعِظَمِ خطاياهم.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ مَن فَعَلَ هَاذَا بِآلِهَتِنَآ } ؛ فلمَّا رجعُوا مِن عيدهم ورأوا أصنامَهم مكسَّرةً ، قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هَذا بآلِهَتِنَا ؟ { إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ } أي فَعَلَ ما لَم يكن لهُ أن يفعلَ ، فقال الذي سَمع إبراهيمَ ؛ { قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } ؛ وذلك أن بعضَهم كانوا قد سَمعوهُ يذكرُ أصنامَهم بالعيب ويقولُ : إنَّها ليست بآلِهة.
فقالوا : ينبغي أن يكون ذلك الفتَى هو الذي كَسَرَها ، { قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ } ؛ بذلك الفتَى ، { عَلَى أَعْيُنِ } ؛ أي مَرْأى مِنَ ، { النَّاسِ } ؛ لكي يشهدَ الذين عرفوهُ أنه يعيبُ الأصنامَ. وَقِيْلَ : إنه لَمَّا بلغَ النمرودَ وأشرافَ قومه ما فُعِلَ بأصنامِهم وما قالوهُ ، في إبراهيمَ أنه هو الذي فعلَ ذلك ، قال النمرودُ ومن معه : فَأْتُوا بِهِ عَلَى أعْيُنِ النَّاسِ ، { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } ؛ أنه هو الذي فعَلَ ذلك بهم ، وكَرِهُوا أن يأخذوهُ بغيرِ بَيِّنَةٍ. وَقِيْلَ : معناه : لعلَّهم يشهدون ما يُصنَعُ به من العقوبةِ ؛ أي يحضرون.

(٠/٠)

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَاذَا بِآلِهَتِنَا ياإِبْرَاهِيمُ } ؛ أي فلمَّا أتوا به قالوا : أنتَ فعلتَ هذا الكسرَ بآلِهتنا ، { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَاذَا } ؛ الذي الفأسُ في عُنُقِهِ ، { فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ } حتى يُخبرُوكم ، وأراد بهذا تقريرهم بأنَّهم ظالِمون في عبادتِهم ما لا يدفعُ عن نفسه ؛ لأن جماعتَهم كانوا يعلمون أن الصنمَ لا يعقلُ ولا ينطق ، فأرادَ إبراهيمُ بذلك تَبْكِيْتَ القومِ وتوبيخَهم على عبادةِ مَن لا يعقلُ ولا يفعل ، ولذلك قال : فاسألوهم إنَّ كانوا يقدرون على النُّطقِ.

(٠/٠)

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ } ؛ أي فرَجَعُوا إلى أنفسهم بالْمَلاَمَةِ ، { فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ } ؛ في سؤالهِ ؛ لأنَّها لو كانت آلِهةً لَم يَصِلْ إلى كسرِها أحدٌ ؛ { ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُءُوسِهِمْ } ؛ أي أدركَتْهُم حيرةٌ فَنَكَّسُوا لأجلِها رؤوسَهُم ، وأقرُّوا بما هو حُجَّةٌ عليهم ، فقالوا : { لَقَدْ عَلِمْتَ } ؛ يا إبراهيم ، { مَا هَاؤُلاءِ يَنطِقُونَ } ؛ فكسَرْتُهم لذلكَ.

وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : تذكَّروا بقلوبهم ، ورجَعُوا إلى عقولِهم ، فقالوا : ما نراهُ إلاّ كما قالَ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ بعبادتِكم آلِهَةً لا تنطقُ ولا تبطشُ ، ثُم أدركَتْهم الشقاوةُ ، فعادوا إلى قولِهم الأوَّل وضلالِهم القديم ، وهو قوله { ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُءُوسِهِمْ } أي رُدُّوا إلى الكفرِ بعد أن أقَرُّوا على أنفسِهم بالظُّلم ، فقالوا لإبراهيم : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤلاَء يَنْطِقُونَ فلذلِكَ كسرتَهم.

فلما اتَّجهت الْحُجَّةُ عليهم بإقرارهم ، وبَّخَهُمْ إبراهيمُ و { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً } ؛ ولا يرزقُكم { وَلاَ يَضُرُّكُمْ } ؛ إذا لَم تعبدوهُ ، { أُفٍّ لَّكُمْ } ؛ أي تَبّاً لكم ، { وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ أنَّ هذه الأصنامَ لا تستحقُّ العبادةَ ، إذ هي أحجارٌ لا حركةَ لَها ولا بيانَ ، أفليس لكم ذهنُ الإنسانيَّةِ.

(٠/٠)

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ } ؛ أي لَمَّا ألزمَتْهُم الحجةُ ، وعجزوا عن الجواب غَضِبُوا فقالوا : حرِّقوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ بتحريقهِ ؛ لأنه يعيبُها ويطعنُ فيها ، فإذا حرقتموهُ كان ذلك نصراً منكم إياها. وَقِيْلَ : معناهُ : وانتقموا لآلِهتِكُم وعظِّمُوها ، { إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } ؛ في هذا شيئاً.

فاشتَغَلوا بجمعِ الحطب حتى كان الشيخُ الكبير يأتي بالحطب تقرُّباً إلى آلِهتهم ، وحتى أن المريضَ كان يُوصِي بكذا وكذا من مالهِ فيشتري به حَطَباً فيُلقَى في النار ، وحتى أن المرأةَ لتغزلُ فتشتري به حطباً ، وتلقيه في النارِ. قال ابنُ عمر : (إنَّ الَّذِي أشَارَ عَلَيْهِمْ بتَحْرِيْقِ إبْرَاهِيْمَ رَجُلٌ يُسَمَّى (هِيْزَنَ) فَخَسَف اللهُ بِهِ الأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيْهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

فلما أجمعَ النمرودُ وقومه على إحراقِ إبراهيمَ حبسوهُ في بيتٍ وبَنَوا بيتاً كالحظيرةِ ، فلذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ ابْنُواْ لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ }[الصافات : ٩٧] ثُم جمعوا له أصلابَ الحطب مِن أنواع الخشب ، حتى أن المرأةَ كانت إذا مرَّت تقولُ : إذا عافانِي اللهُ لأجمعنَّ حطباً لإبراهيمَ ، وكانت المرأةُ تنذرُ في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبنَّ في نار إبراهيم التي يحرقُ فيها احتساباً لدينها.

قال ابنُ اسحق : (كانوا يجمعون الحطبَ شهراً ، فلما أجمعوا الحطبَ شعَلُوا في كلِّ ناحية ناراً ، فاشتعلت النارُ واشتدَّت حتى أن الطائرَ كان إذا مرَّ بها احترقَ من شدَّة وَهَجِهَا ، ثُم عمَدُوا إلى إبراهيمَ وقيَّدوهُ ، ثُم اتخذوا مَنْجَنِيْقاً ووضعوهُ فيه مقيَّداً مغلولاً.

فصاحَتِ السمواتُ والأرض والملائكة صيحةً واحدة : يا ربَّنا إن إبراهيمَ ليس في أرضِكَ أحدٌ يعبدُكَ غيرهُ ، أيُحْرَقُ؟! فَأْذنْ لنا في نُصرتهِ ، فقال اللهُ : إن استعاذ بشيءٍ منكم أو دعاهُ فلينصره ، فقد أذنتُ له في ذلك ، وإن لَم يدعُ أحداً غيري فأنا أعلمُ به ، فأنا وَلِيُّهُ ، فَخَلُّوا بيني وبينَهُ.

فلما أرادوا إلقاءَهُ في النارِ ، أتاهُ خازنُ الماء فقال لهُ : إن أذنتَ أخمدتُ النارَ ، فإن خزائنَ المياه والأمطار بيدي ، وأتاهُ خازن الرِّياحِ وقال : إن شئتَ طيَّرتُ النارَ في الهواء ، فقال إبراهيمُ : لا حاجةَ لِي إليكم ، ثُم رفعَ رأسَهُ إلى السَّماء وقال : اللَّهُمَّ أنتَ الواحدُ في السماء ، وأنا الواحدُ في الأرضِ ، ليس في الأرضِ أحدٌ يعبدك غيري ، حَسْبي اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ).

وروي : أن إبراهيمَ قال حين أوثقوهُ ليلقوه في النارِ : لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ ، لاَ شَرِيْكَ لَكَ. قال : ثُم رَمَوا به في المنجنيقِ ، فاستقبلَهُ جبريلُ عليه السلام وقال : يا إبراهيمُ ألَكَ حاجةٌ ؟ قال : أمَّا إليكَ فلا.

قال جبريل : قال : حَسْبي من سؤالِي علمهُ بحالِي ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْنَا يانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَوْ لَمْ يُتْبِعْ بَرْدَهَا سَلاَماً لَمَاتَ مِنْ بَرْدِهَا ، فَلَمْ تَبْقَ يَوْمَئِذٍ نَارٌ فِي الأَرْضِ إلاَّ طُفِئَتْ وَخُمِدَتْ).

(٠/٠)

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً } ؛ أي وأرادوا الحيلةَ في الإضرارِ ، { فَجَعَلْنَاهُمُ } ؛ الكفارَ الذين أرادوا إحراقَهُ ، { الأَخْسَرِينَ } ؛ بأن لَم يَتِمَّ ما عَزَمُوا عليه ، وتبيَّن عجزُهم عن نصرهم لآلِهتهم ، فخَسِرَ سعيُهم. وقال ابنُ عبَّاس : (هُوَ أنَّ اللهَ سَلَّطَ الْبَعُوضَ عَلَى النَّمْرُودِ وَجُنْدِهِ حَتَّى أخَذتْ لُحُومَهُمْ وَشَرِبَتْ دِمَاءَهُمْ ، وَوَقَفَتْ وَاحِدَةٌ فِي دِمَاغِهِ حَتَّى أهْلَكَتْهُ).

(٠/٠)

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } ؛ أي نَجَّيْنَا إبراهيمَ من كيدِ النمرود ، ونَجَّينَا لوطاً معهُ ؛ أي ورفعنا إبراهيمَ من الْهَلَكَةِ إلى الأرضِ المباركة وهي أرضُ الشَّام. وسُميت أرضُ الشامِ مباركةً ؛ لكثرةِ الأنبياء الذين بعثَهم اللهُ فيها. وعن أبي العاليةِ : (أنهُ ليس ماءٌ عذب إلاّ وهو يجرِي من الصخرة التي ببيت المقدسِ).

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً } ؛ أي ووهَبْنَا لإبراهيمَ وَلَدَهُ اسحقَ وولدهُ يعقوبَ ، سُميَ يعقوبُ (نَافِلَةً) لأنه وَلَدُ وَلَدِهِ ، والنافلةُ في اللغة : زِيَادَةٌ على الأصلِ ، ونوافِلُ : الصلاةُ ما تطوَّعَ به المصلِّي. ويقال : إنَّهما جميعاً نافلةٌ ؛ لأنَّهما عطيَّةً زائدةٌ على ما تقدَّم من النِّعَمِ. قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ : (سَأَلَ إِبْرَاهِيْمُ رَبَّهُ وَلَداً وَحِداً ، فَقَالَ : رَب هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِيْنَ ، فَأَعْطَاهُ اللهُ اسْحَقَ وَلَداً وَزَادَهُ يَعْقُوبَ) ، قال ابنُ عبَّاس : (نَفَلَهُ يَعْقُوبَ ؛ أيْ زَادَهُ إِيَّاهُ عَلَى مَا سَأَلَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ } ؛ يعني إبراهيمَ وإسحق ويعقوب ، وجعلناهم أنبياءَ عاملين بطاعتنا.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً } أي قَادَةً في الخيرِ ، { يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ؛ أي يدعونَ الخلقَ إلى أمرِنا

ودِيننا ، { وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ } ؛ أي شرائعَ النبوَّةِ ، وَقِيْلَ : أمَرناهم بفعلِ الخيرات ، { وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ } ؛ أي خاضِعين مطيعين. وإنَّما قال (وَإِقَامِ الصَّلاَةِ) بغير (هاء) ؛ لأن الإضافةَ صارت عِوَضاً عن الهاءِ.

(٠/٠)

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } ؛ أي وَآتَينا لوطاً النبوَّةَ والعلمَ ، { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ } ؛ يعني سَدُومَ ، كان أهلُها يأتون الذُّكران في أدبارهم ، ويتضارطون في مجالسِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ } ؛ قِيْلَ : إنَّهم كانوا يعملونَ مع ذلك أشياء أُخَرَ من المنكراتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ } ؛ بإنجائِنا إيَّاهُ من القومِ السُّوء وهلاكِهم ، { إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي مِن الأنبياءِ.

(٠/٠)

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ } ؛ أي واذكُرْ نوحاً إذْ نَادَى رَبَّهُ من قَبْلِ إبراهيمَ ولوطٍ يعني دعَا على قومه بالهلاكِ ، فقالَ : { رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً }[نوح : ٢٦] ، { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } ؛ ومَن معهُ من غَمِّ الغرق وَكَرْبِهِ ، والكَرْبُ أشدُّ الغَمِّ. { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ أي منعناهُم مِن أن يَصِلوا اليه بسوءٍ ، { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ } ؛ أي كفاراً ، { فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ بالطُّوفَانِ.

(٠/٠)

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ } ؛ أي وأكرَمْنا داودَ وسليمان بالنبوَّة والحكمةِ إذ يحكُمان في الحرثِ ، وقال قتادةُ : (زَرْعاً) ، وقال ابنُ مسعود : (كَانَ كَرْماً قَدْ نَبَّتَ عِنَباً) ، قِيَّدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ } أي وقعت فيه باللَّيلِ ورَعَتْهُ وأفسدتهُ ، والنَّفْشُ في اللغة : الرَّعْيُ بالليلِ ، يقال : نَفَشَتِ السَّائمةُ بالليلِ ، وهَمَلَتْ بالنهارِ إذا رَعَتْ ، والْهَمَلُ الرعيُ بالنهارِ ، وكلاهما الرعيُ بلا راعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } ؛ أي لا يخفَى علينا منه شيءٌ ، ولا يغيبُ عن علمِنا ، وإنَّما قال (لِحُكْمِهِمْ) بلفظ الجمعِ لإضافة الحكم إلى مَن حَكَمَ وإلى الْمَحكومِ لَهم ، وقد يُذْكَرُ لفظُ الجمعِ في موضع التثنية{ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ }[النساء : ١١] أي أخَوَانِ.

(٠/٠)

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } ؛ أي فَهَّمْنَا القصةَ سليمانَ دون داود ، { وَكُلاًّ } ؛ منهما ؛ { آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } ؛ العلمُ والفصلُ بين الخصوم.

قال ابنُ مسعودٍ وقتادةُ والزهريُّ : (وَذلِكَ أنَّ رَجُلَيْنِ دَخَلاَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام ، أحَدُهُمَا صَاحِبُ حَرْثٍ ، وَالآخَرُ صَاحِبُ غَنَمٍ ، فَقَالَ صَاحِبُ الزَّرْعِ وَالْكَرْمِ : إنَّ هَذا نَفَشَتْ غَنَمُهُ لَيْلاً فَوَقَعَتْ فِي حَرْثِي ، فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَالَ : لَكَ رِقَابُ الْغَنَمِ – وَكَانَا فِي الْقِيْمَةِ سَوَاءً – فَأَعْطَاهُ الْغَنَمَ بالْحَرْثِ وَخَرَجَا. فَمَرَّا عَلَى سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ أحَدَ عَشَرَ سَنَةً ، فَقَالَ : كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا ؟ فَأَخْبَرَاهُ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ : نِعْمَ مَا قَضَى ، وَغَيْرُ هَذا كَانَ أرْفَقَ بالْكُلِّ ، وَلَوْ وُلِّيْتُ أمْرَكُمَا لَقَضَيْتُ بغَيْرِ مَا قَضَى. فَأُخْبرَ دَاوُدُ بذلِكَ فَدَعَا فَقَالَ : كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : أدْفَعُ الْغَنَمَ إلَى صَاحِب الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ نَسْلُهُمَا وَرِسْلُهُمَا وَمَنَافِعُهَا وَسَمْنُهَا وَصُوفُهَا إلَى الْحَوْلِ ، وَيَقُومُ أصْحَابُ الْغَنَمِ عَلَى الْكَرْمِ حَتَّى يَعُودَ كَهَيْأَتِهِ يَوْمَ أُفْسِدَ ، ثُمَّ يَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ غَنَمَهُمْ ، وَيَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ كَرْمَهُمْ.

فَقَالَ دَاوُدُ عليه السلام : نِعْمَ مَا قَضَيْتَ فِيْهِ ، فَالْقَضَاءُ قَضَاؤُكَ. وَحَكَمَ دَاوُدُ بَيْنَهُمْ بذلِكَ ، فَقُوِّمَ بَعْدَ ذلِكَ الْكَرْمُ وَمَا أصَابُوهُ مِنَ الْغَنَمِ فَوَجَدُوهُ مِثْلَ ثَمَرِ الْكَرْمِ) ، وهكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس.

قال الحسنُ : (كَانَ الْحُكْمُ مَا قَضَى بِهِ سُلِيْمَانُ ، وَلَمْ يُعْفِ اللهُ دَاوُدُ فِي حُكْمِهِ) وهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ مجتهدٍ يصيبُ ، وإلى هذا ذهبَ بعضُ الناسِ فقالوا : إذا نَفَشَتِ الغنمُ ليلاً في الزرعِ فأفسدتهُ ، كان على صاحب الغنم ضمانُ ما أفسدته ، وإن كان نَهاراً لَم يضمن شيئاً ، واستدلُّوا أيضاً بما رُوي : " أنَّ نَاقَةً كَانَتْ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ دَخَلَتْ حَيْطَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْهُ ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَهْلِ الأَمْوَالِ حِفْظَهَا بالنَّهَارِ ، وَعَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظَهَا باللَّيْلِ ".

وأما أصحابُنا فلا يَرَوْنَ في هذه المسألةِ ضَمَاناً ليلاً ولا نَهاراً ، إذا لَم يكن صاحبهُ هو الذي أرسله فيه ، ولا حُجَّةَ لَهم في هذهِ الآية ؛ لأنهُ لا خلافَ أن مَن نَفَشَتْ إبلهُ أو غنمهُ في حرثِ رجلٍ أنه لا يجبُ عليه أن يُسَلِّمَ الغنمَ ، ولا يسلمُ أولادَها وألبانَها وأصوافها إليه ، فثبتَ أنَّ الْحُكْمَيْنِ اللذين حَكَمَ بهما داودُ وسليمان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) مَنْسُوخَانِ بشريعةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقد رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ " وهذا خبرٌ مستعمل مُتَّفَقٌ على استعمالهِ في البهيمة الْمُنْفَلِتَةِ إذا أصابت إنساناً أو مالاً أنه لا ضمانَ على صاحبها إذا لَم يرسلْها هو عليه ، وليس في قصَّة البراءِ بن عازب إيجابُ الضمان ، ولأنّ الأشياءَ الموجبةَ للضمانِ لا تختلفُ بالليل والنهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ } ؛ اي وسخَّرنا الجبالَ والطيرَ يسبحن مع داودَ ؛ أي أن الجبالَ كانت تسيرُ مع داود أين يذهبُ ، ومما يؤيدُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى :

(٠/٠)

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } ؛ أي وسخَّرنا لسليمان الريحَ عاصفةً ؛ أي شديدَ الْهُبُوب. قال ابنُ عبَّاس : (إنْ أمَرَ الرِّيْحَ أنْ تَعْصِفَ عَصَفَتْ ، وَإذا أرَادَ أنْ تُرْخِيَ أرْخَتْ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ }[ص : ٣٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ } أي تجري بأمرِ سُليمان من اصْطَخَرَ إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها بالماءِ والشَّجر وهي الأرضُ المقدَّسة. روي : أنَّ الريحَ كانت تجري بسليمانَ وأصحابه إلى حيث شاءَ سليمانُ ، ثُم يعودُ إلى منْزله بالشَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } ؛ بصحَّة التدبيرِ فيه ، عِلمْنا أن ما يُعطى سليمان من تسخيرِ الريح وغيره يدعوهُ إلى الخضوعِ لربهِ.

(٠/٠)

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ } ؛ أي وسخَّرنا له مِن الشياطين في البحرِ لاستخراج ما شاء من لُؤْلُؤٍ ومَرْجَانٍ وغيرِ ذلك من الجواهر. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ } ؛ أي ويعملون دون الغواصة من أعمالِ البناء ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } ؛ أي مِن أنْ يُفسدوا ما عملوا ، ومن أن يَهيجوا على أحدٍ في زمانه.

(٠/٠)

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } ؛ أي دَخَلَ الضرُّ في جسدِي ، { وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ؛ بالعبادِ ، فكان هذا تَعْرِيْضاً منهُ بالدعاءِ لله لإزالة ما بِهِ من الضُّرِّ ، { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } دعاءَهُ ، { فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ } ؛ وقولهُ تعالى : { وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ } ؛ قال ابنُ مسعود وقتادة والحسنُ : (أحْيَا اللهُ لَهُ أوْلاَدَهُ الَّذِيْنَ هَلَكُوا فِي الدُّنْيَا بأَعْيَانِهِمْ وَرَدَدْنَا لَهُ مِثْلَهُمْ).
ويقالُ : أبْدَلَهُ اللهُ بكلِّ شيءٍ ذهبَ عنه ضِعْفَ ، " وعن ابنِ عبَّاس قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ } [ص : ٤٣] فقالَ : " يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، رَدَّ اللهُ امْرَأَتَهُ وَزَادَ فِي شَبَابِهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِيْنَ ذكَراً ". قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا } ؛ أي فَعَلْنَا ذلك به رحمةً من عندنا ، { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } ؛ أي وموعظةً للمطيعين.
قال وهبُ بن مَنبه : (كان أيوبُ عليه السلام رجلاً من الرُّوم من ذريَّة اسحق بن إبراهيمَ وكانت أمُّهُ من ولدِ لُوطٍ ، وكان اللهُ قد اصطفاهُ وبناه وبسطَ عليه الدُّنيا ، وآتاهُ من أصناف المال من البقرِ والإبل والغنم والخيل والْحُمُرِ ما لا يؤتيهِ أحداً ، وكان قد أعطاهُ الله أهلاً ووَلداً من رجالٍ ونساء ، وكان له خمسمائة عبدٍ ، لكلِّ عبدٍ امرأةٌ وولد ومال.
وكان أيوبُ عليه السلام بَرّاً تَقِيّاً رحيماً بالمساكين ، يُكْرِمُ الأراملَ والأيتام ويَكْفُلُهُمْ ، ويُكْرِمُ الضيفَ ، وكان شَاكراً لأنْعُمِ اللهِ ، مؤدِّياً لحقِّ الله ، قد امتنعَ من عدوِّ الله إبليسَ أن يصيبَ منه ما يصيبُ من أهلِ

الغِنَى من الفتنةِ والغفلة والشَّهوة والتشاغُلِ عن أمر الله بما هو فيه من الدُّنيا ، وكان كثيرَ الذكرِ لله تعالى مجتهداً في العبادةِ ، وكان إبليسُ لا يُحْجَبُ عن شيءٍ من السَّموات.

ومن هنا وصلَ إلى آدمَ عليه السلام حين أخرجَهُ من الجنةِ ، فلم يزلْ على ذلك يصعدُ في السَّموات حتى رفعَ اللهُ عيسى عليه السلام فحُجِبَ من أربعٍ ، وكان يصعدُ في الثلاثِ ، فلمَّا بعثَ الله مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم جُجِبَ من الثلاثِ الباقيات ، فهو وجنودهُ مَحْجُوبُونَ من جميعِ السموات إلى يوم القيامةِ إلاّ مَن اسْتَرَقَ فأتبعهُ شهابٌ ثاقب.

فلما كان إبليسُ في زمان أيوبَ يصعدُ إلى السَّماء ، سَمِعَ تحاديثَ الملائكة بصلاة أيوبَ ، وذلك حين ذكَرَهُ اللهُ وأثنى عليهِ ، فأدركَهُ الحسدُ بأيوب ، فصعدَ سريعاً حتى وَقَفَ مِن السموات موقفاً كان يَقْفُهُ ، وقال : إلَهي ؛ عبدُكَ أيوبُ قد أنعمتَ عليه فشكركَ ، وعَافَيتَهُ فَحَمِدَكَ ، ولَم تُجَرِّبْهُ بشدَّة ولا بلاءٍ ، وأنا لك زعيمٌ لَئِنْ جرَّبتَهُ بالبلاءِ لَيَكْفُرَنَّ بكَ.

فقالَ اللهُ تعالى : انطلق ؛ فَقَدْ سَلَّطْتُكَ على مالهِ ، فانقضَّ إبليسُ حتى وقعَ على الأرضِ وجَمَعَ عفاريتَ الجنِّ وقال لَهم : ماذا عندكُم من القوَّة ؟ فإنِّي قد سُلِّطْتُ على مالِ أيُّوبَ ، وهي المصيبةُ الكبرى والفتنةُ التي لا تَصْبرُ عليها الرجالُ ، فقال عفريتٌ من الجنِّ : أعطيتُ من القوةِ ما إذا شِئْتُ تَحَوَّلْتُ إعصاراً من النار ، وأحرقتُ كلَّ شيءٍ أتى عليه ، فقال لهُ ابليسُ : إذهب إلَى الإبلِ ورُعاتِها ، فذهب إلى الإبلِ فوجدَها في المرعى ، فلم يشعُرِ الناسُ حتى ثارَ إعصارٌ تنفخُ منه السَّموم ، لا يدنو منهُ أحدٌ إلاّ احترقَ ، فلم يزل يُحرِقُها ورعاتَها حتى أتى على آخرِها.

(٠/٠)

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً } ؛ يعني يُونُسَ بْنَ مَتَّى أحْبَسَهُ الله في بَطْنِ النُّونِ ، وهو الحوتُ ، ومعنى الآية : وَاذْكُرْ ذا الحوتِ إذْ ذهَبَ مُغَاضِباً لقومهِ. روي : أنهُ خرجَ مِن بينهم قَبْلَ أن يؤذنَ له في الخروجِ ، وكان خروجهُ من بينهم خطيئةً ، وإنَّما خرجَ منهم على تركِهم الإيْمانَ به ، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس والضحَّاك.

وَقِيْلَ : كان يونسُ وقومُهُ يسكنون فلسطين فعداهم مَلِكٌ فسبَى منهم خَلْقاً كثيراً ، فأوحَى اللهُ إلى أشعيا النبيِّ عليه السلام : إذْهَبْ إلى الملكِ حزقيا فقُل له : تَوَجَّهْ نبيّاً قوياً أميناً ، فإنِّي أُلقِي في قلوب أولئك التخلية حتى يُرسلوا معه بني إسرائيل ، فقال الملكُ : مَن ترى يرسلُ ؟ وكان في مَملكته خمسةً من

الأنبياءِ ، فقال لهُ : أرسِلْ يونسَ فإنه قويٌّ أمين ، فأتى الملكَ يونسُ فأخبرَهُ أن يخرجَ ، فقال يونسُ : هل أمَرَكَ اللهُ بإخراجي ؟ قال : لاَ ، فقال : فهل سَمَّانِي لكَ ؟ قال : لا ، قال : فهنا أنبياءٌ غَيري أثوياءُ أمناءُ ، فألَحَّوا عليه فخرجَ مُغاضِباً للنبيِّ والملكِ ولقومه.

فأتَى بحرَ الرُّوم ، فإذا سفينةٌ مشحونةٌ فرَكِبَ مع أصحابها ، فلما صارت في لُجَّةِ البحرِ انكفأَتْ حتى كادوا يغرَقون ، فقال الملاَّحون : ها هنا عبدٌ آبقٌ عاصٍ ، فاقترِعُوا ، فمَن وقعت عليه القرعةُ ألقيناهُ في البحرِ ، لئن يغرقَ واحدٌ منَّا خيرٌ مِن أن تغرقَ السفينةُ بما فيها. فاقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعةُ كلُّها على يونسَ ، فقال يونسُ : أنا الرجلُ العاصي والعبدُ الآبقُ ، وألقَى نفسَهُ في الماءِ. فجاءَ حوتٌ فابتلعه ، ثُم جاء حوتٌ آخر أكبرَ منه فابتلعَ الحوتَ أيضاً. فأوحىَ الله إلى الحوتِ لا تُؤْذِي منه شعرةً ، فإنِّي قد جعلتُ بطنَكَ سِجْنَهُ ، ولَم أجعلْهُ رزْقاً لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ } ، بالعقوبةِ ، يقال قَدَرَ اللهُ الشيءَ وَقَدَّرَهُ ؛ أي قَضَاهُ. وَقِيْلَ : معناه : فَظَنَّ أن لن نُضَيِّقَ عليه السجنَ ، من قولهِ تعالى : { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ }[الطلاق : ٧] أي ضُيِّقَ ، وَقولهِ{ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ }[الروم : ٣٧] ، وقد ضَيَّقَ اللهُ على يونس أشدَّ تضييقٍ. وَقِيْلَ : معناهُ : { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ } ما قَدِرْنَا من كونه في بطنِ الحوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ } ؛ قال ابنُ عباس : (هِيَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ) ، وقال سالِمُ ابن أبي الْجَعْدِ : (كَانَ حُوتاً فِي بَطْنِ حُوتٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي الظَّالِمين لنفسِي في خُروجي من قومي قبلَ الإذن. قال الحسنُ : (وَهَذا مِنْ يُونُسَ اعْتِرَافٌ بذنْبِهِ ، وَتَوْبَتِهِ مِنْ خَطِيْئَتِهِ ، تَابَ إِلَى رَبِهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ). قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلاَّ فَرَّجَ اللهُ عَلَيْهِ ، كَلِمَةُ أَخِي يُونُسَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ".

(٠/٠)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ } ؛ أي أجَبْنَا دعوته ونَجَّيْنَاهُ من تلكَ الظُّلمات ، { وَكَذالِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ } ؛ إذا دَعَوْنِي ، كما نَجَّينا ذا النُّون. قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " اسْمُ اللهِ إذا دُعِيَ أجَابَ ، وَإذا سُئِلَ بِهِ أُعْطَي : دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى " قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ هِيَ لِيُونُسَ خَاصَّةً أمْ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِيْنَ ؟ قَالَ : لِيُونُسَ خَاصَّةً ، وَلَهُ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ عَامَّةً ، أُدْعُوا بِهَا ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكَذالِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ } ".

واختلفَتِ القراءاتُ في قولهِ { وَكَذالِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ } ، قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ : (نُجِّي الْمُؤْمِنِيْنَ) بنون واحدةٍ وتشديد الجيمِ وتسكين الياءِ. وجميعُ النحويين حَكَمُوا على هذه القراءةِ باللَّفظِ ، وقالوا : هي لَحْنٌ ، ثُم ذكرَ الفرَّاء لَها وجهاً فقالَ : أضْمَرَ الْمَصْدَرَ فِي (نُجِّي) أي نُجِّيَ النِّجاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ ، كَقَوْلِكَ : ضَرَبْتُ الضَّرْبَ زَيْداً عَلَى إضْمَار الْمَصْدَر ؛ أي ضُرِبَ الضَّرْبَ زَيْداً ، وقال الشاعر : وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذلِكَ الْجَرْو الْكِلاَبَاومِمن صوَّبَ هذه القراءةَ أبو عُبيد ، وأما أبو حاتَم السَّجستانِيُّ فإنه لَحَنَهَا ونسبَ قارئَها إلى الجهلِ وقال : (هَذا لَحْنٌ لاَ يَجُوزُ فِي اللُّغَةِ ، وَلاَ يُحْتَجُّ بِمِثْلِ ذلِكَ الْبَيْتِ عَلَى كِتَاب اللهِ ، إلاَّ أنْ تَقُولَ : وَكَذِكَ نُجِّيَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ قَرَأ ذلِكَ لَكَانَ صَوَاباً).

قال أبو علي الفارسيُّ : (هَذا إنَّمَا يَجُوزُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ، فَإنْ قِيْلَ : لِمَ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ بنُونٍ وَاحِدَةٍ ؟ قِيْلَ : لأنَّ الثَّانِيَةَ لَمَّا سُكِّنَتْ وَكَانَ السَّاكِنُ غَيْرَ ظَاهِرٍ عَلَى اللِّسَانِ حَذفَهُ ، كَمَا فَعَلَ ذلِكَ فِي (ألاَّ) فَحَذفُوا النُّونَ مِنْ (أنْ لاَ) لخفائها إذا كَانَتْ مُدْغَمَةً فِي اللاَّمِ).

(٠/٠)

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

وقولهُ تعالى : { وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } ؛ أي وَاذْكُرْ دعاءَ زكريَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ فقالَ رب لا تتركْني وحيداً ؛ أي ارزُقْنِي ولداً آنسُ به ويعينني على أمرِ الدِّين والدُّنيا ، ويقومُ بأمرِ الدين بعد وفاتِي ، وأنتَ وارثُ جميعِ الخلق ؛ لأنَّ مردَّهم صَائرُون إليكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } ؛ أي فأَجَبْنَا له دعاءَه هذا ، { وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } ؛ عَقْرَ امرأتِهِ ، قال قتادةُ : (كَنَتْ عَقِيْماً فَجَعَلْنَاهَا وَلُوداً) ، وَقِيْلَ : كانت سيِّئة الْخُلُقِ فرزَقَها اللهُ حُسن الْخُلقِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } ؛ أي يُبَادِرُونَ إلى الطاعات مخافةَ أن يَعْرِضَ لَهم ما يَشْغَلُهُمْ عنها ، ويعني بذلكَ زَكريَّا وامرأتَهُ ويَحيى ، وقال بعضُ المفسِّرين : الكنايةُ تعود على الأنبياءِ الذين ذكَرَهم اللهُ في هذه السورةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً } ؛ أي طَمَعاً في ثوابنا وخَوْفاً من عقابنا ، { وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ } ؛ أي خاضِعين حَذِرينَ.

(٠/٠)

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا } ؛ وهي مَرْيَمُ بنتُ عِمْرَانَ ، { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا } ؛ أي نَفَخَ جبريلُ في جَيْب دِرْعِهَا بأمرِنا ، والمعنى : وَاذْكُرِ التي حَفَظَتْ فرجَها مما لا يحلُّ.
وقولهِ تعالى : { وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي دلالةً للعالَمين من حيث أنَّها جاءت بالولدِ من غير بَعْلٍ ، تكلَّم في المهدِ بما يوجبُ براءةَ شأنِها من العيب ، وفي ذلك دليلٌ على مَقْدُورَاتِ الله ، وعلى هذا لَم يقل آيَتَينِ ؛ لأنَّ شأنَهما في الدلالةِ كان واحداً.

(٠/٠)

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ والحسن : (مَعْنَاهُ إِنَّ هَذا دِيْنَكُمْ دِيْنٌ وَاحِدٌ) والأُمَّةُ الدِّيْنُ ، ومنهُ قولهُ{ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ }[الزخرف : ٢٢] أي على دِيْنٍ.
الأصلُ أنه يقالُ للقومِ الذين يجتمعون على دِيْنٍ واحد : أُمَّةٌ ، فتقوم الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ. وهو نُصِبَ على الحالِ ؛ أي حالَ اجتماعها على الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } ؛ أي لا دِيْنَ سِوَى ديني ولا ربَّ غيري.

(٠/٠)

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } ؛ معناهُ : كان أمرُهم في الدِّين واحداً ، ولكن تفرَّقُوا واختلفوا بما لا يجوزُ ؛ وهم اليهودُ والنصارى والْمَجوس. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } أي جميعُ أهلِ هذه الأديان راجعون إلى حُكْمِنَا يومَ القيامةِ ، فنجزيَهم بأعمالِهم.

(٠/٠)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } ؛ أي لا جُحُودَ لعملهِ ، بل يتقبَّلُها اللهُ ويُثني عليها ، والمعنى : لا يَمْنَعُ ثوابَ عملهِ ، ولا يَجْحَدُ إحسانَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } ؛ أي نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أن يكتُبوا لذلكَ العاملِ عملَهُ لنجازيَهُ عليهِ.

(٠/٠)

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ } ؛ أي واجبٌ على كلِّ قرية اذا أُهْلِكَتَ لا ترجعُ إلى دُنيَاهَا. قال الكلبيُّ : (يَعْنِي بقَولِهِ { أَهْلَكْنَاهَآ } عَذبْنَاهَا أنَّهم لا يرجعونَ إلى الدُّنيا). والمعنى : أنَّ الله تعالى حَكَمَ على مَن أُهْلِكَ أن يبقَى في الأرضِ مدفوناً إلى يومِ القيامة ، وأن لا يرجعَ إلى الدُّنيا. قرأ حمزةُ والكسائي : (وَحِرْمٌ) بكسرِ الحاء وجزمِ الراء من غير ألِفٍ ، وهما لُغتان مثل حِلٍّ وَحِلاَّنٍ.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ } ؛ أي إذا فُتحت جهة يأجوجَ ومأجوج ، وفتحُها إخراجُها من السدِّ. قرأ ابنُ عامر ويعقوب : (فُتِّحَتْ) بالتشديدِ على التكثير.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ } ؛ أي من كلِّ أكَمَةٍ ورَبْوَةٍ مرتفعةٍ من الأرض يخرجون بإسراع ، والْحَدَبُ : الارتفاعُ ومنه الْحَدَبَةُ خروجُ الظَّهرِ ، وتبيِّنهُ. والنُّسُولُ : هو الخروجُ بسرعةٍ كَنَسَلاَنِ الذِّئْب يعني مشيه اذا أسرعَ فيها.
والمعنى : أنَّهم مِن كلِّ نَشْرٍ من الأرضِ يُسرعون ويتفرَّقون في الأرضِ ، فلا يُرَى أكمةً إلاَّ وفوقَها قومٌ

منهم يهبطون منها مُسرعينَ ، فلا يَمرُّونَ بماءٍ إلاّ شَرِبُوهُ ولا بشيءٍ إلاّ أفسدوهُ.
قال المفسِّرون : أولادُ آدمَ عشرةُ أجزاءٍ ، تسعةٌ يأجوجُ ومأجوجُ ، وقد ذكرنا قصَّتَهم في سورةِ الكهف.

(٠/٠)

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } ؛ قِيْلَ : إن الواوَ ها هنا مُقْحَمَةٌ ، والمعنى : حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ، يكون ذلكَ عندَ اقتراب السَّاعة ، وذكَرَ الوعدَ والمراد به الْمَوْعِدَ.
رُوي عن حذيفةَ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ : (لَوْ أنَّ رَجُلاً اقْتَنَى فُلُوّاً بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَمْ يَرْكَبْهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي تَشْخَصُ أبصارُهم يومَ القيامة نحو الجهةِ التي يتوقَّعون نزولَ العذاب بهم منها. وَقِيْلَ : خَشَعَتْ أبصارُهم من شدَّة الأهوالِ ذلكَ اليوم. قال الكلبيُّ : (شَخَصَتْ أبْصَارُهُمْ فَلاَ تُطِيْقُ تَطْرُفُ مِنْ شِدَّةِ الأَهْوَالِ) ، فأما الضميرُ في قولهِ { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ } يعودُ إلى معلومٍ قد بَيَّنَهُ وهو قولهُ { أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ، كقولِ الشاعر : لَعَمْرُ أبيْهَا لاَ تَقُولُ ظَعِيْنَتي إلاَّ فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بْنُ أبي كَعْبفكنى عن الظعينة ثم أظهرها ويكونُ تقديرُ الكلامِ : فإذا الأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا. وَقِيْلَ : يكون قوله (هِيَ) عمادٌ مثلُ قوله{ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ }[الحج : ٤٦].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياوَيْلَنَا } ؛ أي قالوا يَا وَيْلَنَا ؛ { قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا } ؛ اليوم في الدُّنيا ، { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } ؛ لأنفُسِنا بالكفرِ.

(٠/٠)

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } ؛ معناه : إنَّكم يا أهلَ مكَّة وما تعبدون من الأصنامِ وَقُودُ جهنَّم. والْحَصَبُ في اللغة : هو كُلُّ ما يُرمى بهِ ، يقال : حَصَبَةُ بالْحَصَا إذا رماهُ بها ، وفي القراءةِ الشاذة : (حَصَبُ جَهَنَّمَ) وهي قراءةُ ابنِ عبَّاس ، والْحَضَبُ : ما

يُهَيَّجُ به النارُ ، ومنه قيلَ لدِقَاقِ النار حَصَبٌ. وقرأ عليٌّ وعائشةُ : (حَطَبُ جَهَنَّمَ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } أي فيها خالدون ، والحكمةُ في إدخالِ الأصنام النارَ مع أنَّها لا ذنْبَ لَها في عبادةِ مَن يعبدُها : أن يُقصدَ بإدخالِها تعذيبُ عُبَّادِهَا ، فما كان منها حَجَراً أو حديداً يُحْمَى فَيَلْتَزِقُ بعُبَّادها ، وما كان منها خَشَباً جُعِلَ جَمْرَةً فيعذبون بها ، أو يكون في إدخالِ معبُودِهم معهم في النار زيادةَ ذُلٍّ وصَغَارٍ عليهم.

(٠/٠)

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْ كَانَ هَاؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا } ؛ اسْتِجْهَالاً لَهم في عبادة الأصنامِ ؛ أي لو كان الأصنامُ آلِهَةً كما يزعمُ الكفار ما وَرَدُوهَا ؛ أي دخلَ عابدُوها النارَ ، { وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ يعني العابدُ والمعبودُ.

(٠/٠)

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ } ؛ الزَّفِيْرُ شِدَّةُ النَّفَسِ بهَوْلِ ما يردُ على صاحبِهِ ، وهم فيها لا يَسْمَعُونَ شيئاً ، ولا يرَى أحدٌ منهم أنَّ في النارِ أحداً يُعَذبُ غيرهُ. قال ابنُ مسعودٍ : (يُجْعَلُونَ فِي تَوَابيتَ مِنْ نَارٍ ، ثُمَّ جُعِلَتْ تِلْكَ التَّوَابيْتُ فِي تَوَابيْتَ أُخْرَى فَلاَ يَسْمَعُونَ شَيْئاً).
" وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : أَنَّهُ أَتَى قُرَيْشاً وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ مُجْتَمِعُونَ وَحَوْلَهُمْ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً مَصْفُوفَةً ، لِكُلِّ قَوْمٍ صَنَمٌ لَهُمْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ " ثُمَّ ذهَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَشُقَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ ، فَأَتَاهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزِّبْعَرِيِّ فَرَآهُمْ يَتَهَامَسُونَ ، فَقَالَ : فِيْمَ حَوْصُكُمْ؟! فَأَخْبَرَهُ الْوَلِيْدُ بْنُ الْمُغِيْرَةِ بمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ ابْنُ الزِّبْعَرِيِّ : أَمَا وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ.
فَدَعَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ ابْنُ الزبعرى : أَنْتَ قُلْتَ أَنَّا وَمَا نَعْبُدُ فِي النَّار ؟ قَالَ :

خَصَمْتُكَ وَرَب الْكَعْبَةِ ، أَلَيْسَتِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْراً ، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيْحَ ، وَبَنِي مَلِيْحٍ يَعْبُدُونَ الْمَلاَئِكَةَ! أفَتَرَى أنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَكُونُونَ فِي النَّار ؟ فَبَيَّنَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ اللهَ تَعَالَى أرَادَ بِهِ الأَوْثَانَ ". وفي الآية ما يدلُّ على ذلكَ ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى{ وَمَا تَعْبُدُونَ }[الأنبياء : ٩٨] لا يكون إلاَّ لِمَا لا يعقلُ ، إذ لو أرادَ الملائكةَ والناسَ لقال (وَمَنْ تعبدون). ثُم أنزلَ اللهُ تعالى :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } ؛ معناهُ : أنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ هم الذين سَبَقَتْ لَهم مِنَّا الْحُسْنَى ؛ أي وَجَبَتْ لَهم العِدَةُ من اللهِ تعالى بالبُشرى والسعادة.

ويدخلُ في هذه الآية جُملة المؤمنين ؛ لما رُوي لأنَّ عثمان سَمِعَ عليّاً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يقرأ هذه الآيةَ { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } قال : (أنَا مِنْهُمْ وَأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيْدُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ وَأبُو عُبَيْدَةَ). وقال الجنيدُ : (سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْعِنَايَةُ فِي الْهِدَايَةِ ، فَظَهَرَتِ الْوِلاَيَةُ فِي النِّهَايَةِ).

(٠/٠)

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ }[الأنبياء : ١٠١] مُنَحَّوْنَ عن النار ، { لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } ؛ أي حِسَّهَا وحركةَ تلهُّبها ، والمعنى : لا يسمعون صوتَ النارِ ، { وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ } ؛ أي فِي مَا اشْتَهَتْ أنفُسُهُمْ من نعيمِ الجنَّة مقيمون دائمون.

(٠/٠)

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ } ؛ قال أكثرُ المفسِّرين : يعني إطباقَ جهنَّم على أهلِها ، وقال ابنُ عباس : (النَّفْخَةُ الأَخِيْرَةُ). وَقِيْلَ : هو ذبحُ الموتِ بين الفريقين. وَقِيْلَ : هو حين يؤمرُ بأهلِ النار إلى النار ، وذلك حين يقالُ{ وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ }[يس : ٥٩]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ } ؛ أي بالتَّهنئةِ على باب الجنَّة ، فيقولون لَهم : { هَاذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }.

(٠/٠)

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ : (السِّجِلُّ هُوَ الصَّحِيْفَةُ تُطْوَى بمَا فِيْهَا مِنَ الْكِتَابَةِ) وَاللاَّمُ في قوله (لِلْكُتُبِ) : بمعنى (على) ، وقال السديُّ : (هُوَ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ ، إذا مَاتَ الإنْسَانُ رُفِعَ كِتَابُهُ إلَيْهِ فَطَوَاهُ). وَقِيْلَ : إن السِّجِلَّ كاتبٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم. ويقالُ : هو الرجلُ بلغة الحبَشَة.

قرأ أبو جعفرٍ : (تُطْوَى السَّمَاءُ) بالتاء ، ورفعَ (السَّمَاءُ) على ما لَم يُسَمَّ فاعلهُ. وقرأ أهلُ الكوفة : (لِلْكُتُب) على الجمعِ.

والمرادُ بطَيِّ السَّماءِ أنَّ اللهَ تعالى يَطْوِيْهَا ، ثُم يفتحُها ثم يُعيدها ، ولذلك قال : { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ } ؛ أي كما بدأناها أوَّلَ مرَّة ، نعيدُها إلى الحالةِ الأُولى. ويجوزُ أن يكون معنى قولهِ { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ } نعيدُ الخلقَ للبعثِ كما بدأناهُ في النُّطفةِ ، ودليلُ هذا القولِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ }[الأعراف : ٢٩].

والطَّيُّ في هذه الآيةِ يحتملُ معنَيين ؛ أحدهما : الدَّرْجُ الذي هو ضِدُّ النَّشْرِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }[الزمر : ٦٧]. والثَّاني : الإخفاءُ والتَّعْمِيَةُ والْمَحْوُ والطَّمسُ ؛ لأن اللهَ تعالى يَمحُو رسُومَها ويُكْدِرُ نُجومَها. وَقِيْلَ : معنى قولهِ تعالى { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ } : كما بدأنَاهُم في بطُونِ أمَّهاتِهم حفاةً عُراة غُرْلاً ، كذلك نعيدُهم يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعْداً عَلَيْنَآ } ؛ نُصِبَ على المصدرِ بمعنى : قد وَعَدْنَاهم هذا وَعْداً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } ؛ ما وعَدْنَاكم مِن ذلك ، وَقِيْلَ : فاعلينَ الإعادةَ والبعثَ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } ؛ أي كَتَبْنَا في زَبُورِ داودَ مِن بعدِ توراةِ مُوسى. وقال ابنُ عبَّاس والضحَّاك : (الذِّكْرُ التَّوْرَاةُ ، وَالزَّبُورُ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنْ

بَعْدِ التَّوْرَاةِ). وَقِيْلَ : الزبورُ زبورُ داودَ ، والذِّكْرُ الفرقانُ ، و(بَعْدِ) بمعنى (قَبْلِ) كقولهِ تعالى{ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ }[الكهف : ٧٩] أي أمَامَهُم ، وقولهُ{ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا }[النازعات : ٣٠] أي قَبْلَ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } يعني أرضَ الجنَّة يرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ مِن أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. وَقِيْلَ : جميعُ المؤمنينَ العاملين بطاعة الله.

(٠/٠)

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي هَاذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } ؛ أي إنَّ في هذا القُرْآنِ بلاغاً للكفاية ، والمعنى : أن من اتبع القرآن وعمل به كان بلاغهُ في الجنَّة ، وقولهُ تعالى { لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } ؛ قال كعبٌ : (هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّذِيْنَ يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ). ورُوي : " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَرَأَ { إِنَّ فِي هَاذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } ، ثُمَّ قَالَ : " هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ".

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } ؛ معناهُ : وَمَا أرْسَلْنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاّ نِعْمَةً للعالَمين. قال ابنُ زيد : (يَعْنِي لِلْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّةً) ، وقال ابنُ عبَّاس : (هُوَ عَامٌّ ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ كُتِبَ لَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ عُوفِيَ مِمَّا أصَابَ الأُمَمَ مِنَ الْمَسْخِ وَالْخَسْفِ وَالْغَرْقِ). والمعنى : أنهُ كان إذا أُرْسِلَ نبيٌّ من الأنبياءِ ؛ فإنْ آمَنَ به قومهُ وإلاّ عُذِّبُوا ، وأُرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فكان كلُّ مَن كفرَ به يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة فهو نعمةٌ على الكافرِ إذ عُوفِيَ مما أصابَ الأممَ من المسخِ.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ يُوحَى إِلَيَّ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : إنَّما يُوحَى إلَيَّ في القُرْآنِ ؛ { أَنَّمَآ إِلَاهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } وهو اللهُ لا شريكَ له ؛ { فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } يا أهلَ مكَّة مُسلمونَ مُخلصون لهُ بالعبادة والتوحيدِ.

(٠/٠)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ } ؛ أي فإنْ اعرضُوا عن قبولِ قولِكَ ، { فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَى سَوَآءٍ } ؛ أي أعلمْتُكم بالوحي من اللهِ على سواءٍ في الإعلامِ ؛ أي لَم أُظْهِرْ بعضَكم على شيءٍ كتمتهُ عن غيرِهِ. وَقِيْلَ : عَلَى سَوَاءٍ في العلمِ ، إنِّي حربٌ لكم لا صُلْحَ بيننا ، وإنِّي مخالفٌ لدِينكم فتأهَّبوا لِما يُراد بكم ؛ إذ ليس العِنَادُ من أخلاقِ الأنبياء صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ } ؛ أي مَا أدْري متى توعدون به من العذاب.

(٠/٠)

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } ؛ معناهُ : إن اللهَ يعلمُ ما تُعْلِنُونَ به من القولِ ، ويعلمُ ما تَكْتُمُونَ من سرِّكم ، لا يغيبُ مِن عِلْمِهِ شيءٌ منكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ } ؛ أي ومَا أدْري لعلَّ تأخيرَ العذاب اختبارٌ لكم ؛ ليَرَى كيفَ صُنْعُكُمْ ، { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } ؛ آجالِكُم ؛ أي تُمتَّعون إلى انقضاءِ آجالِكم.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : رب احْكُمْ بعذاب أهلِ مكَّة الذي هو حقٌّ نازلٌ بهم ، والحقُّ : ها هُنا هو العذابُ ، كأنه استعجلَ العذابَ لقومه ، فعُذِّبُوا يومَ بدرٍ. قال قتادةُ : "كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا شَهِدَ قِتَالاً قَالَ : " رَب احْكُمْ بالْحَقِّ " قال الكلبيُّ : (فَحَكَمَ عَلَيهِمْ بالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَيَوْمَ الأَحْزَاب ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، وَيَوْمَ الْخَنْدَقِ). والمعنى : أفْصِلْ بَيْنِي وبين المشركين بما يظهرُ به مِن الحقِّ للجميعِ.

وقرأ حفصٌ : (قُلْ رَب احْكُمْ بالْحَقِّ) على الخبرِ ؛ أي قالَ الرسولُ ذلك. وقرأ الضحَّاك ويعقوب : (قِيْلَ رَب احْكُمْ بالْحَقِّ) بإثبات الياءِ على وجه الخبرِ ؛ أي هو أحكَمُ الحاكِمين ، وكيفَ يجوزُ أن يسألَهُ أن يَحْكُمَ بالحقِّ ، وهو لا يحكمُ إلاّ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } ؛ أي على كَذِبكُمْ وباطِلِكم وقولِكم : ما هَذا إلاَّ بَشَرٌ مثلُكم ، وقولكم : اتَّخَذ الرحمنُ ولَداً. والوَصْفُ بمعنى المكذب كقولهِ تعالى{ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ }[الأنعام : ١٣٩] ، وقولهِ{ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }[الأنبياء : ١٨].

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)

{ ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ يَا أَهْلَ مَكَّةَ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاحْذرُوا عِقَابَهُ إِنَّ زَلْزَلَةَ قِيَامِ السَّاعة شيءٌ عظيمٌ) أي هَوْلٌ عظيم ، لا يوصفُ لفظهُ ، والزَّلْزَلَةُ : شدَّةُ الحركةِ مع الحالِ الهائلة.

(٠/٠)

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } ؛ أي يوم تَرَوْنَ تلك الزَّلْزَلَةَ تَذْهَلُ في ذلك اليومِ كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرْضَعَتْ ؛ أي تَنْسَى. وَقِيْلَ : تَشْتَغِلُ ، وَقِيْلَ : تتركُ ، يقالُ : ذهِلْتُ عن كَذا إذا تركتهُ. وَقِيْلَ : معنى الآية : يوم تَرَوْنَ الزلزلةَ تَشْتَغِلُ كلُّ مرضعةٍ عن ولدِها بغيرِ فطام ، { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا } ، وتضعُ الحامل ما فِي بطنِها لغير تَمام. وهذا إنَّما يكون على وجهِ التَّشبيهِ ، والمعنى : أنْ لو كانت ثَمَّ مرضعةٌ لذهِلَتْ عن ولدِها ، وحاملٌ لوضعَتْ حَملَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى } ؛ أي من شِدَّةِ الفَزَعِ والخوف من عذاب الله يتحيَّرون كأنَّهم سُكارى ، { وَمَا هُم بِسُكَارَى } ؛ من الشَّاب ، { وَلَاكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } والمعنى : ترَى الناسَ كأنَّهم سُكارى من ذهُوْلِ عقولِهم لشدَّة ما يمر بهم فيضطَربون اضطرابَ السَّكران ، وسُكَارَى جمعُ سَكْرَانٍ. وقرأ أهلُ الكوفة (سُكْرِي وسُكْرَى) بغيرِ ألف. قال الفرَّاء : هُوَ وَجْهٌ جَيِّدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ ؛ لأَنَّهُ بمَنْزِلَةِ الْهَلْكَى وَالْجَرْحَى وَالْمَرْضَى).

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لآدَمَ : يَا آدَمُ ؛ قُمْ فَبْعَثْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ؛ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. فَعِنْدَ ذلِكَ يَشِيْبُ الصَّغِيْرُ ، وَتَضَعُ الْحَامِلُ مَا فِي بَطْنِهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بسُكَارَى ".

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ! أيُّنَا ذلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَبْقَى ؟ قَالَ : " أَبْشِرُوا ؛ إِنِّي لأَرْجُو أنْ يَكُونَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ " ثُمَّ قَالَ : " إِنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ " فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا ، ثُمَّ قَالَ : " إِنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أَهْلِ الْجَنَّةِ " فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفّاً ، ثَمَانُونَ مِنْهَا أُمَّتِي " ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلَفاً بغَيْرِ حِسَابٍ ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفاً " فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مَحِيْصٍ : أُدْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ : " أَنْتَ مِنْهُمْ " فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ : " سَبَقَكَ بهَا عُكَاشَةُ " ".

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ

الْحَارِثِ : كَانَ يُكَذِّبُ بالْقُرْآنِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَسَاطِيْرِ الأَوَّلِيْنَ ، وَكَانَ كَثِيْرَ الْجَدَلِ ، وَيَقُولُ : الْمَلاَئِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللهَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى إحْيَاءِ الْمَوْتَى). والمعنى : ومِن الناسِ مَن يُخاصِمُ في دِين الله بغيرِ عِلْمٍ ولا حُجَّةٍ ، { وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } ؛ أي مُتَمَرِّدٍ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ } ؛ أي كُتِبَ عليهِ الشيطانُ إضلالَ مَن تولاَّه ؛ { وَيَهْدِيهِ } وهدايتَهُ إياهُ { إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } ؛ وَقِيْلَ : الهاءُ في قولهِ { كُتِبَ عَلَيْهِ } راجعةٌ إلى مَن يتَّبِعِ الشيطانَ فيتقبَّلَ منهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ } ؛ معناهُ : يا أهلَ مكة إن كُنتم في شَكٍّ مِنَ البعثِ بعد الموتِ ، فتفكَّرُوا في ابتداءِ خَلْقِكُمْ فإنَّ إعادَتَكم ليست بأشدَّ مِن أوَّل خلقِكم ، ثم بيَّن ابتداء خلقِهم فقالَ : { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ } أي خلَقنا أباكُم آدمَ ، ثُم صوَّرناهُ لَحماً ودَماً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } ؛ أي ثُم جعلناكم بعد ذلكَ من النُّطفة التي تكون من الذكر والأنثى ، { ثُمَّ } خلَقنا { مِنْ } تلكَ النطفةِ ؛ { عَلَقَةٍ } ؛ وهي قطعةٌ من الدمِ { ثُمَّ } ؛ جعلنا العلقةَ { مِن مُّضْغَةٍ } ؛ وهي القطعةَ من اللَّحم ، تسمَّى مُضْغَةً ؛ لأنَّها مقدارُ ما يُمضَغُ من اللَّحم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } ؛ أي تامَّة الخلقِ وغيرِ تامة الخلقِ ، وَقِيْلَ : مصوَّرةٍ وغيرِ مصوَّرةٍ ، وهي السَّقْطُ. قال عبدُالله بنُ مسعود : " إذا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ ؛ بَعَثَ اللهُ مَلَكاً يَأْخُذُهَا بكَفِّهِ فَيَقُولُ : يَا رَب مُخَلَّقَةٌ أوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ فَإنْ قَالَ : غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؛ مَجَّتْهَا الأَرْحَامُ دَماً ، وَإنْ قَالَ : مُخَلَّقَةٌ ، قَالَ : يَا رَب أذَكَرٌ أمْ أُنْثَى ؟ وَمَا رِزْقُهَا وَمَا أجَلُهَا ؟ وَشَقِيٌّ أمْ سَعِيْدٌ ؟ وَبأَيِّ أرْضٍ تَمُوتُ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : اذْهَبْ إلَى أُمِّ الْكِتَاب فَإنَّكَ تَجِدُ ذلِكَ ، فَاسْتَنْسِخْ مِنْهُ صِفَةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ ، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْتَنْسِخُهَا. فَتُخْلَقُ فَتَعِيْشُ فِي أجَلِهَا ، وَتَأْكُلُ رِزْقَهَا ، حَتَّى إذا جَاءَ أجَلُهَا مَاتَتْ ، فَتَذْهَبُ إلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُتِبَ لَهَا "
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } ؛ أي لِنُبَيِّنَ لكم كمالَ قُدرَتِنا وحُكمِنا في تصريفِنا في الخلقِ.
وقولهُ تعالى : { وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ أي ونَتْرُكُ في الأرحامِ ما نشاءُ من الولدِ إلى وقتِ التَّمامِ ولا نُسْقِطُهُ. ورُوي عن عاصمٍ : (وَنُقِرَّ) بالنصب على العطف ، وقراءةُ الباقينَ بالرفع

على معنى : ونَحْنُ نُقِرُّ. قولهُ تعالى : { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } ؛ أي ثُم نُخرِجُكم من أُمَّهات شتَّى ، كأنهُ قال : ثُم نَخرجُكم من الأرحامِ طِفْلاً صِغَاراً ، وإنَّما لَم يقل أطفَالاً لأنه لَم يُخْرِجْهُمْ من أُمٍّ واحدة ، ولكن يُخرجهم من أُمَّهات شتَّى ، كأنهُ قال : ثُم نخرجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ } ؛ أي ثُم لِنُعَمِّرَكُمْ لتبلغُوا أشُدَّكم بمعنى الكمالِ والقوة ، { وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى } ؛ قبلَ بلُوغِ الأشُدِّ ، { وَمِنكُمْ مَّن } ؛ يُعَمَّرُ حتى { يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } ؛ أي هَوَانِهِ وأخَسِّهِ وهو الْهَرَمُ والْخَرَفُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً } ؛ أي لكَيْلاَ يَعْقِلَ مِن بعد عقله الأوَّلِ شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً } ؛ هذه دلالة أخرى تدلهم على إحياءِ الْمَوْتَى بإحياءِ الأرضِ الميتَةِ ، والهَامِدةُ : هي اليابسةُ الجافَّةُ ، كأنه قال : وتَرَى الأرضَ يابسةً جافَّةً ذاتَ تُرابٍ كالنار إذا اطفئت ورمدت ، { فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ } ؛ أي على الأرضِ ، { اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ } ؛ أي تحرَّكت بالنباتِ ، وازدادت وأضعَفت النباتَ ، وذلك أن الأرضَ ترتفعُ على النباتِ ، فذلك تحريكُها ، وهو معنى قولهِ { وَرَبَتْ } أي ارتفعَتْ وزَادَتْ وانتفخت للنباتِ ، من رَبَا يَرْبُو إذا ازدَادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } ؛ أي وأخرجت أكَماً من كلِّ لونٍ حَسَنِ البهجةِ ، ومِن كلِّ صنفٍ مؤنق العينِ ، والبهيجُ الحسنُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ }[النمل : ٦٠].

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى } ؛ أي ذلكَ الذي وصفناهُ من تعريفِ الخلق على هذه الأحوالِ في إحياء الأرضِ الميتة ؛ لتعلَمُوا وتُقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو المستحقُّ لصفات التعظيمِ ، وهو الإلهُ الواحد الذي يقدرُ على كلِّ شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى } أي ويدلُّكم على أنه يُحيي الموتى كما أحيَاكُم ابتداءً ، { وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ، وبأنهُ على كلِّ شيء من الإيجادِ والإعدام قديرٌ ، وَيدلُّكم { وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ } ؛ للحسنات والجزاءِ.

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ومِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ } ؛ نزلَتْ في النَّضْرِ بن الحارثِ أيضاً ، وَقِيْلَ : نزلت في أبي جهلٍ ، ومعناهُ : يجادلُ ليُحِقَّ الباطلَ ، ويُبطِلَ ما دلَّ عليه الدليلُ بغيرِ معرفةٍ ودليل ولا كتابٍ منير فيه حُجَّةُ ما يقول.

(٠/٠)

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثَانِيَ عِطْفِهِ } ؛ أي لاَوِي عُنُقِهِ متكبراً مُعرضاً عن ما يُدْعَى إليه كِبْراً ، وهو منصوبٌ على الحال ، والمعنى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ متكَبراً شامِخاً بأنْفِه ، { لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي عن دِين الله وطاعته.
وقولهُ تعالى : { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } ؛ أي عقوبةٌ بالْمَذمَّةِ والقتلِ ، { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } ؛ أي عذابَ النارِ ، فقُتِلَ النَّضرُ بن الحارث يومَ بدرٍ أسيراً ، ومَن قال : نزلت في أبي جهلٍ فهو قُتِلَ أيضاً يوم بدرٍ.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ } ؛ مبالغةٌ في إضافة الْخِزْي إليه ، { وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلعَبِيدِ } ؛ ظاهرُ المعنى ، فإن قِيْلَ : لِمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى { بِظَلاَّمٍ } على صفةِ المبالغة وهو لا يظلمُ مثقالَ ذرَّة ؟ فقيل : تعالَى إنه لو فَعَلَ أقلَّ قليلِ الظُّلم ، لكان عظيماً منهُ.

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ فِي أُنَاسٍ مِنْ بنِي أسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ ، أصَابَتهُمْ سَنَةٌ شَدِيْدَةٌ فَأَجْدَبُوا فِيْهَا ، فَمَضَوا بعِيَالِهِمْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى الْمَدِيْنَةِ مُهَاجِرِيْنَ ، فَكَانُواْ إذا أُعْطُواْ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَأصَابُواْ خَيْراً اطْمَأَنُّواْ بذلِكَ وَفَرِحُواْ بِهِ ، وَإنْ أصَابَهُمْ وَجَعٌ وآفَةٌ ، وَوَلَدَتْ نِسَاؤُهُمُ الْبَنَاتِ ، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُمُ الصَّدَقَةُ ، قَالُواْ : مَا أصَابَنَا مُذْ كُنَّا عَلَى هَذا الدِّيْنِ إلاَّ شَرٌّ ، فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِيْنِهِ ، وَذلِكَ الْفِتْنَةُ).

ومعنى الآيةِ { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } أي على ضَعْفٍ في العبادةِ ، لضَعْفِ القيامِ على الأحْرُفِ لا يدخلُ في الدِّين على ثباتٍ وتَمَكُّنٍ. وَقِيْلَ : معناهُ : على شَكٍّ كأنه قائمٌ على حَرْفِ جدارٍ وطرفِ جَبَلٍ ، لا يدخلُ في الدِّين على ثباتٍ ويقين وطُمأنينة ، فهو كالمضطرب على شفا جُرْفٍ ، { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ } ؛ رخاءً وعافية وسعة ، { اطْمَأَنَّ بِهِ } على عبادةِ الله بذلك الخيرِ ، { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ } ؛ أي مِحْنَةُ تَضْيِيقِ الْعَيْشِ ونحوِ ذلك ، { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } ؛ أي رَجَعَ إلى دينه الأوَّل وهو الشِّرْكُ باللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالأَخِرَةَ } ؛ أي خَسِرَ في الدُّنيا العِزَّ والغنيمة ، وفي الآخرة الجنَّةَ ، { ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } ؛ أي الظاهرُ. قرأ الأعرجُ ويعقوبُ : (انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَاسِراً الدُّنْيَا والآخِرَةِ) بالألف (وَالآخِرَةِ) بالخفض ، ونَصَبَ (خَاسِرَ) على الحالِ.

(٠/٠)

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ } ؛ أي يعبدُ مِن دون الله ما لا يضرُّهُ إن تَرَكَ عبادتَهُ ، ولا ينفعهُ إن عَبَدَهُ ، { ذلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ } ؛ عن الحقِّ والرُّشد ، { يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ } ؛ أي يدعُو ما لا نَفْعَ له أصلاً ، ومِن عادة العرب أنهم يقولون لشيءٍ لا مَنْفَعَةَ فيه : لَضَرَرُهُ أكثرُ من نفعهِ ، كما يقولون لشيء لا يكونُ أصلاً : هذا بعيدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَبِئْسَ الْمَوْلَى } ؛ أي بئسَ الناصرُ ، وقولهُ تعالى : { وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } ؛ أي بئْسَ الصاحبُ والْمُعاشِرُ ، يعني الصنمَ.

واختلفُوا في اللاَّم في قوله { لَمَنْ ضَرُّهُ } : قيل معناهُ التأخير كأنه قالَ : يدعو مَن والله لَضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ ، وإنَّما قُدمَتِ اللامُ للتأكيد ، ونظيرُ هذا قولُهم : عندي لَمَا غيرهُ خيرٌ منه ، معناه : عندي ما لَغَيْرُهُ خيرٌ منه. وقيل { لِمَنْ ضَرُّهُ } كلامٌ مبتدأ وخبرهُ { لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } ، ويكون المعنى الذي هو الضلالُ البعيد يدعوهُ ، فهذا حدُّ الكلامِ وما بعده كلام مستأنفٌ. وَقِيْلَ : هذه اللامُ صلةٌ ؛ أي يدعو مَن ضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ ظاهرُ المعنى ، { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } ؛ بأوليائه وأهلِ طاعته من الكرامةِ ، وبأهلِ معصيته مِن الْهَوَانِ.

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ } ؛ الآيةُ ، معناهُ : مَن كان يظنُّ أن لن يَنْصُرَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فليطلُبْ سَبَباً يصلُ به إلى السماءَ ، { ثُمَّ لْيَقْطَعْ } ؛ نصرةَ اللهِ لِنَبيِّهِ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ } ؛ أي يَتَهَيَّأُ له الوصولُ إلى السَّماء بحيلةٍ ، فكما لا يُمكنه أن يحتالَ في الوصولِ إلى السَّماء ، كذا لا يُمكنه الحيلةُ في قطعِ نَصْرِ اللهِ تعالى للنبيِّ صلى الله عليه وسلم.
وَقِيْلَ : معناهُ : مَن كان يظنُّ أن لن يَنْصُرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم حتى يظهرَ على الدِّين ، فَلْيَمُتْ غَيْظاً. وَقِيْلَ : إن الْهَاءَ راجعةٌ إلى { مَن كَانَ يَظُنُّ } كأنه قال : مَنْ كان يظنُّ أن لن يرزقَهُ اللهُ فليَمْدُدْ بحبلٍ إلى سقف بيتهِ وأضفَى ذلك على حَلْقهِ مُخنِقاً نفَسَهُ ليذهب غيظُ نفسهِ.
وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِهذا الجاهلِ ؛ أي مِثْلُ هذا الذي يظنُّ أن لن يرزقَهُ اللهُ على سبيل السَّخَطِ مثلُ مَن

فعلَ هذا الفِعْلَ بنفسهِ ، هل كان ذلكَ إلا زائداً في ثلاثةٍ ؟ وهل تذهبُ حقيقة نفسه غَيْظَهُ في رزقهِ ؟ وإنَّما ذكَرَ النُّصْرَةَ بمعنى الرِّزق ؛ لأن العربَ تقولُ : مَن يَنْصُرُنِي نَصَرَهُ اللهُ ؛ أي مَن يُعطيني أعطاهُ الله.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا يَغِيظُ } ؛ (مَا) بمعنى المصدر ؛ أي هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ وحيلتهُ غَيْظَهُ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } ؛ أي وكذلكَ أنزلنا القُرْآنَ على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم دلالاتٍ واضحاتٍ ، { وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي } ؛ إلَى النبوَّة ، { مَن يُرِيدُ } ؛ وَقِيْلَ : يَهْدِي إلى الدِّين وإلى الثواب.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ } ؛ أي إنَّ الذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ والقُرْآنِ وجميعِ أصناف الكفَّار من اليهودِ ، { وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ } ؛ بين هؤلاءِ الفِرَقِ الخمسِ وبين المؤمنينَ ، { يَوْمَ الْقِيامَةِ } ؛ بأن يُدْخِلَ المؤمنين الجنَّةَ ، وتلكَ الفِرَقَ النارَ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء من أعمالِ هؤلاء.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ } ؛ أَلَم تعلم يا مُحَمَّدُ أنَّ الله يسجدُ له أهلُ السَّموات مِن الملائكة ، { وَمَن فِي الأَرْضِ } ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ من المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ } ؛ يَسْجُدُونَ للهِ ؛ أي يَخْضَعُونَ ؛ لأنَّ سجودَ هذه الأشياءِ خضوعُها وانقيادُها لِخالِقِها فيما يريدُ منها. وقال أبو العاليةِ : (مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرٌ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ للهِ حِيْنَ يَغِيْبُ ، ثُمَّ لاَ يَنْصَرِفُ حَتَّى يُؤْذنَ لَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ } ؛ أي وكثيرٌ من الكفَّار الذين سيُؤمِنُونَ من بَعْدُ ، وانقطعَ ذِكْرُ الساجدين ثُم استثناهُ فقالَ : { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } ؛ أي مِمَّن لا يُوَحِّدُهُ وأبَى السجودَ ، وقولهُ تعالى : { وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ } ؛ أي مَن يُهِنِ اللهُ بالشَّقاءِ ، فما أحدٌ يُكْرِمُهُ بالسعادةِ ، { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } ؛ من الإهانةِ والكرامة والشَّقاوة والسعادةِ ، وهو الْمَالِكُ للعقوبة والمثوبةِ.

(٠/٠)

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ } ؛ أرادَ بالخصمينِ المؤمنينَ والكفارَ ، وَقِيْلَ : أهلُ الكتاب وأهل القُرْآنِ ، والمعنى : اختَصَمُوا في دِين ربهم ، فقالتِ اليهودُ والنصارى : نحنُ أولَى باللهِ منكم ؛ لأنَّ نبيَّنا قَبْلَ نبيِّكم ، وكتابَنا قبلَ كتابكم ، وقال المسلمونَ : نحنُ أحقُّ باللهِ منكم ، آمَنَّا بكتابنا وكتابكُم ونبيَّنا ونبيِّكم ، وأنتُم كفرْتُم بنَبيِّنَا حَسَداً.

وَقِيْلَ : أرادَ بالخصمينِ الفريقين الذين تَبَرَزُوا يومَ بَدْرٍ. والخصمُ يقع على الواحدِ والجميع ، ألا ترَى أنه جَعَلَ الكفارَ خصماً ، والمؤمنين خَصْماً ، ولِهذا قال (اخْتَصَمُوا) ؛ لأنَّهما جَمْعَانِ وليس برَجُلين. وكان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يُقْسِمُ أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ في ستَّةِ نَفَرٍ مِن قُريشٍ تَبَارَزُواْ يومَ بدرٍ بثلاثةٍ من المؤمنين وهم : (حَمْزَةُ ؛ وَعَلِيٌّ ؛ وَعُبَيْدَةُ بْنِ الْحَارِثِ) وثلاثةٌ مِن المشركين وهُم : (عُتْبَةُ ؛ وَشَيْبَةُ ؛ وَالْوَلِيْدُ بْنُ عُتْبَةَ) ، قال : وقال عليٌّ رضي الله عنه : (إنِّي لأَوَّلُ مَنْ يُبْعَثُ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ } ؛ أي نُحَاسٌ قد أُذِيْبَ في النار فيُجْعَلُ على أبدانِهم بمَنْزِلَةِ الثياب ، وليس شيءٌ إذا حُمِيَ أشدُّ حَرّاً من النُّحاس ، { يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } ؛ وهو الماءُ الحارُّ الذي قد انتَهَى حرُّهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ } ؛ أي

يُذابُ بالحميمِ الذي يصبُّ مِن فوقِ رؤوسهم ما في بطونِهم من الشُّحوم حتى يخرجَ من أدبارهم ، وتُذابُ به الجلودُ أيضاً ، فإن جلودَهم تتساقطُ من حرِّ الحميم. والصَّهْرُ الإذابَةُ ، يقالُ : صَهَرْتُ الإلْيَةَ بالنَّارِ أصهرها ؛ أي أذبتُها.

(٠/٠)

وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } ؛ الْمَقَامِعُ جمعُ مَقْمَعَةٍ ؛ وهي مِدَقَّةُ الرَّأسِ. رُوي أنَّ الملائكةَ يضربون وُجُوهَهُم بأعْمِدَةٍ من حديدٍ ، فيَهْوُونَ في النَّار سبعينَ خَريفاً. قال مقاتلُ : (تَضْرِبُ الْمَلاَئِكَةُ رَأسَ الْكَافِرِ بالْمَقْمَعَةِ فَيُنْقَبُ رَأسُهُ ، ثُمَّ يُصَبُّ فِيْهِ الْحَمِيْمُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ ، فينفذُ الْجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلَى جَوْفِ الْكَافِرِ ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ مِنَ الأَمْعَاءِ حَتَّى يُحْرِقَ قَدَمَيْهِ).

(٠/٠)

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا } ؛ أي كلما رَفَعَتْهُمُ النارُ بلَهَبِهَا فحَاولُوا الخروجَ منها في غَمِّ العذاب أُعِيْدُوا في النارِ بضرب الْمَقَامِعِ ، وَقِيْلَ لَهم : { وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ } ؛ أي الْمُحْرِقِ مثل الأَلِيْمِ بمعنى الْمُؤْلِمِ. " وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ في قولِهِ تعالى { وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } [الحج : ٢١] قال : " لَوْ وُضِعَ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيْدٍ عَلَى الأَرْضِ ، ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الثَّقَلاَنِ مَا رَفَعُوهُ مِنَ الأَرْضِ ".
ثم ذَكَرَ اللهُ الخصمَ الآخر فقال : { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ في سورةِ الكهف.
قرأ أهلُ المدينة وعاصم : (وَلُؤْلُؤاً) بالنصب على معنى (يُحَلَّوْنَ فِيْهَا لُؤْلُؤاً) ، ومَن قرأ بالخفضِ كان المعنى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أسَاوِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ).

وقولهُ تعالى : { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } ؛ ظاهرُ المرادِ. قال أبو سعيدٍ الخدريُّ : " مَنْ لَبسَ الْحَرِيْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ ، وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ "

(٠/٠)

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } ؛ أي هُدُوا في الدُّنيا إلى القول الطيِّب ، وهو قولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَقِيْلَ : إلى القُرْآنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } ؛ فاللهُ الحميدُ ، والصِّراطُ : طريقُ الجنَّة. والمعنى : أُرْشِدُوا إلى الإسلامِ. ويجوزُ أن يكون (الْحَمِيْدِ) نعتاً للصراطِ كما في قولهِ تعالى{ حَقُّ الْيَقِينِ }[الواقعة : ٩٥]. وَقِيْلَ : معنى الآية : وأُرْشِدُوا إلى القولِ الطيِّب في الآخرةِ مثلُ قولِ الله تعالى : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ }[الزمر : ٧٤].

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : إنَّ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ والقرْآنِ { وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } عطفُ المضارعِ على المضافِ ؛ لأن المرادَ بالمضارعِ الماضي أيضاً. ويجوزُ أن يكون المعنى الذين كَفَرُوا فيما مَضَى وهُمُ الآن يصدُّون عن سبيلِ الله مع كفْرِهم ، والمعنى : يَمْنَعُونَ الناسَ عن طاعةِ الله وعن الطَّوافِ في { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ؛ وهم أبو سُفيان وأصحابهُ الذين صَدُّوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عامَ الحديبيةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } ؛ معناهُ : الذي جعلناهُ للناسِ كلِّهم ، لَم يخصَّ به بعضَهم دون بعضٍ سِوَى المقيمِ فيه ، والذي يأتِي مِن غير أهلهِ ، وليس الذين صَدُّوا عنهُ بأحقَّ به مِن غيرِهم.
قِيْلَ : المراد بالمسجدِ الحرام في هذه الآية الْحَرَمُ كلُّهُ ، كما في قولهِ تعالى : { إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }[التوبة : ٧] وكان العهدُ بالحديبيةِ. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : "

إنَّ مَكَّةَ لاَ يَحِلُّ بَيْعُ رِبَاعِهَا وَلاَ إجَارَةُ بُيُوتِهَا ". وَقِيْلَ : إن المرادَ بالمسجدِ الحرام نَفْسُ المسجدِ سِوَى الْمُعْتَكَفِ فيه : الْمُجَاوِرُ والبادِيُ الذي يكون مُلازماً له في حُرمتِهِ وحقُّ الله عليهما فيه سواءٌ.

قرأ حفصٌ : (سَوَاءً) بالنصب بإيقاعِ الْجَعْلِ عليه ، لأن الجعلَ يتعدَّى إلى مفعُولين. وقرأ الباقون بالرفعِ على الابتداءِ ، وما بعدهُ خبره. وقِيْلَ : (سَوَاءٌ) خبرُ مبتدأ متقدِّم تقديرهُ : العَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِي سَوَاءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ معناهُ : ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظُلْمٍ ، وفي هذا دليلٌ أن المرادَ بالمسجد الحرامِ كلَّ الْحَرَمِ ، فإن الذنبَ في الحرمِ أعظمَ منه في غيره ، فعلى هذا يكونُ قوله { سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } أي سواءً في النَّزول ، فليس أحدُهما أحقُّ بالمنْزِل يكون فيه. وحرَّمُوا بهذه الآية كِرَاءَ دور مكَّة وإجارتَها في أيام الموسم.

قال عبدُالله بن أسباط : (كَانَ الْحُجَّاجُ إذا قَدِمُوا مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ أحَقَّ بمَنْزِلِهِ مِنْهُم) ، رُوِي : (أنَّهَا كَانَتْ تُدْعَى السَّوَائِبُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، مِن احْتَاجَ سَكَنَ ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أُسْكِنَ).

والإلحادُ هو الشِّرْكَ بالله تعالى ، وَقِيْلَ : كلُّ ظالِمٍ فيه ملحدٌ. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " احْتِكَارُ الطَّعَامِ بمَكَّةَ إلْحَادٌ ". وأمَّا دخولُ الباء في قوله : (بِإلْحَادٍ) فعلى معنى : ومَن إرادتهُ فيه بأنْ يُلْحِدَ بظلمٍ. وَقِيْلَ : الإلحادُ دخول مكة بغيرِ إحرامٍ ، وأخذُ حَمَامِ مكَّة وأشياء كثيرة لا يجوزُ للمُحْرِمِ أن يفعَلَها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } خبرٌ لكل ما تقدَّم من الجملتين من قولهِ تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ } ، ومِن قولهِ تعالى { وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ }.

(٠/٠)

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً } ؛ معناه : واذكرُوا إذ جَعَلْنَا البيتَ مَثْوىً لإبراهيمَ ومَنْزِلاً. قال الحسنُ : (بَوَّأنَاهُ نَزَّلْنَاه) ، وقال مقاتلُ : (دَلَلْنَاهُ عَلَيْهِ) ، وَقِيْلَ : هيَّأْنَا ، نظيرهُ{ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ }[آل عمران : ١٢١] ، { وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ }[الأعراف : ٧٤] ، { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً }[العنكبوت : ٥٨] ، وَقَيْلَ : معنى (بَوَّأنَا) أي بَيَّنَّا له مكانَ البيت.

قال السديُّ : (لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعَالَى ببنَاءِ الْبَيْتِ لَمْ يَدْرِ إبْرَاهِيمُ أيْنَ يَبْنِي ، فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ رِيْحاً ، فَكَشَفَتْ لَهُ مَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ عَنِ الأَسَاسِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ الْبَيْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ أيَّامَ الطُّوفَانِ) ، وقال الكلبيُّ : (فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ سَحَابَةً عَلَى قَدْرِ الْبَيْتِ فِيْهَا رَأسٌ يَتَكَلَّمُ فَقَامَتْ بحِيَالِ الْبَيْتِ ، وَقَالَتْ : يَا إبْرَهِيْمَ إبْنِ

عَلَى قَدْرِي) ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً } أي قلنا له وأوحَينا إليه أن لا تَعْبُدْ معي غيري. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } أي طَهِّرْ مِن ذبائحِ المشركين ، ومما كانوا حولَهُ من الدَّمِ والفَرْثِ ، وَقِيْلَ : طَهِّرْهُ من عبادةِ الأوثانَ ، ومن دخولِ المشركين فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلطَّآئِفِينَ } الذين يَطُوفُونَ حَوْلَهُ ، وأما القائمونَ الرُّكَّعُ السُّجُودُ فهم الْمُصَلُّونَ.

(٠/٠)

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ } ؛ أي وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ أيضاً أن أذِّنْ فِي النَّاسِ بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً ، فقال : يا رب وما يبلغُ صَوْتِي ؟ فقال : عليك الأذانُ وعليَّ البلاغُ ، فصَعَدَ أبا قَبيْسٍ ، ونَادَى في الناسِ : ألاَ إنَّ ربَّكُمْ قد بَنَى بيتاً ، وأمرَكم أن تَحُجُّوهُ فَحَجُّوهُ ، فاسمعَ اللهُ نداءه جميعَ مَن في أصلاب الرجالِ وأرحامِ النِّساء ، وما بينَ المشرق والمغرب ، والبَرِّ والبحرِ ، فَلَبَّاهُ كلُّ حَجَرٍ وَمَدرٍ ، وكلُّ مؤمنٍ ومؤمنة في أصلاب الآباء وأرحام الأُمَّهات ، قالوا : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، فجعلَ اللهُ التلبيةَ شعاراً للحجِّ ، فكلُّ مَن حَجَّ فهو ممن أجابَ إبراهيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } ؛ معناهُ : يأتوكَ مُشَاةً على أرجُلِهم وعلى كلِّ جَمَلٍ مهزولٍ أضْمَرَهُ السفرُ ، ورجَالٌ جمع رَاجِلٍ ، نحو صاحِبٍ وأصحابٍ. وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : (مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَنِي إلاَّ أنِّي لَمْ أحُجَّ رَاجِلاً) ، وقد حَجَّ الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا خَمساً وعشرين حَجَّةً ماشياً من المدينةِ إلى مكَّةَ ، وأن النَّجَائِبَ لتقادُ معه.

وعن رسولِ الله صلى عليه وسلم أنهُ قال للحُجَّاج : " لِلرَّاكِب كُلُّ خَطْوَةٍ تَخْطُوهَا رَاحِلَتُهُ سَبْعِيْنَ حَسَنَةً ، وَلِلحَاجِّ الْمَاشِي بكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ " قِيْلَ : وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ ؟ قَالَ : " الْحَسَنَةُ بمِائَةِ ألْفٍ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } ؛ أي من بُلدانٍ شتَّى ، مِن كلِّ طريقٍ بعيد ، يقالُ عَمِيقَة إذا كانت بعيدةَ القرارِ. وإنَّما قال (يَأْتِيْنَ) ؛ لأنه في معنى الجمعِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وعلى نَاقَةٍ ضَامِرَةٍ.

وعن بشْرِ بن مُحَمَّدٍ قال : رأيتُ في الطَّوافِ كَهْلاً قد أجهدتْهُ العبادةُ ، واصفَرَّ لونهُ ، وبيدهِ عصا وهو يطوفُ معتمداً عليها ، فتقدَّمتُ إليه لأسألَهُ ، فقال لِي : مِن أين أنتَ ؟ فقلتُ : من خُراسان ، قال : من أيِّ ناحيةٍ هي ؟ قلتُ : من نواحي المشرقِ ، فقال لِي : فِي كم تقطعونَ هذا الطريقَ ؟ قلتُ : شهرين أو ثلاثة ، قال : أفلاَ تَحُجُّونَ في كلِّ عام وأنتم جيرانُ البيتِ ؟ قلتُ : وأنتم كم بينَكُم وبين هذا البيتِ ؟ فقال : مسيرةُ خمسِ سنين ، فقلتُ : واللهِ إن هذا الجهدُ لَبَيِّنٌ ، والطاعةُ الجميلة والمحبة الصادقةُ ،

فضَحِكَ في وجهي وأنشأَ يقولُ : زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإنْ شاطتَ بكَ الدارُ وَحَالَ مَنْ زُرْتَهُ حُجُبٌ وَأسْتَارُلاَ يَمْنَعَنَّكَ بُعْداً مِنْ زِيَارَتِهِ إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

(٠/٠)

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

وقَولهُ تعالى : { لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ } ؛ أي ليشْهَدوا ما ندبَهم اللهُ إليه مما لهم فيه نفعُ آخِرَتِهم ، ويدخلُ في ذلك منافعُ الدُّنيا من التجارةِ بيعاً ورُخصةً. قال ابنُ جبير : (يَعْنِي بالْمَنَافِعِ التِّجَارَةَ) ، وقال مجاهدُ : (هِيَ التِّجَارَةُ وَمَا يُرْضِي اللهَ مِنْ أمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وعن عمرَ بنِ عبدِالعزيز أنه كان يقول إذا وَقَفَ بعرفةَ : (اللَّهُمَّ إنَّكَ دَعَوْتَ إلَى حَجِّ بَيْتِكَ ، وَذَكَرْتَ الْمَنْفَعَةَ عَلَى شُهُودِ مَنَاسِكِكَ ، وَقَدْ جِئْتُكَ فَاجْعَلْ مَنْفَعَةَ مَا تَنْفَعُنِي بِهِ أنْ تُؤْتِيَنِي فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَأنْ تقيَنِي عَذابَ النَّارِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } ؛ قال الحسنُ : (الأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْعَشْرُ ، وَالأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أيَّامُ التَّشرِيْقِ) ، وإنَّما قال لَها معدوداتٍ ؛ لأنَّها قليلةٌ ، وَقِيْلَ لتلكَ المعلوماتِ الحرصُ على علمِنا بحسابها من أجلِ وَقْفِ الحجِّ في آخرها ، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ.

وقال أبو يوسُفَ : (الأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ أيَّامُ النَّحْرِ وَهِيَ ثَلاَثَةُ أيَّامٍ ، وَالأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أيَّامُ التَّشْرِيْقِ وَهِيَ ثَلاَثَةٌ بَعْدَ الْيَوْمِ الأوَّلِ مْنْ أيَّامِ النَّحْرِ ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ الأَوَّلُ مِنْ أيَّامِ النَّحْرِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ دُونَ الْمَعْدُودَاتِ ، وَالْيَوْمُ الآخِرُ مِنْ أيَّامِ التَّشْرِيْقِ مِنَ الْمَعْدُودَاتِ دُونَ الْمَعْلُومَاتِ ، وَيَوْمَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ والْمَعْدُودَاتِ جَمِيْعاً) ، وكان يستدلُّ على هذا القولِ في الأيَّام بهذه الآية ، فإنه تعالى قالَ : { وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } ، فاقتضى ظاهرهُ أن المرادَ التسميةُ على ما ذُبحَ من بَهيمة بالْمُتْعَةِ والقِرَانِ.

وأما على قول أبي حنيفةَ ، فالمرادُ بالذِّكْرِ إكثارُ الذِّكرِ في أيامِ العَشْرِ ، كما رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَا مِنْ أيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أفْضَلَ فِيْهِنَّ مِنْ أيَّامِ التَّشْرِيْقِ ، فَأَكْثِرُواْ فِيْهَا مِنَ التَّحْمِيْدِ وَالتَّكْبِيْرِ وَالتَّهْلِيْلِ "

وعلى هذا يكونُ معنى { عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } لِمَا رزقتُهم من بَهيمة الأنعامِ ، كما قال{ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ }[البقرة : ١٨٥] أي لِما هَدَاكُمْ ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ : الْمَعْلُومَاتُ

وَالْمَعْدُودَاتُ وَاحِدٌ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } يعني الهدايا والضَّحايا من الإبلِ والبقرِ والغنم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ } ؛ قال الحسنُ : (وذَلِكَ أنَّ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إذا ذبَحُوا لَطَّخُواْ وَجْهَ الْكَعْبَةِ ، وَشَرَّحُوا اللَّحْمَ فَوَضَعُوهُ عَلَى الْحِجَارَةِ حَتَّى تَأْكُلَهُ السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ ، وَقَالُواْ : لاَ يَحِلُّ لَنَا أنْ نَأْكُلَ شَيْئاً جَعَلْنَاهُ للهِ.

فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللهِ كُنَّا نَصْنَعُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ألاَ نَصْنَعُهُ الآنَ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ). { فَكُلُواْ مِنْهَا } يعني الأنعامَ التي تَنْحَرون ، { وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ } وهو الذي قد أصابَهُ ضررُ الجوعِ ، و { الْفَقِيرَ } الذي لا شيءَ لهُ. وَقِيْلَ : البائسُ الذي بَيَّنَ عليه أثرُ البُؤْسِ بأن يَمُدَّ يده إليكَ. وَقِيْلَ : البائسُ الزَّمِنُ. وإنَّما خَصَّصَ البائسَ الفقيرَ ؛ لأنه أحوجُ من غيرِهِ.

(٠/٠)

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ } ؛ قال ابنُ عباس : (التَّفَثُ هُوَ الْمَنَاسِكُ كُلُّهَا) ، والمرادُ ها هنا رَمْيُ الجِمَارِ والْحَلْقُ ، ويقال : قضاءُ التَّفَثِ إزالةُ الشَّعث ، وفي هذا دليلٌ على أن المرادَ بقوله { عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } دمُ الْمُتْعَةِ والقِرَانِ ؛ لأن اللهَ تعالى رَتَّبَ عليه قضاءَ التَّفَثِ والطوافَ بالبيتِ الحرام ، لا دمَ تَرَتَّبَ على هذهِ الأفعال إلاّ دمُ المتعة والقِرَانِ ، فذكرَ هذه الآيةَ في جوازِ الأكل مما يُذْبَحُ. وَقِيْلَ : التَّفَثُ هو الوسخُ والقَذرُ من طولِ الشَّعر والأظفارِ ، وقضاؤه وإذهابهُ وإزالته.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ } ؛ يعني نَحْرَ ما نَذَرُوا من البُدْنِ ، وَقِيْلَ : يعني ما نَذَرُوا من أعمال البرِّ في أيامِ الحجِّ ، وربَّما نَذَرَ الرجلُ أن يتصدَّقَ إنْ رَزَقَهُ اللهُ لقاءَ الكعبة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } ؛ يعني طوافَ الزِّيارةِ بعد التروية ، أما يومُ النَّحرِ وما بعده فيسمَّى طوافَ الإفَاضَةِ. والعتيقُ القديمُ ؛ لأنه أولُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ. وَقِيْلَ : " أُعْتِقَ من أيدِي الْجَبَابِرَةِ ، فَلاَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ جبَّارٌ قَطْ إلاّ أذلَّهُ اللهُ " وعن ابنِ عبَّاس قال : " حَجَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا أتَى وَادِيَ عَسَفَانَ قَالَ : " لَقَدْ مَرَّ بهَذا الْوَادِي نُوحٌ وَهُودٌ وَإبْرَاهِيْمُ عَلَى بَكْرَاتٍ حُمْرٍ خَطْمُهُنَّ اللِّيْفُ ، يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيْقَ ".

(٠/٠)

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ } ؛ أي ذلِكَ الذي أُمِرْتُمْ به ، ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ باجتناب ما حَرَّمَ اللهُ تعظيماً للهِ فهو خيرٌ له في الآخرةِ مِن تَرْكِ استعظامِه. وقال بعضُهم : الْحُرُمَاتُ ها هنا البيتُ الحرامُ والبلد الحرامُ والشهر الحرام والمسجدُ الحرام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ } أي قال : المعظِّم خيرٌ له عند رَبِهِ من التَّهَاوُنِ ، يعني في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ } ؛ أي رُخِّصَتْ لكم بَهيمة الأنعامِ أن تأكلوها ، { إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } ؛ في كتاب الله من الْمَيْتَةِ والدمِ وغير ذلك مما بَيَّنَهُ اللهُ في سورة المائدةِ من الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُوذَةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيْحَةِ ومما لَم يُذْكَر اسمُ الله عليهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وأُحِلَّتْ لكم بَهيمةُ الأنعامِ في حال إحرامِكم إلاَّ ما يُتْلَى عليكم من الصَّيدِ ، فإنه حرامٌ في حال الإحرامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ } ؛ أي فَاجْتَنِبُوا عبادتَها وتعظيمَها وأن تذبَحُوا لَها ، كما يفعلُ المشركون ، سَمَّاها رجْساً اسْتِقْذاراً لَها واستخفافاً لَها ، وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَنْحَرُونَ هداياهم ، ويَصُبُّونَ عليها الدماءَ ، وكانوا مع هذه النَّجاساتِ يعظِّمونَها.

ويجوز أن يكون سَمَّاها رجْساً للُزُومِ اجتنابها كاجتناب الأنْجَاسِ. وأما حرفُ (مِنَ) في قولِهِ (مِنَ الأَوْثَانِ) لتخصيصِ جنسٍ من الأجناس ، والمعنى : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الذي هو مِن وَثَنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ } ؛ يعني قولَ الكذب ، ومِن أعظمِ وجُوهِ الكذب الكفرُ بالله ، والكذبُ على الله ، ويدخلُ في ذلك شهادةُ الزُّور ، كما رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بالإشْرَاكِ باللهِ ". وقال صلى الله عليه وسلم : " شَاهِدُ الزُّورِ لاَ تَزُولُ قَدَمَاهُ مِنْ مَكَانِهَا حَتَّى تَجِبَ لَهُ النَّارُ ".

(٠/٠)

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حُنَفَآءَ للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } ؛ أي مُخلصين للهِ مستقيمين على أمرِهِ غيرَ مشركين في تلبيةٍ ولا حَجٍّ ، وذلكَ أنّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يقولون في تلبيتِهم : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيْكَ

لَكَ لَبَّيْكَ ، إلاَّ شَرِيكاً تَملكهُ يَعْنُونَ الصَّنمَ. وانتصبَ قولهُ : { حُنَفَآءَ } على الحالِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ } ؛ أي سَقَطَ من السَّماءِ ، { فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ } ؛ في الْهَواءِ فَتُمَزِّقُهُ ، أو تذهبُ به الريحُ في موضع بعيدٍ ؛ أي مُنْحَدَرٍ فيقعُ على رأسهِ فيهلَكُ ، أي كما أنَّ الذي سَقَطَ من السماءِ لا يَملك نفعاً ولا دفعَ ضُرٍّ ، وكذلك الذي تَهوي به الريحُ في مكان سَحيقٍ ، وكذلك المشركُ لا ينتفعُ بشيء مِن أحْمَالِهِ ولا يقدرُ على شيءٍ منها.
قرأ أهلُ المدينة (فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ) بالتشديد أي فَتَتخْطِفُهُ ، فأُدْغِمَ أحدُ التَّائَين في الأُخرى ، والْخَطْفُ : الأخذُ بسرعةٍ. قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ يَخْطِفُ لَحْمَهُ) ، { أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ } ؛ أي تُسْقِطُهُ ، { فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } ؛ أي بعيدٍ. شَبَّهَ حالَ الْمُشْرِكِ بحال هذا الْهَاوِي من السَّماء في أنه لا يَمْلِكُ حيلةً حتى يسقطَ فهو هالكٌ لا محالةَ ، إما بإسْلاَب الطَّيرِ ، وإما بالسُّقوطِ في المكان السَّحيقِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ } ؛ أي ذلك التباعدُ والهلاكُ لِمَنْ أشْرَكَ بالله ، مَن يُعَظِّمُ شعائرَ اللهِ ؛ أي مَنَاسِكَ اللهِ. وَقِيْلَ : أراد بالشَّعِيْرةِ الْبُدْنَ ، فمَن عظَّمَها باستمنانِها واستحسانِها ، { فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ } ؛ يعني من صَفَاوَةِ القُلُوب. وإنَّما أضافَ التَّقْوَى إلى القلوب ؛ لأن حقيقةَ التقوى تَقْوَى القلوب.

(٠/٠)

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ أي لكم في بَهيمة الأنعامِ المنافعُ تركَبُوها ، وتَشرَبُونَ ألبانَها قبلَ أن تشعروها وتسمُّوها هَدْياً إلى أن تقادُوها ، وسموها هدياً ، وأما إذا قلدوها وسَمَّوها هَدْياً انقطعت هذه المنافعُ فلا يجوزُ له حينئذٍ شُرْبُ ألبانِها ولا خَزُّ أصوافِها ولا بيعُ أولادِها. وأما ركوبُها عند الشافعيِّ يجوزُ إذا لَم يُضِرَّ بها ، وعندنا لا يجوزُ إلاّ اذا اضطرَّ إليه. وعن أبي هريرةَ " عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه رَأى رَجُلاً يَسُوقُ بَدَنَةً ، فَقَالَ لَهُ : " وَيْحَكَ! ارْكَبْهَا " فَقَالَ لَهُ : إنَّهَا

بَدَنَةٌ ، فَقَالَ : " وَيْحَكَ! ارْكَبْهَا " وهذا عندنا محمولٌ على أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إنَّما أباحه لضرورة علمه مِن الرجُل فأَذِنَ له في ذلكَ إن لم يجد ظهراً غيرها ، يدلُّ على ذلك أنه لا يجوزُ له أنْ يوجِّهَها للركوب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } ؛ يعني أنَّ نحرها إلى الْحَرَمِ ، وعبَّر عن الحرمِ بالبيت ؛ لأن حرمةَ الحرمِ متعلقةٌ بالبيت ، كما قالَ تَعَالَى{ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ }[المائدة : ٩٥] ، ومن المعلوم أنَّهُ لا يُذْبَحُ عند البيتِ.

(٠/٠)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً } ؛ أي لكلِّ أُمَّةٍ مُسْلِمَةٍ سَبَقَتْ قبلَكم جعلنا لها عِيْداً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } ؛ عند الذبْحِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ولكلِّ أُمَّةٍ جعلنا عِبَادَةً في الذبْحِ. وَقِيْلَ : معناهُ : جعلنا مُتَعَبَّداً يعبدون اللهَ فيه.
قرأ أهلُ الكوفة (مَنْسِكاً) بكسرِ السِّين ؛ أي مَذْبَحاً وهو موضعُ القُرْبَانِ ، وقرأ الباقون بفتحِ السِّين على المصدر مثل الْمَدْخَلِ والْمَخْرَجِ ؛ أي هِرَاقَةُ الدَّمِ أو ذبحُ القُرُبَاتِ ، فمَن فتحَ السين أخذهُ من نَسَكَ يَنْسُكُ مثل دَخَلَ يَدْخُلُ ، ويستوي فيه المكان والمصدرُ ، ومَن كسرَها أخذهُ من نَسِكَ يَنْسِكُ مثل جَلَسَ يَجْلِسُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِلَاهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ } ؛ أي أخْلِصُوا دِينَكم وأعمالكم للهِ تعالى ، { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } ؛ أي المتواضعين بالجنَّة ، واشتقاقُ الْمُخْبِتِيْنَ مِنَ الْخَبَتِ وهو المكانُ المطمئنُ ، وقال مجاهدُ : (يَعْنِي الْمُخْبِتِينَ : الْمُطْمَئِنِّيْنَ إِلَى اللهِ) ، وقال الأخفشُ : (الْخَاشِعِيْنَ) ، وَقِيْلَ : الخائفينَ ، وَقِيْلَ : هم الذين إذا ظلموا لا ينصرون.

(٠/٠)

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } ؛ أي إذا خُوِّفُوا بالله خَافُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ } ؛ أي وبَشِّرِ الصَّابرِينَ عَلَى مَا أصَابَهُمْ مِن البَلاَيَا والنوائب الشدائد ، وَبَشِّر { وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ } ؛ في أوقاتِها ، وحُذفت النونُ لطول الاسم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ؛ أي يتصدَّقون من الواجب وغيرِهِ.

(٠/٠)

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ } ؛ جمع بَدَنَةٍ وهي الناقةُ والبقرة ، والبَدَانَةُ الضخامةُ ، والمعنى : والإبلَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ من أعْلاَمِ دِيْنِ اللهِ ؛ أي جعلناها لكم فيها عبادةٌ لله من سَوْقِهَا إلى البيتِ وتقلِيدِها وإشعارِها ونَحرِها والإطعامِ منها ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ } ؛ يعني النفعَ في الدُّنيا والآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ } ؛ أي عند نَحرها ، وصَوَافَّ جمعُ الصَّافَّةِ وهي القائمةُ على ثلاثِ قوائم قد عُقلت ، وكذا السُّنة في الإبلِ ، ومعنى الآية : فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ على نَحْرِهَا قِيَاماً معقولة إحدى يدَيها وهي اليُسرى. وعن يحيى بن سالِم قال : (رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ وَهُوَ يَنْحَرُ بَدَنَتَهُ ، فَنَحَرَهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ مَعْقُولةٌ إحْدَى يَدَيْهَا) يعني اليسرى.

وروِيَ عن ابنِ مسعود كان يقولُ : (صَوَافَّن) بالنون وهي المعقولةُ ، مِن قولِهم : صَفَنَ الفرسُ إذا قامَ على ثلاثِ قوائم ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ }[ص : ٣١]. وقرأ الحسنُ ومجاهد : (صَوَافِي) بالياء أي صافيَةً خالصةً لله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا } ؛ أي سَقَطَتْ بعدَ النحرِ ، فوضعت جنوبُها على الأرضِ وخرجت روحُها ، { فَكُلُواْ مِنْهَا } ؛ ولا يجوزُ الأكلُ من البُدْنِ إلاّ بعد خروجِ الروح ، لأن ما بينَ عن الحيِّ فهو ميتٌ. وأصلُ الوُجُوب الوُقُوعُ ، ومنه وَجَبَتِ الشمسُ إذى وقعت في الْمَغِيْب ، ووجبَ الحائطُ إذا وقعَ ، ووجبَ القلبُ إذا وقعَ فيه الفزعُ ، ووجبَ الفِعلُ إذا وجبَ ما يلزمُ به فعله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلُواْ مِنْهَا } أمَرْنا بإباحةٍ ورُخْصَةٍ مثلُ قوله : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ }[المائدة : ٢] ، وقولهِ تعالى{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ }[الجمعة : ١٠].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } ؛ اختلَفُوا في معناها ، فرُوِيَ عن ابنِ عبَّاس ومجاهد : (أنَّ

الْقَانِعَ هُوَ الَّذِي يَقْنَعُ وَيَرْضَى بمَا عِنْدَهُ وَلاَ يَسْأَلُ ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِضُ لَكَ أنْ تُطْعِمَهُ مِنَ اللَّحْمِ) ، يقالُ : قَنَعَ قَنَاعَةً إذا رَضِيَ قانع ، وعَرَاهُ واعْتَرَاهُ إذا سألَهُ ، وكذلك قال عكرمةُ وقتادة : (إنَّ الْقَانِعَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الْجَالِسُ فِي بَيْتِهِ ، وَالْمُعْتَرَّ السَّائِلُ الَّذِي يَعْتَرِيْكَ وَيَسْأَلُكَ).

قال سعيدُ بن جبير والكلبيُّ : (الْقَانِعُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ ، وَالْمُعْتَرُّ هُوَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ ويُرِيكَ نَفْسَهُ وَلاَ يَسْأَلُكَ) ، فعلى هذا يكون القانعُ من القُنُوعِ وهو السُّؤالُ ، يقال منه : قَنَعَ الرجلُ يَقْنَعُ إذا ذهبَ يسأل ، مثل ذهبَ فهو قانعٌ. قال الشمَّاخُ : كَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنَى مَفَاقِرَهُ أعَفُّ مِنَ الْقَنُوعِأي من السُّؤال.

وقال زيدُ بن أسلمَ : (الْقَانِعُ هَوَ الْمِسْكِيْنُ الَّذِي يَطُوفُ فَيَسْأَلُ ، وَالْمُعْتَرُّ الصَّدِيْقُ الزَّائِرُ ، وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَعْتَرِي الْقَوْمَ لِلَحْمِهِمْ وَلَيْسَ بمِسْكِيْنٍ إلاَّ أنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ ذبيْحَةٌ ، يَأْتِي الْقَوْمَ لأَجْلِ لَحْمِهِمْ).

وقرأ الحسنُ : (وَالْمُعْتَرِي) بالياء من قولِهم : اعْتَرَاهُ إذا غَشِيَهُ لحاجته. وروى عطاءٌ عن ابن عبَّاس : (أنَّ الْقَانِعَ الَّذِي يَسْأَلُ ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَأْتِيْكَ بالسَّلاَمِ ، وَيُرِيْكَ وَجْهَهُ ، وَلاَ يَسْأَلُ) ، وعن مجاهد : (أنَّ الْقَانِعَ جَارُكَ الْغَنِيُّ ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِيْكَ مِنَ النَّاسِ).

فعلى هذا تقتضي الآيةُ : أن المستحبَّ أنْ يتصدَّقَ بالثُّلُثِ ؛ لأن في الآيةِ أمرٌ بالأكلِ وإعطاءِ الغنيِّ وإعطاءِ الفقير السائلِ. " وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ في الحرمِ : " الأَضَاحِي كُلُوا وَادَّخِرُواْ " وقال تعالى : { فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ }[الحج : ٢٨] ، فإذا جَمعت بين الآية والخبر جُعِلَ الثلثُ للصدقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ أي مِثْلَ ما وَصَفْنَا من نَحرِها وقيامها سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ؛ أي ذلَّلْنَاهَا لكم ؛ لتتمكَّنوا من نحرِها على الوجهِ الْمَسْنُونِ ؛ لكي تَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

قولهُ تعالى : { لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَـاكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ } قال الكلبيُّ : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْحَرُونَ الْبُدْنَ لِلأَصْنَامِ وَيُلَطِّخُونَ الْبَيْتَ بدِمَائِهَا قُرْبَةً إلَى اللهِ فَنَهَى عن ذلِكَ). والمعنى : لن يرفعَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يُرفَعُ إلى اللهِ منكمُ الأعمالُ الصالحة والتَّقْوَى ، وهو ما أُرِيْدَ به وجهه الكريم.

ويقالُ : إنَّما لاَ يَتَقَبَّلُ الله اللحومَ والدماء لأنها فعلُ الله ، ولكن يتقبلُ التقوى الذي هو فِعْلُ العبدِ ، فيوجبُ الثوابَ على ذلك ، والمعنى : لن يتقبَّلَ اللهُ اللحومَ والدماء اذا كانت من غيرِ تقوى ، وإنَّما

يتقبَّلُ منكم التقوَى والطاعةَ في ما أمرَكم به ، بالنيَّة والإخلاصِ به.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } ؛ أي ذلَّلَهَا لكم ، { لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ } ؛ أي لِتُعَظِّمُوهُ ، { عَلَى مَا هَدَاكُمْ } ؛ لِدِيْنِهِ ، { وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } ؛ بالجنَّة يعني الموحِّدين المخلصين. ويقالُ : معنى قوله { عَلَى مَا هَدَاكُمْ } يعني ما بَيَّنَ لكم وأرشَدَكم لِمَعَالِمِ دِيْنِهِ ومناسكِ حَجِّهِ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي إذا ما أُمِرْتُمْ فَعَلْتُمْ به وخالَفْتُم فعلَ الجاهليَّة في نَحْرِهِمْ وإشراكِهم بالله ، فإن اللهَ يدفعُ عنكم غَائِلَةِ المشركينَ وأذاهُم وينصركم عليهم ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } أي لا يحبُّ كلَّ مُظْهِرٍ للنصيحة مُضْمِرٍ للغشِّ والنِّفاقِ كافر بالله وبنعمتِهِ.
قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ الَّذِيْنَ خَانُواْ اللهَ بأنْ جَعَلُواْ مَعَهُ شَرِيْكاً وَكَفَرُواْ نِعَمَهُ) ، قال الزجَّاجُ : (مَنْ ذَكَرَ غَيْرَ اسْمِ اللهِ وَتَقَرَّبَ إلَى الأَصْنَامِ بذبيْحَتِهِ فَهُوَ خَوَّانٌ كَفُورٌ) ، قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثير : (يَدْفَعُ) ، وقرأ الباقون : (يُدَافِعُ) ، وهو بمعنى واحدٍ.

(٠/٠)

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هَذِهِ أوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الإذْنِ بالْقِتَالِ ، أذِنَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِيْنَ الْمُهَاجِرِيْنَ أنْ يُقَاتِلُواْ كُفَّارَ مَكَّةَ بسَبَب مَا ظُلْمُواْ بأَنْ أُخْرِجُواْ مِنْ مَكَّةَ) { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } ؛ هذا وَعْدٌ لَهم بالنَصرِ.
وَقِيْلَ : كان مُشرِكُو مكَّة يؤذُونَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون مَحْزُونِينَ من " بين " مَشْجُوجٍ ومضروبٍ ، ويَشْكُونَ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولُ لَهم : " اصْبرُواْ فَإنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بالْقِتَالِ " حَتَّى هَاجَرُواْ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ بالمدينة.
قرأ نافعُ وأبو عمرٍو وعاصم : (أُذِنَ) بضمِّ الألف وكسرِ الذال ، وقرأ الباقون (أَذِنَ) بالفتح ؛ أي أَذِنَ اللهُ

لَهم ، وقوله (يُقَاتَلُونَ) ، قرأ نافع وابنُ عامر وحفص : بفتح التاء ؛ أي أذِنَ للمؤمنينَ الذين يُقَاتِلُهُمُ المشركونَ ، وقرأ الباقون بكسرِها ، يعني أَذِنَ لَهم في الجهادِ يقاتلون المشركينَ.

(٠/٠)

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ } ؛ أوَّلُ آيةٍ بَدَلٌ من { الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ } أي أخرَجَهم أهلُ مكة مِن منازلِهم بغيرِ جُرْمٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ } معناه : لَمْ يُخرِجُوهم إلاّ بأن كانوا يُوَحِّدُونَ اللهَ تعالى فأخرَجُوهم لتوحيدِهم ، المعنى : لَمْ يُخرجوهم مِن ديارهم إلاّ لقولهم رَبُّنَا اللهُ ، فيكون (أنْ) في موضع الخفضِ رداً على الباء في قولهِ { بِغَيْرِ حَقٍّ } ، ويجوز أن تكون (أنْ) في موضع نصبٍ على الاستثناء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ } ؛ أي لولا أنْ يدفعَ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِمَ في زمنٍ كلُّ شيء ما بُنِيَ للصلاةِ والعبادة نحو الصَّوامعَ ، { يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللَّهِ كَثِيراً }.

قال مجاهدُ والضحَّاك : (يَعْنِي صَوَامِعَ الرُّهْبَانِ) ، وقال قتادةُ : (الصَّوَامِعُ لِلصَّابِئِيْنَ ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدَاتُهُمْ ، وَالْبِيعُ جَمْعُ بَيْعَةٍ ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدُ النَّصَارَى ، وَالصَّلَوَاتُ هِيَ كَنَائِسُ الْيَهُودِ ، وَكَانَ الْيَهُودُ يُسَمُّونَهَا بِالْعَبْرَانِيَّةِ صَلَوَاتَا ، وَالْمَسَاجِدُ الَّتِي يُصَلِّي فِيْهَا الْمُسْلِمُونَ).

والمعنى : لولا كَفُّ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض بالجهادِ ، وكَفُّ الظُّلم لحربٍ في كلِّ شريعةٍ ، كلُّ بَنى المكان الذي يُصَلَّى فيه ، فكان لولا الدفعُ لَهُدِمَ في زمنِ موسى عليه السلام الكنائسُ ، وفي زمنِ عيسى عليه السلام الصَّوامِعُ والبيَعُ ، وفي زمن مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم المساجدُ. وعن مجاهد أنه قال : (الْبِيَعُ لِلْيَهُودِ يُسَمُّونَهَا صَلَوات) ، وقال أبو العاليةِ : (هِيَ مَسَاجِدُ لِلصَّابِئِيْنَ). فعلى هذا يكون المعنى : لَهُدِّمَتْ صوامعُ الصلواتِ. ويقال : أرادَ بالصَّلواتِ الصلوات المعهودة التي للمسلمين ، وهَدْمُهَا إبطالُها وإهلاكُ مَن يفعلُها.

والأَوْلَى أنْ يستدلَّ بهذه الآية على أنَّ هذهِ المواضعَ المذكورة التي يجري فيها اسمُ الله تعالى لا يجوزُ أن تُهْدَمَ في شريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم على كلِّ مَن كان له ذِمَّةٌ ، أو جهاد من الكفَّار ، فأما في ديارِ الحرب فيجوزُ للمسلمين هدمُها إذا فُتحت دارُهم عنوةً ، ولَم يُقَرُّوا عليها بالجزيةِ ، كما

يجوزُ هَدْمُ سائر دورِهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَهُدِّمَتْ) الْهَدْمُ هو نَقْضُ البناءِ. قرأ أهلُ الحجاز (لَهُدِمَتْ) بالتخفيف. فإن قِيْلَ : لِمَ قَدَّمَ مُصَلَّيَاتِ الكافرينَ على مساجدِ المؤمنين ؟ قِيْلَ : لأنَّها أقدمُ ، وَقِيْلَ : لقربها من الهدمِ ، وقُرب المساجد من الذِّكْرِ ، كما خُرِّجَ السَّابقُ في قولهِ تعالى{ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ }[فاطر : ٣٢] إلى قولهِ تعالى : { بِالْخَيْرَاتِ }[فاطر : ٣٢].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ } ؛ أي لَيَنْصُرَنَّ اللهُ تعالى مَنْ يَنْصُرُ دِيْنَهُ ، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } ؛ أي لَقَوِيٌّ على أخذِ الأعداء ، عَزِيْزٌ أي مُمتنعٌ بالنعمةِ منهم.

(٠/٠)

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ نعتٌ للذين يُنصرون بدِين الله ؛ أي هم الذين إنْ مكَّنَهم الله في الأرضِ ينصرُهم الله في عدوِّهم حتى يُمَكِّنُوا في البلادِ ، لَم يعملوا ما عَمِلَهُ الذين الذين مِن قبلِهم ، ولكن أقامُوا الصلاةَ المكتوبة ، { وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ } ؛ وأعطوا الزكاةَ المفروضة ، وأمَرُوا بالحقِّ ونَهَوا عن الباطلِ. قال مقاتلُ : (هُمْ أصْحَابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم) ، وقال الحسنُ : (هُمْ هَذِهِ الأُمَّةُ أهْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ). وقولهُ تعالى : { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ } ؛ بَطَلَ كلُّ مُلْكٍ سوى مُلْكِهِ ، فتصيرُ الأمور كلها إليه بلا مُنَازِعٍ ولا مُدَّعٍ.

(٠/٠)

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ } ؛ في هذه الآية تَسْلِيَةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : إنْ يُكَذِّبُوكَ – قومُكَ – فقد كَذبَتِ الأُمَمُ أنبياءهم من قبلِكَ ، وقولهُ : { وَكُذِّبَ مُوسَى } ؛ أي كَذبَهُ فرعونُ ، { فَأَمْلَيْتُ

لِلْكَافِرِينَ } ؛ أي أمْهَلْتُهُمْ ، وأخَّرْتُ عقوبتَهم ، { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } ؛ بالعقوبةِ ، { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } أي فكيفَ كان إنْكَاري عليهم حتى بيدُوا أو خُرِّبَتْ قُراهم ، فأبدلتُهم بالنعمةِ نقمةً ؛ وبالكثرةِ قلَّةً ؛ وبالحياة هلاكاً. قال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ : فَأَنْكَرْتُ أبْلَغَ الإنْكَار).

(٠/٠)

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ } ؛ أي كَمْ مِن قريةٍ أهلكناها بالعذاب بكُفرِهم. وقُرِىَ أهلكناها ، والاختيارُ أهْلَكْتُهَا بالتاء لقوله{ فَأَمْلَيْتُ }[الحج : ٤٤] ، قولهُ : { فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } ؛ أي ساقطةٌ على سُقُوفِهَا ، وذلك أن السَّقْفَ يقعُ قبلَ الحيطانِ ، ثم تقع الحيطان عليه ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ } ؛ أي كم بئر عطلها أربابُها وَكم من { وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } ؛ عطَّلَهُ أهلهُ. والْمَشِيْدُ هو الْمُجَصَّصُ ، والشِّيْدُ الْجُصُّ والنُّورَةُ ، ويجوزُ أن يكون معنى الْمَشِيْدِ الرفيعُ ، يقال : شادَ البناءَ وأشَادَهُ إذا أطْلاَهُ بالشِّيدِ.

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } ؛ أي أفَلَمْ يَسِرْ قومُكَ يا مُحَمَّدُ في أرضِ اليَمَنِ والشَّام ؛ لينظروا آثارَ الْمُهْلَكِيْنَ ، فيعقلوا بقلوبهم ما نَزَلَ بمن كَذِب من قبلهم ، ويسمَعُوا بآذانِهم خَبَرَ الأممِ الْمُكَذِّبَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَكُونَ لَهُمْ } نُصِبَ على جواب الْجَحْدِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ } ؛ الهاءُ في قوله { فَإِنَّهَا } عمادٌ ، وهو إضمارٌ على شريطةِ التفسير ، والمعنى : فإنَّ الأبصارَ لا تَعْمَى ؛ أي يَرَوْنَ بأبصارهم ، { وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } ؛ قلوبُهم بذهابها عن إدراكِ الحقِّ بما يؤدِّي إليه الدليلُ.
وفي الآية دليلٌ أنَّ العقلَ في القلب بخلاف ما قالَهُ الفلاسفةُ والأطباء : أن مَحَلَّ العقلِ الرأسُ الدماغ ؛

لأن العقلَ لو لَم يكن في القلب لَم يُوصَفِ القلبُ بأن يَعْمَى ، كما لا تُوصَفُ بذلك اليدُ والرِّجل ، وأما وصفُ القلوب بأنَّها في الصُّدور فعلى وجهِ التأكيد ، كما في قولهِ تعالى{ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم }[آل عمران : ١٦٧] ، وقولهِ{ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ }[الأنعام : ٣٨].

(٠/٠)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } ؛ أي وَيَسْتَعْجِلُونَكَ يا مُحَمَّدُ بالْعَذاب ، كما قالوا : { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَآءِ }[الشعراء : ١٨٧] ، وقالوا{ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ }[الأنفال : ٣٢] ، وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ في إنزال العذاب بهم في الدُّنيا. قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } ؛ معناهُ : إنَّهم يستعجلونَ بالعذاب ، وإنَّ يوماً من أيَّام عذابهم في الآخرةِ ألفُ سنةٍ ، فكيفَ يستعجلونه؟! قال الفرَّاء في هذه الآية : (وَعِيْدٌ لَهُمْ بالْعَذاب فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ).
وَقِيْلَ : معناهُ : وإنَّ يوماً عندَ الله وألفَ سنةٍ في قدرته لواحدٌ ، فليس تأخُّرُ العذاب عنهم إلاّ تفضُّلاً من اللهِ عليهم. قال الزجَّاجُ : (أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ شَيْءٌ ، وَإنَّ يَوْماً عِنْدَهُ وَألْفَ سَنَةٍ سَوَاءٌ ، وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ إيْقَاعِ مَا يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذاب فِي تأْخِيْرِهِ فِي الْقُدْرَةِ ، إلاَّ أنَّ اللهَ تَفَضَّلَ بالإمْهَالِ ، فَسَوَاءٌ عِنْدَهُ فِي الإمْهَالِ يَوْمٌ وَألْفُ سَنَةٍ ؛ لأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ مَتَى شَاءَ أخَذهُمْ) ، قال الكوفيُون وابنُ كثير : (مِمَّا يَعُدُّونَ) بالياء ، وقرأ الباقونَ بالتاء.

(٠/٠)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد : يا أهلَ مكَّة إنَّما أنا لكم رسولٌ مُخَوِّفٌ بالنار لِمن عصَى اللهَ بلُغَةٍ يعرفونَها ، { فَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ } ؛ لدينهم ، { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ؛ حَسَنٌ في الجنَّة.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } ؛ أي والذينَ أسْرَعُوا في تكذيب آياتِنا ، وإبْطَالِ الدين مُبالِغِين للهِ ظَانِّينَ أن يعودَنا ويفوتَنا بقولِهم أنْ لا جنةَ ولا نار ولا بعثَ ولا نشور ، { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } ؛ قال قتادةُ : (ظَنُّوا بجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَ اللهَ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ ، وَهَيْهَاتَ). وهذا كقولهِ{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا }[العنكبوت : ٤] ، ومَن قرأ (مُعْجِزِيْنَ) فمعناهُ : أنَّهم كانوا يُعْجِزُونَ مع مَن اتبعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أي ينسبونَهم إلى العجزِ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)

وقولهُ تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وابن جُبير والضحَّاكُ : (وذلكَ أنَّ الشيطانَ أتَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في صُورةِ جبريلَ وهو قائمٌ يصلِّي عند الكعبةِ يقرأ سورةَ{ وَالنَّجْمِ }[النجم : ١] حتَّى اذا انتهَى إلَى قولهِ تعالى{ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى }[النجم :

١٩-٢٠] ألقَى الشيطانُ على لسانه (تلكَ الغَرَانِيْقُ العُلى منها الشفاعةُ ترتَجى) ، فلما سمعَ المشركون أعجبَهم ذلك ، فلما انتهى إلى آخرِ السورة سَجَدَ ، وسَجَدَ معه المسلمون والمشركونَ إلاّ الوليدَ بن المغيرة ، فإنه لَم يقدر على السُّجود لكِبَرِهِ ، فقال : ائتوني بالتُّراب ، فأتوهُ بالتراب فوضعَهُ على كَفِّهِ ، ثم سجد على كفِّه ، فلما نزلَ جبريلُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ذكَرَ له ذلكَ ، فقال جبريلُ : ما جئتُكَ بهذه ولا أنزلَهُ اللهُ تعالى ، فقالَ : أتاني شيءٌ في مثلِ صورتِكَ فألقاهُ علَيَّ).

وهذا حَدِيْثٌ أنْكَرَ أهْلُ الْعِلْمِ إجْرَاءَهُ على ظاهرِهِ ، وقالوا : كيفَ يجوزُ أن يجعلَ اللهَ للشيطانِ على رسولِهِ هذا السلطانَ ، أوَ يختارُ لرسالته مَن لا يُمَيِّزُ بين وحيِ الله ووساوسِ الشَّيطان؟! ومِن المعلوم أن مَن نَسَبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم به إلى ما يرجعُ إلى تعظيمِ الأصنام فقد كَفَرَ ، إلاّ أنه يحتملُ أن يكون الشيطانُ ألقَى في تلاوةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما لَم يَقُلْهُ ، وخُيِّلَ إلى مَن سَمع تلاوتَهُ مِن الذين كانوا بالبُعْدِ منهُ أنه جرَى على لسانهِ ، وإنَّما هو من لسانِ الشيطان ، وكان ذلك فتنةً للتابعين ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَعْصُوماً مِن أن يَجْرِيَ على لسانهِ ما لَم يُنْزِلْهُ اللهُ. وقد يُذْكَرُ التَّمَنِّي ويرادُ به القراءةُ كما قال الشاعر : تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لاَقِي حِمَامَ الْمَقَادِروقال جماعةٌ من المفسِّرين : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حَريصاً على إيْمان قومهِ ، وتَمنَّى في نفسهِ مِن الله أن يأتيه ما يقاربُ بينه وبين قومهِ ، فجلسَ ذات مرَّة بهم في مجلسٍ كثيرٌ أهلهُ ، وأحبَّ يومئذ أن يأتيه من اللهِ شيءٌ فقرأ عليهم سُورة النَّجْمِ ، فلما بَلَغَ{ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى }[النجم : ١٩-٢٠] ألقَى الشيطانُ على لسانهِ (تلك الغرانيقُ العلى وأن شفاعتهم ترتجى) فلما سَمعت قريشُ ذلك فرِحُوا وقالوا : قد ذكرَ مُحَمَّدٌ آلِهَتنا بأحسنِ الذكر ، ومضَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم في قراءتهِ ، فلما خَتَمَ السورةَ سَجَدَ في آخرِها وسجدَ معه المسلمون والمشركون إلاّ الوليدَ بن المغيرةِ وسعيدَ بن العاص فإنَّهما أخذا حفنةً من البطحاءِ ورفَعَاها إلى جبهَتِهما وسجدا عليها ؛ لأنَّهما كانا شَيخين كبيرين لَم يستطيعا أن يسجُدَا.

(٠/٠)

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } ؛ أي ليجعلَ ما يُلقي الشيطانُ في قراءتهِ فتنةً للذين في قلوبهم شَكٌّ ونفاقٌ ؛ لأنَّهم افْتُتِنُوا بما سَمعوا فازدادوا عُتُوّاً ، وظَنُّوا أن مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يقولُ الشيءَ مِن عند نفسهِ فيبطلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ } ؛ يعني المشركينَ كذلك ازدَادُوا فتنةً وضلالة وتكذيباً ، سَمَّاهم قاسيةً قلوبُهم ؛ لأنَّها لا تلينُ لتوحيدِ الله ، وقولهُ تعالى : { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ } ؛ يعني أهلَ مكَّة ، { لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } ؛ أي مشاقَّةٍ بعيدةٍ عن الحقِّ.

(٠/٠)

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ } ؛ معناه : ولِيَعْلَمَ المؤمنون رُجُوعَكَ إلى الصواب ، إنَّ ذلك حقٌّ من ربكَ فتخضعَ وتَذِلَّ لهُ قلوبُهم. وَقِيْلَ : معناهُ : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ التوحيدَ والقُرْآنَ.
قال السديُّ : (التَّصْدِيْقُ أَنَّهُ الْحَقُّ) أي إنَّ نَسْخَ ذلك وإبطالَهُ حقٌّ من اللهِ ، { فَيُؤْمِنُواْ بِهِ } ؛ وتصديقِ النَّسْخِ ، { فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } ؛ أي تَرِقَّ قلوبُهم للقُرْآنِ فينقَادُوا لأحكامه ، بخلافِ المشركين الذين قِيْلَ : لهم{ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ }[الحج : ٥٣].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ فيه بيانُ هذا الايْمَانَ والإخْبَاتَ إنَّما هو بلُطْفِ الله وهدايته إياهم ، والمعنى : وإنَّ اللهَ لَهَادِيْهِمْ إلى دينٍ يرضاهُ.

(٠/٠)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ } ؛ أي في شَكٍّ من القُرْآنِ ، { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } ؛ يعني سَاعَةَ موتِهم ، { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } ؛ يعني يوم بَدْرٍ في قولِ ابن عباس وقتادة ومجاهد ، سَمَّاهُ اللهُ العقيمَ الذي لا يأتي بخير. وَقِيْلَ : يومُ القيامةِ سَمَّاهُ الله عَقِيْماً لأنه لا مِثَالَ له في عِظَمِ أمرِهِ.

(٠/٠)

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ } ؛ أي الْمُلْكُ يومَ القيامةِ لله تعالى من غير مُنازِعٍ ولا مُدَّعٍ ، لا يظهرُ الأمر فيه إلاَّ للهِ تعالى ، { فَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآياتِنَا فَأُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ؛ فيقضي فيه بين المؤمنينَ والكافرين بإدخالِ المؤمنين الجنَّةَ ، وإدخال الكافرين النارَ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً } ؛ معناهُ : والذين هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا من ديارِهم وأوطانِهم في طاعةِ الله من مكَّة إلى المدينةِ ، ثُم قُتِلُوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رزقاً حَسَناً وهو نعيمُ الجنة ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }.

(٠/٠)

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ } ؛ يعني به المنازلَ التي أعدَّها اللهُ لَهم في الجنَّةِ ، لَهم فيها ما تشتهي الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ ، خالدين فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ } ؛ أي لَعِيْمٌ بمصالح عباده ونيَّاتِهم ، { حَلِيمٌ } ؛ لا يُعَجِّلُ بعقوبةِ أعدائه.

(٠/٠)

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } ؛ الآيةُ ؛ أي ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنَا عليكَ ، ثم قال { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } ، { ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ } ؛ نزلت هذه الآيةُ في قومٍ من المشركين لَقُوا جماعةً من المسلمين فقَاتَلُوهُمْ في الشَّهرِ الحرام ، فنَهَاهُمُ المسلمونَ عن ذلك فَأَبَوا ، فلما أبَوْا قاتَلَهم المسلمون فنُصِرُوا ؛ أي ومَن عاقبَ بالقتالِ بمثل ما عُوقِبَ بهِ ؛ أي بالقتالِ في الشهر الحرامِ ثُم بُغِيَ على الدافعِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ على مَن بَغَى عليه ، { إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ } ؛ أي متجاوزٌ عن مَن فاتَ { غَفُورٌ } ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } ؛ أي ذلك النصرُ بأنه القادرُ على ما يشاء ، فمِن قدرتِهِ أنه يُولِجُ الليلَ في النهارِ ، { وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } ؛ أي سَمِيْعٌ لِمَنْ دعاهُ بَصِيْرٌ بعبادِهِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } ؛ أي ذلك الذي نَقَلْتُهُ من نُصْرَةِ المؤمنين بأنَّ اللهَ ذو الحقِّ في فعله وقدرتِهِ ، { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ } ؛ المشركونَ ؛ { مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ } ؛ ليس فيه نفعٌ ولا ضررٌ ، { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ } ؛ على كلِّ شيءٍ بقدرتِهِ ، { الْكَبِيرُ } ؛ الذي يَصْغُرُ كلُّ شيءٍ سِوَاهُ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً } ؛ أي أَلَم تَعْلَمْ وتشاهد أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ؛ يعني المطرَ ، فتُصْبِحُ الأرضُ ذاتَ خُضرةٍ بالنبات ، { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } ؛ بأرزاقِ عباده واستخراجِ النبات من الأرض ، { خَبِيرٌ } ؛ بما في قلوب العباد وبما يصلحُ لَهم.

(٠/٠)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ عَبْداً ومَلِكاً ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ } ؛ عن عبادِهِ ، { الْحَمِيدُ } ؛ إلَى أوليائِهِ وأهلِ طاعته ، وَقِيْلَ : الْغَنِيُّ عن إيْمانِ الخلق وطاعتهم ، الْمَحْمُودُ في أفعالِهِ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ } ؛ أي أَلَم تَعْلَمْ أنَّ الله ذلَّلَ لكم مَا فِي الأَرْضِ ؛ يعني البهائمَ التي تُرْكَبُ ، وَسَخَّرَ لكم { وَالْفُلْكَ } ؛ أي السُّفُنَ ؛ { تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } ؛ أي حَبَسَ عنكم السَّماءَ حتى لا تقعَ عليكم فتهلِكُوا. { إِلاَّ بِإِذْنِهِ } أي إلاّ بإرادتِهِ ، { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي مُتَفَضِّلٌ على عبادِهِ ، مُنْعِمٌ عليهم.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } ؛ أي أحيَاكُم في أرحامِ أمَّهَاتِكم ، ولَم تكونوا شيئاً. وَقِيْلَ : معناهُ : أحياكُم بعدَ أن كنتم نطفةً ميتة ، ثُم يُميتُكم بعدَ إنقضاء آجالِكم ، ثُم يحييكم بعدَ الموتِ عند البعث للحساب ، { إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } ؛ يعني الْمُشْرِكَ الجحودَ لِنعَمِ الله حتى تَرَكَ توحيدَهُ بعد ظهور الآيات الداعية إلى الحقِّ.

(٠/٠)

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ } ؛ أي لكلِّ أهلِ دِين جعلنا شَريعةً هم عاملون بها ، وَقِيْلَ : مَوْضِعاً تعتادُونه لعبادةِ الله ، ومَكَاناً تعيشونه وتعملون الخيرَ فيه. وَقِيْلَ : معناهُ : لكلِّ أُمَّةٍ جعلنا عِبراً. وقال قتادةُ : (مَوْضِعُ قُرْبَانٍ يَذْبَحُونَ فِيْهِ) ، وَقِيْلَ : الْمَنْسَكُ جميعُ العباداتِ التي أمرَ اللهُ بها ، كما قالَ صلى الله عليه وسلم يومَ الأضحى : " إنَّ أوَّلَ نُسُكٍ فِي يَوْمِنَا هَذا الصَّلاَةُ ثُمَّ الذبْحُ ". وَقِيْلَ : أراد بالمنسكِ في هذه الآية الْمَذْبَحَ الذي يتقرَّبون فيه بذبائحِهم إلى اللهِ تعالى ، كما جعلَ مكاناً منحراً للإنسان ؛ لأن النُّسُكَ إذا أُطْلِقَ أُريد به الذبحُ من جهة القُرْبَةِ ، كما قالَ{ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ }[البقرة : ١٩٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ } ؛ معناه : النَّهْيُ عن المنازعةِ بعد ظهورِ ما يوجبُ نَسْخَ الشرائعِ المتقدِّمة ، كما يقالُ : لا يُخَاصِمُكَ فلانٌ في هذا الأمرِ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا ينازعنَّكَ في أمرِ الذبح ، وذلك أن كفارَ قريش خَاصَمُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ في أمرِ الذبيحة ؛ وقالوا : ما لكم تأكلونَ ما قتلتُم بأيديكم ، ولا تأكلونَ ما قَتَلَهُ اللهُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي أدْعُ إلى دينِ ربكَ وطاعته إنَّكَ على هُدًى مستقيمٍ ، وَقِيْلَ : على دَلاَلَةٍ ودينٍ مستقيم. { وَإِن جَادَلُوكَ } ؛ على سبيلِ المراءِ والتَّعْنُّتِ كما يفعلهُ السفهاء ، { فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ أي إدفَعْهُم بهذا القول ، ولا تُجَادِلْ إلاّ لِتَبْيِيْنِ الحقِّ

، والمعنى : وإنْ خَاصَمُوكَ في أمرِ الذبيحةِ فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بمَا تَعْمَلُونَ مِن التكذيب فهو يُجازيكم به ، وهذا قَبْلَ الأمرِ بالقتال. وقولهُ تعالى : { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي يَقْضِي بينَكم يومَ القيامة ، { فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } من الدِّين والذبيحةِ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } ؛ أي قد عَلِمْتَ وأيقنتَ ذلك ، وهذا استفهامٌ يراد به التقريرُ ، وَقِيْلَ : معناهُ : ألَمْ تعلم يا مُحَمَّدُ أنَّ الله يعلمُ أعمالَ أهلِ السَّماء والأرضِ وأسرارَهم ؟ { إِنَّ ذلِكَ فِي كِتَابٍ } ؛ يعني ما يَجري في السَّماء والأرضِ ، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ ، { إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } ؛ أي أنَّ عِلْمَ اللهِ بجميعِ ذلكَ عليه يسيرٌ سهلٌ.

(٠/٠)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ } ؛ معناهُ : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه الأصنامَ ما لَم يُنَزِّلْ به كِتَاباً ولا حُجَّةً ، وما ليس لَهم به علمٌ أنَّها آلِهةٌ ، { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } ؛ أي ومَا للمشركين مِن مانعٍ يَمْنَعُ عذاباً عنهم ، نزلت هذه الآيةُ في أهلِ مكَّة.

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمُنْكَرَ } ؛ أي وإذا يُقْرَأُ

عليهم القُرْآنُ تَعْرِفُ في وجوهِهُمُ الإنكارَ للقُرْآن من الكراهةِ والعُبُوسِ ، { يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ؛ أي يكادون يَسْطُونَ بالمؤمنين ليَردُّوهم. وَقِيْلَ : معناهُ : يكادون يَقِعُونَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِن شدَّة الغيظِ. وَقِيْلَ : يكادون يَسْطُونَ إلى المؤمنينَ أيدِيَهم بالسُّوء. يقالُ : سَطَا فلانٌ على فلانٍ إذا تناولَهُ بالسَّطْوِ والعنف ، وأخذهُ بالشدَّة والإخافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذالِكُمُ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ أفأُخبِرُكُمْ بشَرٍّ عليكم من غَيْظِكم على التالي لآياتِ الله وهو { النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ يصيرونَ إليها ، { وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ؛ وَقِيْلَ : إنَّ الكفارَ قالوا : واللهِ ما رأينا قَوْماً أقلَّ حَظّاً منك يا أصحَابَ مُحَمَّدٍ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : قُلْ يا مُحَمَّدُ : أفأخبرُكم بشَرٍّ مِنْ ذلِكُمْ ؛ أي بشَرٍّ مما قُلْتُمْ : النارُ مَن دخلَها فحالهُ شرٌّ مِن حالنا.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ } ؛ معناهُ : يا أهلَ مكَّةَ بُيِّنَ مَثَلُ آلِهَتِكُمْ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ من الأصنامِ ، { لَن يَخْلُقُواْ } ؛ أي لن يقدِرُوا أن يخلقوا ، { ذُبَاباً } ؛ مع صُغْرِهِ وقِلَّتِهِ ، { وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ } ؛ العابدُ والمعبُودُ على ذلكَ ، وكان لَهم ثلاثُمائة وستُّون صَنَماً حولَ الكعبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا يَطْلُونَ أَصْنَامَهُمْ بالزَّعْفَرَانِ وَالْعَسَلِ ، فَيَأْتِي الذُّبَابُ فَيَحْمِلُهُ فَلاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَرِدُّوهُ مِنَ الذُّبَاب). وقال السديُّ : (كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلأَصْنَامِ طَعَاماً ، فَيَقَعُ عَلَيْهِ الذُّبَابُ فَيَأْكُلُ مِنْهُ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ إِنْقَاذَهُ مِنْهُ) فـ { ضَعُفَ الطَّالِبُ } ؛ من الأصنامِ ، { وَالْمَطْلُوبُ } ؛ هو الذبابُ. وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ ضَعُفَ الْعَابِدُ وَالْمَعْبُودُ). وَقِيْلَ : معناهُ : ضَعُفَ الذُّبابُ الطالبُ لِما يأخذهُ من الصَّنمِ ، وضَعُفَ المطلوبُ يعني الصَّنَمَ. وَقِيْلَ : ضَعُفَ الطالبُ مِن هذا الصنمِ المتقرَّب إليه ، والصنمِ المطلوب منه ذلك.

وَقِيْلَ : إن المشركينَ كانوا خَرَجُوا في عيدٍ لَهم بأصنامِهم ، وقد زيَّنُوها باليوَاقِيتِ واللآلِئ وأنواعِ الجواهر ، وطيَّبُوها بأنواع الطِّيْب وغَشَّوها بالْحُلِيِّ والْحُلَلِ ، فجاء ذبابٌ فأخذ شَطْبَةً من تلك الزِّينة – أي قِطْعَةً – فطارَ بها في الهواءِ ، فأراهم اللهُ تعالى العبرةَ في ضَعْفِهم وضعفِ معبودهم ، فلا أحدٌ مما لا يُمكنه الاستنقاذُ من الضعيفِ.

(٠/٠)

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } ؛ أي ما عَرَفُوهُ حقَّ معرفتهِ ، ولا عظَّمُوهُ حقَّ تعظيمه حيث عَدَلُوا به مَن لا يقدرُ أن يَخْلُقَ ذُباباً ، أو يستنفذ مِن ذبابٍ ما ذهبَ به منه ، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } ؛ أي قَوِيٌّ على خَلْقِهِ ، عَزِيْزٌ في مُلكه ، لا يقدرُ أحدٌ على مُغالبَتِهِ.

(٠/٠)

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً } ؛ معناهُ : اللهُ يختارُ من الملائكة رُسُلاً يعني جِبريل وميكائيلَ وإسرافيل ومَلَكَ الموتِ ، { وَمِنَ النَّاسِ } يعني من النبيِّين. أخبرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الاختيارَ إليه ، ويختارُ من يشاءُ ممن خَلَقَهُ ، فيجعلُهم رُسُلَهُ وأنبياءَهُ يبعثُهم إلى خَلْقِهِ ، فأطيعوهم واحذرُوا معصيتَهم ، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } ؛ بمقالَتِكم ، { بَصِيرٌ } ؛ بأعمالكم وضمائرِكم.

(٠/٠)

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ؛ أي يَعْلَمُ ما بين أيدِي الملائكةِ ورُسُلِهِ قَبْلَ أن يخلِقَهم ، { وَمَا خَلْفَهُمْ } أي ما يكون بعد فنائهم { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } ؛ عواقب الأمور.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ } ؛ أي صَلُّوا ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ } ؛ أي بجميعِ العبادات ، { وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ } ؛ من أنواعِ البرِّ مثل صِلَةِ الرَّحم ، وبرِّ الوالدين ، ومكارمِ الأخلاق ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ روي أنَّهم كانوا في أوَّلِ الإسلام يسجدون بغيرِ رُكوع ، حتى نزلت هذه الآيةُ.

(٠/٠)

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } ؛ أي جَاهِدُوا المشركين بحسب الطَّاقة واستفراغِها ، ولا تخافُوا في اللهِ لومةَ لائمٍ ، وقال بعضُ المفسِّرين : معناهُ : اعبدوا اللهَ حقَّ عبادتهِ وأطيعوهُ حقَّ طاعته. قال السديُّ : (هُوَ أنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى) وقال مقاتلُ : (نَسَخَتْهَا آيَةُ التَّغَابُنِ{ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }[التغابن : ١٦]) ، وَقِيْلَ : هو مجاهدةُ النَّفسِ والهوَى ، وذلك حقُّ الجهاد وهو الجهادُ الأكبر.
وقال بعضُهم : هو حقُّ الجهاد ؛ لِمَا " رُوي عن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال حينَ رجعَ من بعضِ غزواته : " رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ ". وقال بعضُهم : في حقِّ الجهاد أنه " كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ". وقال الحسنُ : (هُوَ أنْ تُؤَدِّيَ جَمِيْعَ مَا أمَرَكَ اللهُ بِهِ ، وَتَجْتَنِبَ جَمِيْعَ مَا نَهَاكَ اللهُ عَنْهُ ، وَتَتْرُكَ رَغْبَةَ الدُّنْيَا). وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ : جَهِدُوا بالسَّيْفِ مَنْ كَفَرَ باللهِ ، وَإِنْ كَانُواْ الآبَاءَ وَالأَبْنَاءَ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } ؛ أي اختاركم لدِينه وجهادِ أعدائه ، والاجْتِبَاءُ : هو اختيار الشَّيء بمَا فِيْهِ مِنَ الصَّلاَحِ ، يقال : الحقُّ يُجْتَبَى ، والباطلُ يُتَّقَى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ؛ أي جعلَ عليكُم في شرائعِ دِينكم من ضِيْقٍ ، وذلك أنه ما يتخلَّص منه بالتوبةِ ، وما يتخلَّص منه برَدِّ المظلمةِ ، ويتخلصُ منه بالقصاصِ ، وليس في دِين الإسلام ما لا سبيلَ إلى الخلاصِ من العقاب به ، بل مَن أَذنبَ ذنباً جعلَ اللهُ له مَخرجاً منه بالتوبةِ والكفَّارات ، ولَم يبقَ في ضِيْقِ ذلك الذنب. وقال مجاهدُ : (يَعْنِي الرُّخَصَ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ كَالْقَصْرِ ؛ وَالتَّيَمُّمِ ؛ وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ ؛ وَالإِفْطَارِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } ؛ أي إلْزَمُوا واتَّبعُوا مِلَّتَهُ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وَسَّعَ عليكم في الدِّين كَمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ ، إلاّ أنه لَمَّا حَذفَ حرفَ الجرِّ نصبَ الْمِلَّةَ ، وإنَّما أمَرَ باتِّباع ملَّة إبراهيمَ ؛ لأنَّها داخلةً في مِلَّةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وإنَّما قال : (أبيْكُمْ إبْرَاهِيْمَ) وإن لَم يكن جميعُهم من نَسَبِهِ ؛ لأن حرمةَ إبراهيمَ عليه السلام على المسلمين كحرمةِ الوالدِ على الولد ، وحَقَّهُ كحقِّ الوالدِ ، كما قال تعالى : { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }[الأحزاب : ٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ } ؛ نزولِ القُرْآنِ ، { وَفِي هَاذَا } ؛ القُرْآنِ ، كما رُوي أنَّ الله تعالى أوحَى إلى إبراهيمَ : يُبْعَثُ بعدَكَ نبيٌّ فيكون قومُهُ مسلمينَ. وَقِيْلَ : معناهُ : إن إبراهيمَ سَمَّاكم المسلمينَ ، كما قال في دعائهِ{ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }[البقرة : ١٢٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ } ؛ أي لِيَكونَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم شَهيداً عليكم يومَ القيامة بطاعةِ مَن أطاعَ في تبليغه ، وعِصيَانِ مَن عَصَى ، { وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } ؛ أنَّ الرُّسُلَ بلَّغتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ } ؛ أي أدُّوهُما كما وَجَبَتا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ } ؛ أي واعتَصِمُوا بدينِ الله وتَمسَّكوا به. وَقِيْلَ : معناهُ : اتَّقُوا باللهِ وتوكَّلوا عليهِ ، { هُوَ مَوْلاَكُمْ } ؛ أي هو رَبُّكم وحافِظُكم ، { فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } ؛ أي فَنِعْمَ الحافظُ لكم ، ونِعْمَ الناصرُ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ ؛ أُعْطِيَ مِنْ أجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ اعْتَمَرَهَا بعَدَدِ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَر فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا يَبْقَى ".

(٠/٠)

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } ؛ أي فازَ ونَجا وسَعِدَ المصدِّقون بالله ورسولهِ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ ، فِيْهَا مَا لاَ عَيْنٌ رأتْ ؛ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ؛ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ ، قَالَ لَهَا : تَكَلَّمِي ، فَقَالَتْ : قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ – ثَلاَثاً – ثُمَّ قَالَتْ : أنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيْلٍ وَمُرَاءٍ ". قرأ طلحةُ بن مُصَرِّف : (قَدْ أُفْلِحَ الْمُؤْمِنُونَ) على الْمَجْهُولِ ؛ أي أُبْقُوا في الثواب ، وحرفُ (قَدْ) في اللُّغة لتزيينِ الكلام وتحسينه ، وَقِيْلَ : لتقريب الحالة الماضية الى الحالةِ الآتية ، فدلَّ على أن فلاحَهم قد حصلَ وهم عليه في الحالِ ، وهو أبلغُ في الصِّفة من تجريدِ ذكر الفعل ، والفَلاَحُ هو البقاءُ والنجاح.

(٠/٠)

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ } ؛ أي مُتواضِعُون خائفون ، ويقالُ : سَاكِنُونَ بالقلب والجوارح فلا يَلْتَفِتُونَ يَميناً ولا شِمالاً ، كما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ رَأى رَجُلاً يَعبَثُ بلِحْيَتِهِ فِي الصَّلاَةِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَلَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ " وعنه صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ كَانَ إذا وَقَفَ فِي الصَّلاَةِ رَفَعَ بَصَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ جعل نَظَرَهُ إلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ ". وحقيقة الخشوع : هو جَمْعُ الْهِمَّةِ لتدبُّر الأفعال والأذكارِ.

وعن الحسن أنه قال : (إنَّ الْخَاشِعِيْنَ هُمْ الَّذِيْنَ لاَ يَرْفَعُونَ أيْدِيَهُمْ فِي الصَّلاَةِ إلاَّ فِي التَّكْبِيْرَةِ الأُوْلَى) وقال ابنِ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { خَاشِعُونَ } أيْ أذِلاَّءُ) ، وقال مجاهدُ : الْخُشُوعُ هُوَ غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ). وكان الرجلُ من العلماءِ إذا قامَ إلى الصلاةِ يخافُ الرحمنَ أن يُسْنِدَ بصرَهُ إلى شيءٍ ، وأن يُحَدِّثَ نفسَهُ بشيءٍ من الدُّنيا. وقال عمرُو بن دينارٍ : (لَيْسَ الْخُشُوعُ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ ، وَلَكِنَّهُ السُّكُونُ وَحُسْنُ الْهَيْئَةِ فِي الصَّلاَةِ).

وقال عطاءُ : (هُوَ أنْ لاَ تَعْبَثَ بشَيْءٍ مِنْ جَسَدِكَ فِي الصَّلاَةِ) ، وعن أبي ذرٍّ قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قَامَ أحَدُكُمْ إلَى الصَّلاَةِ فَإنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ ، فَلاَ يُحَرِّكَنَّ الْحَصَى ". وَقِيْلَ : نظرَ الْحَسَنُ إلى رجلٍ يعبثُ ويقول : اللهم زوِّجني مِن الْحُور العِيْنِ ، فقال لهُ الحسنُ : (بئْسَ الْخَاطِبُ أنْتَ ، تَخْطُبُ وَأنْتَ تَعْبَثُ). وقال قتادةُ : (الْخُشُوعُ هُوَ وَضْعُ الْيَمِيْنِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلاَةِ). وقال بعضُهم : (هُوَ جَمْعُ الْهِمَّةِ لَهَا وَالإعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُّعْرِضُونَ } ؛ قال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : عَنِ الْمَعَاصِي مُعْرِضُونَ) ، وقال الزجَّاج : (اللَّغْوُ هُوَ كُلُّ بَاطِلٍ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ وَهَزْلٍ). وقيل : اللَّغْوُ الذي يُعرِضون عنه : هو كلُّ ما لا فائدةَ فيه ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً }[الفرقان : ٧٢] أي شَغَلَهُمُ الْجِدُّ فيما

أمرَهم اللهُ به عن كلِّ باطلٍ ولَهوٍ ولعب ، وعن كلِّ ما لا فائدةَ فيهِ من قولٍ وفعل. وقال مقاتلُ : اللَّغوُ (هُوَ الشَّتْمُ وَالأَذى).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } ؛ أي مؤدُّون ، فعبَّرَ عن التأديةِ بالفعلِ لأنه فعلٌ. قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ) ، وَقِيْلَ : معناهُ : والذينَ هُم للعملِ الصالح فَاعِلُونَ ، ويدخلُ في هذا كلُّ فهلٍ يُذْكَرُ به الإنسانُ ويُحمَدُ عليهِ ، كما يقال ، : ما أعطَى اللهُ أحداً نعمةً إلاّ أوجبَ عليه فيها زكاةً ، فزكاةُ العلمِ نشرهُ وتعليمهُ ، وزكاةُ الْجَاهِ إعانةُ الملهوفِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } ؛ أي يحفظونَها عن الحرامِ ، ويغضُّون البصرَ عما لا يحلُّ لَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } ؛ أي يُلامون في إطلاقِ ما حُرِّمَ عليهم إلاّ على أزواجِهم وإمَائِهم فإنَّهم لا يُلامون فيه. قال مجاهدُ : (يُفْرَضُ عَلَى الرَّجُلِ حِفْظُ فَرْجِهِ إلاَّ مِنَ امْرَأتِهِ وَأمَتِهِ ، فَإنَّهُ لاَ يُلاَمُ عَلَى ذلِكَ).

(٠/٠)

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذلِكَ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْعَادُونَ } ؛ أي مَن طَلَبَ للوَطْئِ طريقاً سِوَى ما أحلَّ

اللهُ من النساءِ الأربع أو ما مَلكت أيْمانُهم فأولئكَ همُ الْمُجَاوزُونَ من الحلالِ إلى الحرام ، فمَن زنَى فهو عَادٍ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } ؛ أي الذين هُم لِمَا ائْتُمِنُوا عليه فيما بينَهم وبين الله وبينَ الناس حَافِظُونَ حتى يؤدُّوه على وجهِهِ. والرَّعْيُ : هو القيامُ على إصلاحِ ما يتولاَّهُ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " وقال اللهُ تعالى{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا }[النساء : ٥٨]. وقرأ ابنُ كثير : (لأَمَانَتِهِمْ) بالتَّوحيدِ لأنه مصدرٌ واسمُ جنسٍ فيقعُ على الكثيرِ ، والأمانةُ قد تكون بين العبيدِ ، كالودائعِ وأشباهِها ، وتكون بين الله وعبيدهِ كالصِّيام والاغتسال من الجنابة والصَّلاة ، فيجبُ على المؤمنينَ الوفاءُ بجميع حقوقِ الأمانات. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } يشتملُ على طاعةِ اللهِ تعالى التي يجبُ الوفاء بها ، وعلى جميعِ العقود والأيْمَانِ والنُّذورِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } ؛ أي يُوَاظِبُونَ على الصَّلواتِ ، ويجتهدون في أوقاتِها المداومون فيها بفرائِضِها وسُنَنِها وآدابها.

(٠/٠)

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفات التي ذكَرَها اللهُ من أوَّل هذه السُّورة إلى هَهُنا هُمُ الْوَارِثُونَ الذين يَرِثُونَ يومَ القيامةِ منازلَ أهلِ النَّارِ من الْجَنَّةِ التي كانت لَهم لو أطاعُوا اللهَ ورسولَهُ. قال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلاَنِ ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ".

(٠/٠)

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ الفِرْدَوْسُ في اللُّغة : هو الْبُسْتَانُ الْجَامِعُ لِمَحَاسِنِ أجْنَاسِ الْكُرُومِ وَغَيْرِهَا. وقال عكرمةُ : (الْفِرْدَوْسُ هُوَ الْجَنَّةُ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ).
وفي الحديثِ : " أنَّ حَارِثَةَ بَنَ سُرَاقَةَ قُتِلَ يوْمَ بدْرٍ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : يَا رَسُولَ اللهِ إنْ كَانَ ابْنِي مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ لَمْ أبْكِ عَلَيْهِ ، وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ النَّارِ بَالَغْتُ فِي الْبُكَاءِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : " يَا أُمَّ حَارِثَةَ! إنَّ ابْنكِ قَدْ أصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ ".
وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " " لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ " ثُمَّ قرأ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون : ١] إلى آخرِ الآيات العشرِ ". وقال مجاهدُ : (مَنْ حَفِظَ الْعَشْرَ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَرِثَ الْفِرْدَوْسَ). قال ابنُ عبَّاس : (الْفِرْدَوْسُ خَيْرُ الْجِنَانِ) ، وقالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ غَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ؛ لاَ يَدْخُلُهَا مُدْمِنُ خَمْرٍ وَدَيُّوثٌ " قَالُواْ : مَا الدَّيُّوثُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " الَّذِي يَرْضَى الْفَوَاحِشَ لأَهْلِهِ ".

(٠/٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ } ؛ أي خلقنا آدمَ من سُلالة سُلَّتْ مِن طينٍ ، والسُّلاَلَةُ : ما سُلَّ مِن الشيءِ ؛ أي نُزِعَ واسْتُخْرِجَ منهُ ، يقالُ للنُّطفةِ : سُلاَلَةٌ ، والولدُ سَلِيْلٌ وسُلاَلَةٌ.
قال مجاهدُ : (السُّلاَلَةُ مَنِيُّ بَنِي آدَمَ) ، وقال عكرمةُ : (هُوَ الْمَاءُ سُلَّ مِنَ الظَّهْرِ سَلاًّ) ، والمرادُ

بالانسانِ وَلَدُ آدمَ ، وهو اسمُ جِنْسٍ يقعُ على الجميعِ. والمعنى : خَلَقْنَا ابْنَ آدَمَ من سُلالةٍ مِن طينٍ ؛ أي من صَفْوَةِ ماء آدم الذي هو من طينٍ.

(٠/٠)

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } ؛ ثُم خلقنا ولدَ آدمَ من نُطفة في موضعٍ حرير يعني الرَّحِمَ ، مَكَنَ فيه الماءُ بأن هُيِّأَ لاستقرارِهِ فيه إلى بُلوغِ أمره الذي جُعِلَ لَهُ. وإنَّما سُمي الْمَنِيُّ سُلاَلَةً ؛ لأنه سُلَّ من أصلاب الرجل وتَرائِب النِّساءِ ، ثُم يكون قرارهُ في أرحامِ الأمَّهاتِ.

(٠/٠)

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً } ؛ أي صَيَّرْنَا النطفةَ دَماً منعَقِداً ، ثم صيَّرنا الدمَ لَحماً بلا عظمٍ ، والْمُضْغَةُ : هي القطعةُ الصغيرة من اللَّحم. وقولهُ تعالى : { فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً } ؛ أي حولنا المضغة عظاماً ، { فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً } ؛ أي ثم ألبسنا العظام لحماً ؛ ليكون أبهى في النظر وليكون اللحم وقاية للعظم. وقرأ ابن عامر : (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظْماً فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْماً).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ } ؛ بأنْ جعلنا فيه الرُّوحَ بعد أن لَم يكن ، ثُم جعلناه ذكَراً أو أُنْثَى إلى أن أعطيناهُ الفهمَ والتمييز ليأخذ ثَدْيَ أمِّهِ عند الحاجةِ فيرتضعُ ويشتكي إذا تَضَرَّرَ بشيءٍ. وقال مجاهدُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ : { ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ } يَعْنِي سَوَّيْنَا شَبَابَهُ). وقال قتادةُ : (يَعْنِي أَنْبَتْنَا شَعْرَهُ وَأَسْنَانَهُ). وَقِيْلَ : معناهُ : أعطيناهُ العقلَ والقوَّةَ والفهمَ ، ورَبَّيْنَاهُ حالاً بعد حالٍ إلى أن بلغَ أن يتقلَّبَ في البلادِ.
وَقِيْلَ : إذا اجتمعَ الماءُ المتخلِّقُ منه الولدُ ، فأولُ الحالاتِ أن يزيدَ ، ثُم يستحيلُ ذلك الماءُ علقةً ، وهو دمٌ غبيطٌ ، ثُم يصيرُ مُضغةً ، وفي تلك الحالةِ تظهرُ الأعضاءُ النَّفِيْسَةُ كالقلب والدِّماغ والكبدِ ، فالقلبُ أول عُضْوٍ مكّوَّنٍ ثُم الدماغُ ثُم الكبد ، ثُم يُنَحَّى بعضُها عن بعضٍ ، وتخطَّطُ الأطرافُ ، ثُم

يصير لَحماً على عِظَامٍ ، وعظامُ البَدَنِ مائتان وأربعونَ عَظْماً ، فإذا نُفِخَ فيه الروحُ لأربعةَ أشْهُرٍ انقسمَ دمُ الحيضِ ثلاثةَ أقسامٍ : قسمٌ يتغذى به الولدُ ، وقسم يَحْتَبسُ إلى النِّفَاسِ ، وقسمٌ يصعدُ إلى الثَّدي.
وإنَّما ينفخُ الرُّوحُ في الجنينِ لأربعةِ أشهُرٍ ؛ لأنه يكون نطفةً أربعين يوماً ، ثُم يكون علقةً أربعين يوماً ، ثُم يصير مضغةً أربعين يوماً ، ثُم ينفخُ فيه الرُّوحُ. ويكون الولدُ في بطنِ أُمِّهِ معتمداً على رجليه وراحة يدَيه على رُكبتيه وظهرهُ إلى وجهِ الأم ، ووجههُ إلى ظهرِها حتى لا تتأذى الأمُّ بنَفَسِهِ.
وإنَّما خَلَقَ اللهُ عَيْنَيْهِ في رأسهِ لتكونُ مشرفةً على جميعِ الأعضاء في الجهات كلها ، كالطَّليعةِ للعسكرِ ، وأصلحُ المواضع للطلائعِ المكانُ الْمُشْرِفُ ، وجعلَهُما في كَهْفَين حراسةً لَهما وتوفيراً لضوئِهما ، وجعلَ لَهما الْهُدُبَ ليدفعَ ما نظر إليهما.
وخلقَ اللهُ الأنفَ لينحصرَ فيه الهواءُ الْمُسْتَنْشَقُ لترويحِ الرِّئة والدماغ. وخلقَ الفَمَ وعاءً لجميعِ الكلام ، وخلقَ اللِّسان آلةً للنُّطقِ ، ولتقليب الطعام الممضوغِ ، والمضغُ يكون في جانِبَي الفمِ حراسةً لأداةِ النُّطق. وخلقَ الشَّفَتين غطاءً للفمِ والأسنانِ ، ويَحْجُبَ اللُّعَابَ ، ومُعيناً على الكلامِ ، وجَمالاً في الصُّورة ، والأسنانُ تُقَطِّعُ ؛ والأنيابُ تكسرُ ؛ والأضراسُ تطحَنُ. وخصَّ الفكَّ الأسفلَ بالتحريكِ ؛ لأن تحريكَ الأخفِّ أحسنُ ، لأن الأعلى يشتملُ على الأعضاءِ الشَّريفة فلم يُخاطرها في الحركةِ ؛ لأن الحركةَ تُضْعِفُهَا. وجعلَ ماءَ الأُذُنِ مُرّاً لئلاَّ يقيمَ فيه الْهَوَامُ ، فإذا دخلَ الأُذُنَ دابَّةً لَم يكن لَها هَمٌّ إلاّ الخروجَ. وجعلَ ماءَ العين مالحاً لئلاَّ يذوبَ ، وجعل ماءَ الفمِ عَذِباً ليُطَيِّبَ طعمَ الطعام.

(٠/٠)

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ } ؛ أي بعدَ الحياة والْخَلْقِ الْحَسْنِ والصُّورة الحسنة مَيِّتُونَ عند انقضاءِ آجَالِكُمْ. قرأ أشهبُ العقيليُّ : (لَمَائِتُونَ) بالألفِ ، والْمَيِّتُ وَالْمَائِتُ الذي لَم تفارقهُ الروحُ وهو سيموتُ ، والْمَيْتُ بالتخفيفِ الذي فارقَهُ الروحُ ، فلذلكَ لَم يخفَّف كقول{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ }[الزمر : ٣٠]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } ؛ يعني مِن قُبورِكم للجزاء والحساب.

(٠/٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ } ؛ أي سبعَ سَمواتٍ ، سُميت طرائقَ ؛ لأن كل شيء فوقَ شيء فهو طريقةٌ ، يقالُ : طَارَقْتُ نَعْلِي إذا جعلتُ جِلداً فوقَ جلدٍ. ويقالُ : سُميت طرائقُ لأنَّها طُرُقُ الملائكةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } ؛ أي وما كُنَّا عن حِفْظِ السَّموات ، وعن إنزالِ المطر على العبادِ وقتَ الحاجةِ غافلينَ ، ولو جَازَتِ الغفلةُ لَسَقَطَتِ السَّمواتُ بعضُها على بعضٍ.

(٠/٠)

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ } ؛ أي أنزلنا المطرَ من السَّماء بقدر الحاجةِ إليه ؛ أي بقَدْر ما يكفيهم للمعيشةِ ، وَقِيْلَ : بقدرٍ يعلمهُ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ } أي جعلنا سُكْنَاهُ ومستقرُّهُ في الأرضِ مثل العيون والغُدْرَانِ والرَّكَايَا. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْجَنَّةِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ : سِيْحُون وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ ، وَجِيْحُونُ وَهُوَ نَهْرُ بَلَخ ، وَدِجْلَةُ وَالْفُرَاتُ وَهُمَا نَهْرا الْعِرَاقِ ، وَالنِّيْلُ وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ ، أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَاحَي جِبْرِيْلَ. وَذلِكَ قَوْلُهُ { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ }. فَإذا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَرْسَلَ اللهُ جِبْرِيْلَ فَرَفَعَ مِنَ الأَرْضِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ الأَسْوَدَ وَهَذِهِ الأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ ، فَيَرْفَعُ ذلِكَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } ؛ فَإذا رُفِعَتْ هَذِهِ الأَشْيَاءُ فَقَدَ أَهْلُهَا خَيْرَ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا ".

(٠/٠)

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } ؛ أي أخرَجنا لكم بذلك المطرِ بساتينَ من نخيلٍ وكرومٍ ، وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها أشرفُ الثِّمار ، وقولهُ تعالى : { لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ } ؛ سِوَى النخيلِ والأعناب ، { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ؛ بإباحةِ الله لكم تأكلونَها صيفاً وشِتاءً.

(٠/٠)

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ } ؛ أي وأنْبَتْنَا بذلكَ المطرِ شجرةً وهي الزيتونةُ تخرجُ من جبلِ سَيْنَاءَ للبركةِ ، كأنه قالَ : من جبلِ البركةِ. وقُرِئَ (طُورِ سَيْنَاءَ) بفتح السِّين. واختلفُوا في المرادِ بالطُّورِ ، قال بعضُهم : هذا الجبلُ الذي نادَى موسَى ربَّهُ عندَهُ. يقالُ : إن أصلَ شجرةِ الزيتون من ذلكَ الجبلِ ؛ أي أوَّلُ ما غُرِسَتْ فيه. وقال بعضُهم : هو جبلٌ بالشَّام كثيرُ الأشجارِ والأثْمارِ. وَقِيْلَ عن الزيتونةِ : أولُ شجرةٍ نَبَتَتْ في الأرضِ بعد الطُّوفانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ } ؛ قرأ أكثرُ القرَّاءِ (تَنْبُتُ) بفتح التاءِ وضمِّ الباء ؛ أي تنبتُ بثمار الدُّهن يعني الزَّيْتَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بضمِّ التاءِ وكسرِ الباء ، ومعناهُ معنى الأولِ. والباءُ في قولهِ تعالى (بالدُّهْنِ) للتعدِّي ، يقالُ : أنْبَتَهُ وَنَبَتَ بهِ ، وَنَبَتَ الشَّيْءُ وَأنْبَتَ بمعنى واحدٍ ، قال الشاعرُ : رَأيْتُ ذوي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيْناً لَهُمْ حَتَّى إذا أنْبَتَ الْبَقْلُويجوزُ أن تكون الباءُ زائدةً على قراءةِ من ضَمَّ التاءَ ، كقوله{ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ }[البقرة : ١٩٥]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ } يعني الإدَامَ ، لأن الزيتَ إدامٌ يُصْبَغُ به الخبزُ ، يقال : صِبْغٌ وصِبَاغٌ كما يقالُ : لِبْسٌ وَلِبَاسٌ.

(٠/٠)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } ؛ أي لَعِظَةً ودلالةً على وحدانيَّتنا لو اعتبرتُم واستدلَلْتم ، { نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا } يعني اللَّبنَ ، { وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ } ؛ مِن الأولادِ والأوتارِ والأصواف والأشعارِ والرُّكوب على الإبلِ ، { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ؛ يعني لُحومَها.

(٠/٠)

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } ؛ أي تُحملون على الإبلِ في البَرِّ وعلى السُّفن في البحرِ ، وهذا كقولهِ تعالى{ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }[الاسراء : ٧٠] يقالُ : إن اللهَ تعالى جعلَ للناسِ مركَبَين ، مركباً لَيِّناً لسيرِ البَرِّ ، ومركباً يَابساً لسيرِ البحرِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } ؛ أي أرسلناهُ إليهم ليدعوَهم إلى عبادَتِنا ، { فَقَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } عبادةَ غيرِه. { فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ } ؛ أي الأشرافُ منهم والرؤساءُ قالوا لسُفائِهم : { مَا هَاذَا } ؛ الذي يدعوكُم إلى التوحيدِ ، { إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } ؛ أي آدَمِيٌّ مثلُكم ، { يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } ؛ أي يَتَقَدَّمَ عليكم بدعوَى النبُوَّةِ ليكونَ له الفضلُ عليكم فتكونوا له تَبَعاً ، { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ } ؛ أن يُرسِلَ إلينا رسولاً مِن عنده ، { لأَنزَلَ } ؛ أي لأرسلَ { مَلاَئِكَةً } ؛ مِن عنده ، { مَّا سَمِعْنَا بِهَاذَا } ؛ بمِثْلِ هذه الدَّعوةِ ، { فِي آبَآئِنَا الأَوَّلِينَ } ؛ ولا أرْسَلَ إليهم بشراً ، { إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ } ؛ أي قالوا : ما نوحُ إلاَّ رجلٌ به جُنُونٌ ، { فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّى حِينٍ } ؛ أي فانتَظِروا حتى يَموت فنستريحَ منه.
فلما يَئِسَ من إيْمانِهم ؛ { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } ؛ أي أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ وجُحُودِهم نبُوَّتِي ، والمعنى : انصُرْنِي عليهم بإهلاكِهم جَزَاءً لَهم بتكذيبهم.

(٠/٠)

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } ؛ أي وأرسَلْنا إليه جبريلَ أن يُعَلِّمَهُ صنعةَ الفُلْكِ ليصنَعَها بمرأى مِنَّا ، { فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا } ؛ بنجاتِكَ وإهلاكِهم ، { وَفَارَ التَّنُّورُ } ؛ ونبعَ الماءُ من تنُّورِ الخسارة. وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه : (أنَّ مَعْنَى قَوْلِهَ { وَفَارَ التَّنُّورُ } أيْ طَلَعَ الْفَجْرُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } ؛ أي احْمِلْ في السَّفينة من كلِّ ذكَرٍ وأُنثى ، كما رُوي أنَّ اللهَ تعالى حَشَرَ إليه جميعَ الحيواناتِ حتى أخذ مِن كلِّ جنسٍ زوجاً ، ويقرأُ (مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ) بالتنوينِ ، فعلى هذه القراءةِ يكون الفعلُ واقعاً على زوجَين ، وأما على القراءةِ الثانية فالفعلُ واقعٌ على اثنينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَهْلَكَ } ؛ معناهُ : واحمِلْ فيها أهلَكَ ، { إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } ؛ أي إلاّ من حَقَّ عليه العذابُ { مِنْهُمْ } ، لكُفْرِهِ وهو ابنهُ كنعان وامرأتهُ وأهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ } ؛ أي لا تسأَلْني نجاةَ الذين ظلَمُوا من أهلِكَ ، { إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } ؛ مع الأجانب.

(٠/٠)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } ؛ أي إذا اعتدَلْتَ في السفينة رَاكباً واستقرَّ بكَ ولِمن معكَ الفلكَ في الماءِ ، { فَقُلِ الْحَمْدُ للَّهِ } ؛ أي أحمدُ اللهَ ، { الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً } ؛ أي أنزِلْني من السَّفينة موضِعاً مُباركاً. وقال بعضُهم : أراد به الإنزالَ في السَّفينة وهو الأقربُ ؛ لأنه إنَّما أُمِرَ بهذا الدُّعاء في حال استوائهِ على السفينة ، فاقتضَى أن السفينةَ هي المنْزِلُ دون مَنْزِلٍ آخرَ.

وقرأ العامةُ (مُنْزَلاً) بضمِّ الميم على المصدرِ ؛ أي إنْزَالاً مُباركاً ، وقرأ أبو بكرٍ بفتح الميمِ وكسر الزَّاي ؛ أي مَوْضِعاً مُباركاً ، قال مقاتلُ : (يَعْنِي بالْبَرَكَةِ أَنَّهُمْ تَوَالَدُواْ وَكَثُرُوا).

وقولهُ تعالى : { وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } ؛ أي أنتَ خيرُ المنْزِلين في الدُّنيا والآخرةِ ، وهذا اللفظُ سُنَّةٌ لكلِّ مَن أرادَ أن ينْزِل منْزِلاً.

(٠/٠)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ } ؛ معناهُ : أنَّ في أمرِ نوحٍ والسَّفينة وهلاكِ أعداء الله لدلالاتٌ على قُدرةِ الله ووحدانيَّته ، { وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } أي ما كُنَّا إلاّ مُبْتَلِيْنَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم ؛ أي مختَبرين إيَّاهم كيفَ نرى طاعةَ المطيعين ومعصيةَ العاصين.

(٠/٠)

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)

وقولهُ تعالى : { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } ؛ أي ثُم خلَقْنا من بعدِ هلاك قومِ نوح قوماً آخرين يعنِي : عادًا ، { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ } ؛ يعني هُوداً عليه السلام فإنَّ أولَ نَبيٍّ بعدَ نوحٍ هُودٍ عليه السلام فقال لَهم : { أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ إلى آخرِ الآية.

(٠/٠)

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)

قولهُ تعالى : { وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخِرَةِ } ؛ أي جَحَدُوا البعثَ والنُّشور ، { وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا } ؛ أي متَّعنَاهُم في الحياةِ الدُّنيا وأعطيناهم من نَعِيْمِ العَيْشِ ووسَّعنا عليهم ونعَّمناهم ؛ أي قال أشرافُ قوم هُودٍ ورؤساؤُهم الذين جَحَدُوا بالبعثِ والنشور ومتَّعناهم في الحياةِ الدُّنيا : { مَا هَاذَا } ؛ أي ما هو { إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } ؛ أي آدميٌّ مثلُكم ، { يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } ؛ أي يأكلُ مِن الطعامِ الذي تأكلونَ منه ؛ ويشربُ مِن الذي تشربونَ ، فليس هو بأولَى بالرِّسالة منكم.

(٠/٠)

وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ } ؛ معناهُ : لئِنْ أطعتُم آدميّاً بَشَراً مثلَكم إنَّكم إذا لَمبعوثون ، وهذا القولُ منهم دليلٌ على غايَةِ جهلِهم حيث عبَدُوا أصناماً لا تضُرُّ ولا تنفعُ ، ولَم يعدُّوا ذلك خُسراناً ، والأصنامُ أجسامٌ مثلُهم بل دونَهم.
ثُم عَدُّوا عبادةَ الله وطاعتَهُ هو خُسرناً ، قالوا : { أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ } ؛ أي وصرتُم ، { تُرَاباً وَعِظاماً } ؛ بالية ؛ { أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ } ؛ أي أن تُخرجوا من قبُورِكم ، { هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ } ؛ أي بُعْداً بُعْداً لِمَا تُحاوِلون من البعثِ بعدَ الموت ، وهذه كلمةُ استنكارٍ واستبعاد ، ويقرأُ (هَيْهَاتَ) سبعَ قراءاتٍ بالنَّصب والكسرِ والرفعِ والتنوينِ وغير التنوين والسُّكون ، فمَن نصَبَ جعلَها مثل (أيْنَ وكَيْفَ) ، وَقِيْلَ : لأنَّها أداةٌ مثلُ خمسةَ عشرَ وبَعْلَبَكَّ ، ومَن رفعَ جعلَهُ مثلَ (مُنْذُ وَقَطُّ وحَيْثُ) ، ومَن كسرَ جعله مثلُ أمس. قال الشاعرُ : تَذكَّرْتُ أيَّاماً مَضَيْنَ مِنَ الصِّبَا وهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إلَيْكَ رُجُوعُهَاوقال آخر : لَقَدْ باعَدَتْ أُمُّ الْحَمَارسِ دَارَهَا وَهَيْهَاتَ مِنْ أُمِّ الحمَارسِ هَيْهَاتاً هَيْهَاتومعنى (هَيْهَاتَ) بَعْدَ بَعْدَ الأمرُ جداً حتى امتنعَ ، وهو اسمٌ سُمي به الفعلُ ، وهو بَعْدَ كما قالوا : صَهْ بمعنى اسْكُتْ ، ومَهْ بمعنى لا تَفْعَلْ ، وليسَ له اشتقاقٌ وفيه ضمير مرتفعٌ عائد إلى قولهِ (مُخْرَجُونَ) ، والتقديرُ (هَيْهَاتَ) أي هو الإخراجُ ، والمعنى : بَعُدَ إخراجُكم للوعدِ ؛ أي الذي توعَدُون. قال أبو عمرٍو : (إذا وَقَفْتَ فَقُلْ هَيْهَاه بالْهَاءِ) وقال الفرَّاءُ : (كَانَ الْكِسَائِيُّ يَخْتَارُ الْوَقْفَ عَلَيْهَا بالْهَاءِ ، وَأنَا أخْتَارُ التَّاءَ لأنَّهَا لَيْسَتْ هَاءَ التَّأْنِيْثِ). ورُوي أن سيبويه قال : (هِيَ بمَنْزِلَةِ بَيْضَات) يَعْنِي فِي التَّأْنِيْثِ ، فإذا كَانَ كَذلِكَ كَانَ الْوَقْفُ بالْهَاءِ.

(٠/٠)

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } ؛ أي قالوا مَا هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا التي نحنُ فيها ، { نَمُوتُ وَنَحْيَا } ؛ أي يَموت قومٌ ويَحيا قومٌ آخرونَ ، { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } ؛ بعدَ الموتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ أي قالُوا : مَا هُودٌ إلاّ رَجُلٌ اختلَقَ على اللهِ كَذِباً بأنه رسولٌ إلينا ، وأنَّا نُبْعَثُ ، { وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ } ؛ أي بمُصدِّقين فيما يقولُ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } ؛ أي قال هودُ : رب أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ ، { قَالَ } ؛ اللهُ : { عَمَّا قَلِيلٍ } ؛ على تكذيبهم أي عمَّا قليلٍ من الزَّمان والوقتِ ، يعني عندَ الموتِ وعند نزولِ العذاب بهم ، { لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } ؛ على الكُفر والتكذيب ، { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ } ؛ أي صاحَ بهم جبريلُ صيحةً واحدة فماتُوا عن آخرِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْحَقِّ } أي باستحقَاقِهم العذابَ بكُفرهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً } ؛ أي صيَّرناهم بعدَ الهلاكِ كغُثَاءِ السَّيْلِ ، وهو ما يكونُ على وجهِ السَّيْلِ من القَصَب والحطب والحشيشِ والأشجار اليابسة المتبقِّية الباليةِ ، إذا جرَى السيلُ رأيتَ ذلك مُخالطاً زَبَدَ السَّيلِ ، والمعنى : صيَّرنَاهم هَلَكاً فَيَبسُوا كما يَبسَ الغُثَاءُ مِن نَبْتِ الأرضِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ أي بُعْداً من رحمةِ الله للقومِ الكافرين.

(٠/٠)

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ } ؛ أي ثُم خلَقْنا بعدَ هلاكِ هُودٍ أهلَ أعصَارٍ آخرينَ فسَكَنوا ديارَهم إلى أن هلكوا ، { مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } ؛ أي لا تَموتُ أُمةٌ قبل أجلِها ولا يتأخرُ موعدُهم عنه ، وقولهُ تعالى : { مِنْ أُمَّةٍ } مِن ها هُنا صلةٌ.

(٠/٠)

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا } ؛ أي بعضُها في إثْرِ بعضٍ مُتَرَادفِين ، { كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً } ؛ أي قوماً ، { رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً } ؛ في الْهَلاَكِ والتعذيب ، { وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } ؛ لِمَن بَعْدَهم من الناسِ يتحدَّثون بأمرِهم وشأنِهم ويتمثَّلُ بهم في السرِّ. { فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }.
قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو : (تَتْراً) بالتنوين ، وقرأ الباقونَ بغير تنوينٍ مثل سَكْرَى وشَكْوَى ، فمَن نَوَّنَ كان الألفُ فيه كالألفِ في أنتَ زيداً أو عمراً ، فإذا وقَفْتَ كان ألِفاً ، يعني توقف عليه بالألفِ ، ومَن يُنَوِّنْ كتَبَها بالياءِ.

(٠/٠)

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ ظاهرُ المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُواْ } ؛ أي تكبَّرُوا عنِ الإيْمانِ باللهِ وعبادتِهِ ، { وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ } ، أي وكانوا قوماً قاهرينَ للناسِ بالبَغْيِ والتَّطاوُلِ عليهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ }[القصص : ٤] ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { عَالِينَ } أيْ مُتَكبرِيْنَ عَنْ تَوْحِيْدِ اللهِ).

(٠/٠)

فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالُواْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } ؛ أي ليسَ لَهم فضلٌ علينا ، { وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } ؛ يعني بَنِي إسرائيلَ لنا مطيعونَ ، { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ } ؛ بتكذِيبهما. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ؛ يعني التوراةَ ، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } ؛ لكي يهتَدُوا به من الضَّلالة.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } ؛ أي جعلْنَا ولادةَ عيسى من غيرِ أبٍ دلالةً على التوحيدِ والبعثِ ، ولَم يقل : آيَتَيْنِ ؛ لأن معنى الآيةِ فيهما واحدةٌ. وَقِيْلَ : معنى كلِّ واحدٍ منهما آيةٌ ، كما قال{ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا }[الكهف : ٣٣] أي آتَتْ كلُّ واحدةٍ أُكُلَها ، وقال تعالى : { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ }[المائدة : ٩٠] ولَم يقُلْ أرْجَاسٌ. وَقِيْلَ : معناهُ : جعلنا شأنَهما واحداً ؛ لأن عيسى وُلِدَ من غيرِ أبٍ ، وأمُّهُ ولَدَت من غير مسيسٍ ذكَرٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآوَيْنَاهُمَآ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } ؛ أي جعلنَاهُما يَأْوِيَانِ إلى بُقعة مرتفعة ذاتِ استواءٍ واستقرار ، ومكان ظاهر. والرَّبْوَةُ : المكانُ المرتفع من الأرضِ.
واختَلَفُوا في هذه البُقعةِ ، قال قتادةُ : (يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَهُوَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الأَرْضِ وَأقْرَبُ مَوْضِعٍ إِلَى السَّمَاءِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيْلاً) ، وقال أبُو هريرةَ : (هِيَ رَمْلَةُ بأَرْضِ فِلِسْطِيْنَ) ، وروى الحسنُ وابنُ المسيِّب : (أنَّهَا دِمَشْقُ). وقولهُ تعالى { ذَاتِ قَرَارٍ } أي مُستَوِيةٍ ليستقرَّ عليها ساكِنُوها ، وهي مع ذلك ساحةٌ واسعة ، والْمَعِيْنُ الماءُ الجاري الطاهرُ الذي تراهُ العيون ، يقال عَانَتِ الرَّكبة إذا سَالَتْ بالماءِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)

قوله : { ياأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً } ؛ قال الحسنُ ومجاهد والسديُّ والكلبي وقتادةُ ومقاتل : (الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الآيَةِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَحْدَهُ ، إلاَّ أنَّهُ ذكَرَهُ بلَفْظِ الْجَمَاعَةِ ، لِمَا فِي الْخِطَاب مِنْ تَضْمِيْنِ أنَّ الرُّسُلَ جَمِيْعاً أُمِرُواْ بهَذا الْخِطَاب ، وَقِيْلَ لَهُمْ : كُلُوا مِنَ

الطَّيِّبَاتِ ؛ أيْ مِنَ الْحَلاَلِ ، أمَرَهُمُ اللهُ أنْ لاَ يَأْكُلُواْ إلاَّ حَلاَلاً).

قال الحسنُ : (أمَا وَاللهِ مَا عَنَى بِهِ أصْفَرَكُمْ وَلاَ أحْمَرَكُمْ وَلاَ حُلْوَكُمْ وَلاَ حَامِضَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : انْتَهُوا إلَى الْحَلاَلِ مِنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْمَلُواْ صَالِحاً } أي اعمَلُوا ما أمَرَكم به اللهُ وأطيعوه في أمرِهِ ونَهيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } ؛ ظاهرُ المعنى.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً ، وَإنَّ اللهَ أمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بَما أمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ ، فَقَالَ تَعَالَى { ياأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } وقال { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [البقرة : ١٧٢] ، – ثُم ذكَرَ – الرَّجُلُ يُطِيْلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ : يَا رَب يَا رَب! مَطْعَمُهُ حَرَامٌ ؛ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ؛ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ؛ وَغُذِّيَ بالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟! ". ويُروى عن عيسَى : كان يأكلُ من غَزْلِ أُمِّهِ ، وكان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم كان يقولُ : " جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي " فبيَّن أن رزْقَهُ من الغَنِيْمَةِ وأطيب الطيِّبات الغنيمةُ.

(٠/٠)

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } ؛ أي دِينُكم ودينُ مَن قبلَكم دينٌ واحد. وَقِيْلَ : جماعتُكم جماعةٌ واحدة كلُّكم عبادُ اللهِ ، { وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } ؛ أي فاتَّقُوا عذابي ، وافعلُوا ما أمَرْتُكم به واتركُوا ما نَهيتُكم عنه.

قرأ الكوفيُّون : (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ) بكسرِ الهمزة على الابتداء. وقرأ الباقونَ بفتحِها مع التشديدِ ، وخفَّفَ النونَ ابنُ عامر مع فتحِ الهمزة ، فمَن فتحَ الهمزة وشدَّدَ النون فمعناه : وبأنَّ هذهِ ، وَقِيْلَ : وَاعْلَمُوا إنَّ هذه أمَّتُكم أمةٌ واحدةٌ ، أي مِلَّتُكُمْ ملَّةٌ واحدة وهي دينُ الإسلامِ ، ومَن خفَّفَ مع الفتحِ جعل (أنْ) صلةً ، وتقديرهُ : وهذهِ أُمَّتُكم ، وَقِيْلَ : تكون مخفَّفةً من الثقيلةِ كقوله تعالى{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ }[يونس : ١٠].

(٠/٠)

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً } ؛ معناه : أنتم أهلُ ملَّةٍ واحدة فلا تكونوا كالذين تفرَّقُوا واختلفوا فتقطَّعوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ؛ أي فِرَقاً ، وَقِيْلَ : معناهُ : كُتُباً مختلفةً ديوانُها ، فكَفَرُوا بما سِوَاها كاليهود آمَنُوا بالتوراةِ وكفرُوا بالإنجيلِ والقُرْآنِ ، والنصارَى آمَنُوا بالإنجيل وكفروا بالقُرْآنِ. وقُرئ (زُبَراً) بفتح الباء ومعناهُ قِطَعاً وجماعاتٍ ، ومنه زُبَرُ الحديدِ قِطَعُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } ؛ أي كلُّ طائفةٍ بما عندَهم من الاعتقادِ مُعْجَبُونَ ، فاترُكْهم في ضَلالتِهم وجهالتهم إلى أن يأتيَهم ما وُعِدُوا به من العذاب. وَقِيْلَ : إلى أن يَموتوا فيظهرُ لَهم الحقُّ من الباطلِ عند الْمُعَايَنَةِ في القيامةِ. وَقِيْلَ : كلُّ حِزْبٍ من المشركين واليهودِ والنصارى بما عندَهم من الدِّين رَاضُونَ ، يَرَوْنَ أنَّهم على الحقِّ ، { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } ؛ أي في ضَلالتِهم وجهالتِهم وغفلتهم حتى يَرَوْنَ العذابَ بالسَّيف أو بالموتِ ، يعني : كفارَ مكَّة.

(٠/٠)

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ } ؛ أي يَظُنُّونَ أنَّ إمدادَنا إياهم بالمال والبنينِ مسارعةً منا لَهم في الخيراتِ لكرامتهم علينا ومنْزِلتهم عندنا ، { بَل لاَّ يَشْعُرُونَ } أن ذلك استدراجٌ لَهم وإملاءٌ إلى حينٍ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ } ؛ أي حَذِرُونَ من عذابِهِ ، والإشْفَاقُ هو الخوفُ ، يقالُ : أنا مُشْفِقٌ مِن هذا الأمرِ ؛ أي خائفٌ ، { وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي يصدِّقون بالقُرْآنِ أنه مِن عندِ الله ، { وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ } ؛ معهُ غيرَهُ ، { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } ؛ أي والذينَ يتصدَّقون بالأموالِ ، ويعملون ما عَمِلُوا من الصَّالحاتِ ، وقلوبُهم فَزِعَةٌ

خائفةٌ أن لا يُقْبَلَ منهم ذلكَ. قال مجاهدُ : (الْمُؤْمِنُ يُنْفِقُ مَالَهُ وَقَلْبُهُ وَجِلٌ).
" وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ؛ قالت : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } ، فَقَالَ : " لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيْقِ ، الَّذِيْنَ يَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ ، وَيُصَلُّونَ وَيَعْرِفُونَ ألاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَعْرِفُونَ ألاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ ". وقال الحسنُ : (وَالَّذِيْنَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ؛ أيْ يَعْمَلُونَ مَا عَمِلُواْ مِنَ الْبرِّ وَهُمْ يَرَوْنَ أنَّ ذلِكَ لاَ يُنْجِيْهِمْ مِنْ عَذاب اللهِ) ، قال الزجَّاجُ : (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ { أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } ؛ أي لأنَّهم يوقنونَ برجوعِهم إلى اللهِ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة هم الذينَ يُسارعون في الأعمالِ الصالحة ، { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } ؛ أي إليها سَابقُونَ ، يكون (لَهَا) بمعنى إليها ، كقولهِ : { بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا }[الزلزلة : ٥] أي إليها. وَقِيْلَ : معناهُ : وَهُمْ لَهَا سَابقُونَ في الجنَّة ؛ أي مِن أجلِ مُسارعتهم في الخيراتِ سابقونَ في الجنَّة.

(٠/٠)

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } ؛ أي إلاَّ طَاقَتَهَا من العملِ ، فمَن لَم يستطع أن يصلِّيَ قائماً فيصلِّي قاعداً. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَدَيْنَا كِتَابٌ } ؛ أي عندَ ملائكَتِنا المقرَّبين كتابٌ يشهدُ لكم وعليكم ، يريدُ به صحائفَ الأعمالِ ، وَقِيْلَ : يعني اللوحَ الْمَحفوظَ ، فيه كلُّ شيءٍ مكتوبٌ ، سبقَ في علمِ الله ، { يَنطِقُ بِالْحَقِّ } ؛ أي يُبَيِّنُ الصدقَ ، { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ لا يُنْقَصُونَ من ثواب أعمالِهم ، ولا يزادُ على سيِّئاتِهم.

(٠/٠)

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ } ؛ أي قلوبُ أهلِ مكَّة في غفلة وجهالةٍ ، { مِّنْ هَاذَا } الذي تقدَّم ذكرهُ من أعمال البرِّ. وَقِيْلَ : في غفلةٍ من القُرْآنِ ، { وَلَهُمْ أَعْمَالٌ } ؛ خبيثةٌ لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي والخطايا ، { مِّن دُونِ ذلِكَ } ؛ أي من دون أعمالِ المؤمنين ، { هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } ؛ ويجوزُ أن يكون قولهُ { مِّنْ هَاذَا } إشارةٌ إلى الكتاب الذي ينطقُ بالحقِّ ؛ أي قلوبُهم في غفلةٍ من ذلك الكتاب ، وأعمالُهم التي عَمِلُوها مُحْصَاةٌ فيه ، ولَهم أعمالٌ مِن دون ما هم عليهِ لا بدَّ أن يعمَلُوها ، وهو ما سَبَقَ في علمِ الله أنَّهم يعملونَهُ. والغَمْرَةُ : الغفلةُ التي تُغَطِّي القلبَ وتَغْلِبُ عليهِ.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } ؛ أي حتى إذا أخَذْنَا أعيانَهم ورؤساءَهم بالقتلِ يومَ بدرٍ وبما يَرَوْنَ من العذاب وقتَ المعاينة ، وقال الضحَّاك : (بالْجُوعِ حِيْنَ دَعَا عَلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيْنِ يُوسُفَ " فَابْتَلاَهُمُ اللهُ بالْقَحْطِ حَتَّى أَكَلُواْ الْعِظَامَ وَالْجِيَفَ وَالْكِلاَبَ وَالأَوْلاَدَ وَالْقَذرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } أي يَصِيحُونَ ويصرخون بالتوبةِ ، وَقِيْلَ : يَجْرَعُونَ ويستغيثونَ. وأصلُ الْجُؤَارِ رَفْعُ الصَّوْتِ بالتَّضَرُّعِ.

(٠/٠)

لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَجْأَرُواْ الْيَوْمَ } ؛ وَعِيداً بهم كالاستهزاءِ مثل قولهِ{ لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ }[الأنبياء : ١٣] ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ } ؛ أي لا تُمْنَعُونَ من عذابنا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ كَانَتْ

آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } ؛ أي تُقْرَأْ عليكم في الدُّنيا ، يعني الْقُرْآنَ ، { فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ } ؛ أي تُوَلُّونَ مُدبرِين وتُعرِضون عن الإيْمانِ به ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ } ؛ أي مُتَعَظِّمِينَ ببيتِ الله الكعبة. وَقِيْلَ : بحَرَمِ اللهِ أنهُ لا يظهرُ عليكم أحدٌ ، فالكنايةُ تعودُ إلى الْحَرَمِ وهو كنايةٌ من غيرِ مذكورٍ ، والمعنى : والمستكبرينَ في البيتِ الحرام لأمْنِهم فيهِ مع خوفِ سائرِ الناس في مواضعهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَامِراً تَهْجُرُونَ } ؛ أي سُمَّاراً تَهْجُرُونَ القُرْآنَ والنبيَّ صلى الله عليه وسلم ، والهَجْرُ : هَجْرُ الحقِّ بالإعراضِ عنه ، وقد يقالُ : هَجَرَ المريضُ إذا هَذَأ في كلامِهِ. والسَّمَرُ : الحديثُ باللَّيلِ ، كانوا يتحدَّثون حولَ الكعبة في أوائلِ الليل بالطَّعْنِ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي الإسلامِ والمسلمين ، وإنَّما وحَّدَ (سَامِراً) لأنه في موضعِ المصدر.

قال الحسنُ ومقاتل : (الْمَعْنَى : يَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَيَرْفُضُونَهُ فَلاَ يَلْتَفِتُونَ إلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } الآيةُ). ويجوزُ أن يكون معناهُ مِن الْهَجْرِ ؛ وهو الكلامُ القبيح ، يقالُ : هَجَرَ هَجْراً ؛ إذا قالَ غيرَ الحقِّ ، وهو قولُ السديِّ والكلبي وقتادةَ ومجاهدٍ ، وكانوا إذا دخَلُوا البيتَ سَبُّوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم والقُرْآنَ. ويقالُ أيضاً في هذا المعنى : أهْجَرَ هَجْراً ؛ إذا أفْحَشَ في مَنْطِقِهِ ، ومنهُ قراءةُ نافع : (تُهْجِرُونَ) أي يَفْحُشُونَ في الكلامِ ، ويقولونَ الْخَنَا ، وذلك أنَّهم كانوا يسبُّون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، والْهَجْرُ هو الْفُحْشُ مِن الكلامِ ، يقال في الْمَثَلِ : (مَن كَثُرَ هَجْرُهُ وَجَبَ هَجْرُهُ).

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ } ؛ أي أفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القُرْآنَ في حُسْنِ لفظه ونَظْمِهِ ، وكثرةِ فوائده ومعانيهِ ، مع سلامتهِ من التناقُضِ والاختلاف ، فتعلَّمُوا أنه مِن عند اللهِ ، ويقالُ : معناهُ : أفَلَمْ يدَّبَّرُوا القُرْآنَ فيعرِفُوا ما فيهِ من العِبَرِ والدَّلالاتِ على صدقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأَوَّلِينَ } ؛ معناهُ : أم جاءَهم أمرٌ بَدِيْعٌ لَم يأتِ آباءَهم ؛ أي ألَم يعلَمُوا أن الرُّسُلَ قد أُرسِلُوا إلى مَن قبلهم ؟ والمعنى : أجاءَهم ما لَم يأتِ آباءهم الأوَّلين فأنكروهُ وأعرضُوا عنه. ويحتملُ أن يكون معناهُ : بل جاءَهم ما لَم يأتِ آباءَهم الأوَّلين فأنكروهُ وتركوا التدبر له. لأن (أمْ) بمعنى : (بَلْ).

(٠/٠)

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ } ؛ بالصِّدقِ والأمانة قبلَ إظهار الدَّعوة ؟ { فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ }.
قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا يَعْرِفُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم صَغِيْراً وَكَبِيْراً صَادِقَ اللِّسَانِ وَفِيَّ الْعَهْدِ)
وفي هذا توبيخٌ لَهم بالإعراضِ عنهُ بعدَ ما عرَفُوا صدقَهُ وأمانتَهُ.

(٠/٠)

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ } ؛ أي قالوا : إنَّ مُحَمَّداً مجنونٌ لِيَصُدُّوا الوجوهَ ويصرفُوها عنهُ ، وقد كذبوا في ذلكَ ، فإن الْمَجْنُونَ يَهْذِي ويقولُ ما لا يفعلُ ، { بَلْ جَآءَهُمْ } ؛ النبيُّ صلى الله عليه وسلم { بِالْحَقِّ } ؛ أي بالقُرْآنِ الذي لا تَخفى صِحَّتُهُ وحُسْنُهُ على أحدٍ ، { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ }.

(٠/٠)

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ قال مقاتل والسدي : (الْحَقُّ هَوَ اللهُ) والمعنى : لو جعلَ مع نفسهِ شَريكاً كما تحبُّون ، { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } ؛ كقولهِ{ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا }[الأنبياء : ٢٢]. وَقِيْلَ : معناهُ : لو وُضِعَ الحقُّ على أهوائِهم لَهَلَكَ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ ؛ لأنَّ الحقَّ يدعُو إلى الْمَحَاسِنِ ، والْهَوَى يدعُو إلى الْقَبَائِحِ ، ولو جُعِلَ الْهَوَى مَتْبُوعاً لبَقِيَتِ الأمورُ على الظُّلم والجهالاتِ ، فتُخْلَطُ الأمورُ أقبحَ الاختلاطِ ، ولَم يُوثَقْ بالوعدِ والوعيد ، فأدَّى ذلك إلى الفسادِ ؛ لأن الْهَوَى هو ميلُ النفسِ إلى الْمُشْتَهَى من غيرِ داعي الْهَوى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ } ؛ أي أعطَيناهُم القُرْآنِ الذي فيه عِزُّهُمْ وشَرَفُهُمْ ، وأُمِرُوا بالعملِ بما فيه ، { فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ } ؛ الْقُرْآنَ ، { مُّعْرِضُونَ } ؛ وهو نظيرُ قولهِ{ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

}[الزخرف : ٤٤] وقولهِ{ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ }[الأنبياء : ١٠] والمعنَى : تَوَلَّوا عمَّا جاءَهم به من شَرَفِ الدُّنيا والآخرةِ.

(٠/٠)

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ } ؛ معناهُ : أم تسألُهم على تبليغِ الرِّسالة الْجُعْلَ فيتثاقلون لذلك ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَرَاجُ رَبِّكَ } أي ما وَعَدَ اللهُ لكَ من الأجرِ والثواب في الآخرة ، { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ؛ أي أفضلُ الْمُعْطِيْنَ. وأصلُ الْخَرَجِ وَالْخَرَاجِ : الضريبةُ والعلَّة ، كخراجِ الأرض. وقال النضرُ بن شُميل : (سَأَلْتُ أبَا عَمْرِو بْنِ الْعَلاَءِ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَرْجِ وَالْخَرَاجِ ، فَقَالَ : الْخَرَاجُ مَا لَزِمَكَ وَوَجَبَ عَلَيْكَ أدَاؤُهُ ، وَالْخَرْجُ مَا تَبَرَّعْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وُجُوبٍ) ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي إلى طريقٍ قائم يرضاهُ الله وهو الإسْلاَمُ.

(٠/٠)

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ } ؛ معناهُ : وإنَّ الذينَ لا يصدِّقون بالقيامةِ عن دينِ الحقِّ لَنَاكِبُونَ ؛ أي مائلونَ عَادِلُونَ ، ومنه النَّكْبَاءُ. وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّهم في الآخرةِ عن صراطِ جهنَّم يسقطونَ يُمْنَةً ويُسْرَةً.

(٠/٠)

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ؛ أي ولو رحِمْنَاهُمْ

وكشَفْنا ما بهم من الشدَّة التي أصابت أهلَ مكَّة من الْجُوعِ والقحطِ الذي أخذهم سبعَ سنين لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ ؛ أي لَتَمَادَوْا في ضلالَتِهم يتحيَّرونَ ويتردَّدُونَ. وَقِيْلَ : ولو رحِمنَاهُم في الآخرةِ فردَدْناهُم إلى الدُّنيا لعَادُوا إلى الكُفرِ كما كانوا. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ }[الأنعام : ٢٨].

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ } ؛ يعني الجوعَ الذي أصابَهم بدعوةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ " فَجَاعُوا حتى أكَلُوا الوبَر والدم ، { فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } ؛ أي فما خضعوا لربهم وما تضرَّعُوا ولا انقادُوا في الأمرِ لله وما رَغِبُوا إليه في الدُّعاء ، ولو كشفَ عنهم العذابَ لَم يشكُرُوا ، والاستكانةُ : طلبُ السُّكُونِ ، والتَّضَرُّعُ : طلبُ كَشْفِ البلاءِ مِن القادرِ عليهِ.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ } ؛ قِيْلَ : إنه القتلُ يومَ بدرٍ ، وَقِيْلَ : إنه عذابُ الآخرة ، { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } ؛ أي آيسُونَ يتحيِّرون ، والإبْلاَسُ : اليأسُ مع التحيُّر. وَقِيْلَ : لَمَّا أصابَهم من الجوعِ ما أصابَهم ، " جاءَ أبو سفيانَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقالَ : أنْشِدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ ، ألَسْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ ؟ قَالَ : " بَلَى " قَالَ : فَإنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ الآبَاءَ بالسَّيْفِ وَالأَبْنَاءَ بالْجُوعِ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالَى هذه الآية.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } ؛ أي خلقَ لكم السمعَ تسمعون به ، والأبصارَ تُبصرون بها ، والقلوبَ تعقِلُون بها ، فشُكْرُكم فيما أُعطيَ إليكم قليلٌ ، والأفئدةُ هي القلوبُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي خَلَقَكم في الأرضِ ، { وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ؛ أي تُجمعون إلى موضعِ الحساب والجزاءِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } ؛ أي يُحييكم في أرحامِ أمَّهاتكم ، ويُمِيتُكم عندَ انقضاء آجالِكم ، { وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ؛ أي لهُ مُلْكُ اختلافِهما ومُرورهما يوماً بعد ليلةٍ ، وليلةً بعد يومٍ ، { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى تستدلُّون به على وحدانيَّة اللهِ تعالى.

(٠/٠)

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)

قولهُ : { بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ } ؛ أي لَم يَعْقِلُوا أدِلَّتَنا ولَم يستدِلُّوا بها علينا ، بل كَذبُوا بالبعثِ كما كذبَ آباؤُهم قبلَهم ، والمعنى : كذبت قريشُ بالبعثِ مثلَ ما كذبَ الأولون ، { قَالُواْ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } ؛ بعدَ الموتِ.

(٠/٠)

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هَاذَا مِن قَبْلُ } ؛ أي خُوِّفْنَا بهذا الذي تُخَوِّفُنَا به من قبلِ أن تُخوِّفَنا به ، { إِنْ هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } أي ما هذا الذي تُخوِّفُنا به يا مُحَمَّدُ إلاّ أحاديثُ الأوَّلين.

(٠/٠)

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل } ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ : { لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَآ } ؛ من الخلقِ والعجائب ، أجِيبُوا { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } ؛ خالِقَها. ثُم أجابَ اللهُ عنهم لَمَّا عَلِمَ أنَّهم لا يُجيبون فقال : { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ } لَهم يا مُحَمَّدُ : { أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } ؛ فتستدِلُّون على أنَّ مَن لهُ مُلْكُ السَّموات والأرضِ وما فيهما قادرٌ على البعثِ والنُّشورِ ، فإنَّ مَن مَلَكَ الأرضَ ومَن فيها مَلَكَ إنشاءَها بعدَ هلاكِها.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ عِقَابَهُ على إنكارِ البعث. ومن قرأ { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } ومعناهُ : كأنه قال : لِمَنِ السَّمواتُ ؟ فقالَ : للهِ.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ } ؛ أي مَن ذا الذي لهُ خزائنُ كلِّ شيء وهو يُغِيْثُ ويَمنع من السُّوء ، ولا يَمنع منه مَن أرادَ به سوءً ، أجيبُوا { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } ؛ ملكوتُ كلِّ شيء ، { قُلْ } لَهم يا مُحَمَّدُ { فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } ؛ أي تُصْرَفُونَ عن الحقِّ إلى ما ليسَ له أصلٌ ولا حقيقةٌ ، وقد أُلْقِيَ إليكم حقائقَ الأدلة. والمعنى بقوله : { فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } أي كيفَ يُخَيَّلُ لكمُ الحقُّ باطلاً ، والصحيحُ فاسداً.

(٠/٠)

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ } ؛ أي جِئْنَاهُمْ بالحقِّ وبَيَّنَّا لَهم ، يعني أتينَاهم بالتوحيدِ والْقُرْآنِ ، { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ؛ فيما يُضِيْفُونَ إلى اللهِ من الولدِ والشَّريك.

(٠/٠)

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ } ؛ هذا ردٌّ على اليهودِ في قولِهم : عُزيرٌ ابن اللهِ ، وعلى النصارى في قولِهم : المسيحُ ابن اللهِ ، وعلى مَن قال مِن المشركين : الملائكةُ بنات الله ، { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } ، هذا ردٌّ على عَبَدَةِ الأوثانِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَاهٍ بِمَا خَلَقَ } ؛ معناهُ : لو كان معهُ آلِهةٌ لانفردَ كلُّ إلهٍ بخلقهِ ، لا يرضى أن يُضافَ خلقهُ وإنعامه إلى غيرِهِ ، { وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ؛ أي لطلبَ بعضُهم قَهْرَ بعضٍ ، فلم يَنْتَظِمْ أمرُهما كما لا ينتظمُ أمر بلدٍ فيه ملِكان قاهران.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَ اللَّهِ } ؛ أي تَنْزِيْهاً للهِ { عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ من اتِّخاذِ الولد والشريكِ ، { عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } ؛ مَن خَفَضَهُ جعلَهُ نَعْتَ اللهِ ، ومَن رفعه كان خبرَ مبتدأ محذوفٍ تقديرهُ : هو عَالِمُ ، فقراءةُ الخفضِ هي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو ، وقراءةُ الباقين بالرفعِ. ومعنى الآيةِ : عَالِمِ ما غابَ عن العبادِ وما عَلِمَهُ العبادُ ، { فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

(٠/٠)

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ } ؛ معناهُ : قُلْ يا مُحَمَّدُ رب أرني ما يوعدونَ من العذاب والنِّقمة ؛ يعني القتلَ ببدرٍ. وَقِيْلَ : معناهُ : قل يا مُحَمَّد : يا { رَبِّ } ؛ إنْ أَرَيْتَنِي ما يوعدونَ من العذاب ، { فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ أي منهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ } ؛ أي نحنُ قادرونَ على تعذيبهم ، لكنَّ الإمهالَ لحكمةٍ تقتضي ذلكَ.

(٠/٠)

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ } ؛ يعني بالإحسان الإعراضِ والصَّفحِ ، والسَّيِّئَةُ : أذى المشركينَ إيَّاهُ ، وهذا قبل الأمرِ بالقتالِ ، والمعنى : اذكر لَهم الْمُقَاتَلَةَ والحجةَ على طريقِ التلطُّفِ والاستدعاءِ إلى الحق كما قال تعالى{ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً }[طه : ٤٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } ؛ أي بما يكذِّبون وبما يقولونَهُ من الشِّرك فيجازيهم عليه.

(٠/٠)

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ } ؛ أي اعْتَصِمُ بكَ وأمتنعُ بكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطينِ ، وهمزاتُ الشياطينِ : دفعُهم الناسَ إلى المعاصي بالإغواءِ ، ويقال : الْهَمْزَةُ هي الْوَسْوَسَةُ الشَّاغِلَةُ عن أمرِ الله تعالى ، { وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ } ؛ عندَ القراءةِ وعند الموتِ وعند الغَضَب. وعن الحسنِ : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ ثلاثاً ؛ وَقَالَ : " أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ، مِنْ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ " فَسُئِلَ عَنْ هَمْزِهِ ؛ فَقَالَ : " هُوَ أَخْذُ الشَّيْطَانِ

لِلإنْسَانِ حَتَّى يُصْرَعَ وَيَجِنَّ " وَسُئِلَ عَنْ نَفْثِهِ ؛ فَقَالَ : " هُوَ الشِّعْرُ " وَسُئِلَ عَنْ نَفْخِهِ ؛ فَقَالَ : " إنَّهُ الْكِبْرُ ".

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أن هؤلاء الكفارِ الذين يُنكرونَ يسألونَ الرجعةَ إلى الدُّنيا عند معاينةِ الموت. والمعنى : حتَّى إذا عَايَنَ أحدُهم الموتَ وأعوانه قال : رَّب ارْجِعُونِ إلى الدُّنيا.

وإنَّما قال : (رَب ارْجِعُونِ) بلفظ الجماعةِ لأن اللهَ تعالى يُخبر عن نفسهِ بما يخبرُ به عن الجماعةِ في قولهِ تعالى{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ }[ق : ٤٣] وأمثالهِ ، وكذلك العربُ تُخَاطِبُ الرجلَ بلفظِ الجماعة كما يقولُ الرجل لآخر : أنتُم تفعلونَ كذا ونحنُ نفعل كذا ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ }[القصص : ٩].

(٠/٠)

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأعْمَلُ طَاعَةَ الله) { فِيمَا تَرَكْتُ } ؛ أي في ما مَضَى مِن عُمري ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { كَلاَّ } لا يرجعُ إلى الدُّنيا ، ولا يجوزُ أن يكون (لَعَلَّ) في هذه الآية للشَّكِّ ؛ لأنه لا معنى لذلكَ مع حرصهِ على الرَّجعة والنجاةِ من الموت والعذاب ، وإنَّما المعنى : لِكَي أعملَ صالحاً ، و(كَلاَّ) كلمة رَدْعٍ وزَجْرٍ وتنبيهٍ أي لا يكونُ له ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهَا } ؛ أي من مسألةِ الرُّجوع إلى الدُّنيا ، { كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا } ، عند موتهِ ولا فائدةَ في ذلكَ ، { وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ؛ أي مِن أمَامِهم حَاجِزٌ وحجابٌ بينهم وبين الرُّجوعِ إلى الدُّنيا ، وهم فيه إلى يومِ يبعثون ، فالقبرُ حاجزٌ ، وكل فصلٍ بين شَيئين بَرْزَخٌ.

(٠/٠)

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي النَّفَخَةَ الأُوْلَى). وَقِيْلَ : هي النفخةُ الثانية. وقولهُ تعالى : { فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ } ، قال الحسنُ : (وَاللهِ إنَّ أنْسَابَهُمْ لَقَائِمَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى{ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ }[عبس : ٣٤-٣٥] وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ بأَنْسَابِهِمْ وَلاَ يَتَعَاطَفُونَ عَلَيْهَا ، فَكَأَنَّهُمْ لاَ أنْسَابَ لَهُمْ).
وَقِيْلَ : معناهُ : لا تَفَاخُرَ بينهم كما يتفاخَرون في الدُّنيا ، ولا يتساءَلون كما تسألُ العربُ في الدُّنيا : مِن أيِّ قَبيْلٍ أنتَ ؟ وَقِيْلَ : لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن خبرهِ وحاله كما كانوا في الدُّنيا ؛ لشُغْلِ كلِّ واحد منهما بنفسه ، ولا يسألُ بعضهم بعضاً أنْ يحملَ شيئاً من ذنوبهِ.

(٠/٠)

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } ؛ يعني بالطاعاتِ ؛ { فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ؛ وَقِيْلَ : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بكلمةِ التَّوحيدِ ، فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ، قال صلى الله عليه وسلم : " وَلَوْ وُضِعَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيْهِنَّ وَالأَرْضُ فِي كَفَّةٍ ، رَجَحَتْ بجَمِيْعِ ذلِكَ ".

(٠/٠)

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } ؛ يعني بكلمة الشرك { فَأُوْلَـائِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى. قوله تعالى : { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } ؛ قِيْلَ : الفَلْحُ هو الإحراقُ ، يقالُ : لَفَحَتْهُ النارُ إذا أحْرَقَتْهُ ، وتأثيرُ الفَلْحِ أعظمُ مِن تأثير النَّفْحِ ، والنفحُ مذكورٌ في قوله{ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ }[الأنبياء : ٤٦]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } ؛ الْكُلُوحُ : تَقَلُّصُ الشَّفَتَيْنِ عنِ الأسْنَانِ حتى تبدُو الأسنانُ.

قال الحسنُ : (تَغْلَظُ شِفَاهُهُمْ ، وَتَرْتَفِعُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا ، وَتَنْزِلُ شَفَتُهُ السُّفْلَى ، فَتَظْهَرُ الأَسْنَانُ ، فَهُوَ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ). قال صلى الله عليه وسلم : " وَتَشْوِيَهِ النَّارُ حَتَّى تُقَلِّصَ شَفَتَهُ الْعُلْيَا فَتَبْلُغَ وَسَطَ رَأسِهِ ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ " قال ابنُ مسعود : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الرَّأسِ الْمَسْمُوطِ بالنَّار كَيْفَ بَدَتْ أسْنَانُهُ وَقُلِّصَتْ شَفَتَاهُ).

(٠/٠)

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } ؛ أي تَجحَدُون ، { قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } ؛ بكثرةِ معَاصِينا ، { وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ } ؛ في الدُّنيا فلم نَهْتَدِ. قرأ الكوفيُّون غيرُ عاصمٍ : (شَقَاوَتُنَا) بالألف وفتح الشِّين ، وهُما بمعنى واحدٍ. الشِّقْوَةُ : هي الْمَضَرَّةُ اللاَّحِقَةُ فِي العَاقِبَةِ ، والسَّعَادَةُ : هي المنفعةُ التي تكون في العاقبةِ. والشَّقْوَةُ بفتحِ الشِّين بمنْزِلَةِ الفَعْلَةِ الواحدةِ ، وكسرُ الشِّين في هذا دالٌّ على الكثرةِ واللُّزومِ.

(٠/٠)

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا } ؛ أي مِن النار إلى الدُّنيا ، { فَإِنْ عُدْنَا } ؛ إلى التَّكذيب والمعاصِي ، { فَإِنَّا ظَالِمُونَ }.

(٠/٠)

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } ؛ { اخْسَئُواْ } كلمةُ إهَانَةٍ وَمَذلَّةٍ ؛ وهي في الأصلِ لطردِ الكِلاب ، تقولُ : خَسَأْتُ الكلبَ إذا طَرَدْتَهُ ؛ فَخَسَأَ أي تباعَدَ. قال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ تَبَاعَدُوا تَبَاعُدَ سُخْطٍ ، وَابْعُدُوا بُعْدَ الْكَلْب ، وَلاَ تُكَلِّمُونِ فِي رَفْعِ الْعَذاب عَنْكُمْ ، وَلاَ تَسْأَلُونِ الْخُرُوجَ مِنَ النَّار ، فَإِنِّي لاَ أَدْفَعُ عَنْكُمُ الْعَذابَ ، وَلاَ أُهَوِّنُهُ عَلَيْكُمْ).
قال عبدُالله بن عَمرو : (أَنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكاً أَرْبَعِيْنَ عَاماً فَلاَ يُجِيْبُهُمْ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ، ثُمَّ يُنَادُونَ رَبَّهُمْ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. فَلاَ يُجِيْبُهُمْ مِقْدَارَ عُمْرِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ : إِخْسَئُواْ فِيْهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ بَعْدَ ذلِكَ ، وَيَكُونُ لَهُمْ زَفِيْرٌ كَزَفِيْرِ الْحَمِيْرِ ، وَشَهِيْقٌ كَشَهِيْقِ الْبغَالِ ، وَعَوِيٌّ كَعَوِيِّ الْكِلاَب).

(٠/٠)

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ } ؛ أي يقالُ لَهم : إنه كان طائفٌ من عِبادي يَقُولُونَ : { رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } ؛ وهم الأنبياءُ والمؤمنون ، وهذا تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ بما عامَلُوا الأنبياءَ والمؤمنين باتِّخَاذِهم سِخْرِيّاً.

(٠/٠)

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً } ؛ أي تَسْخَرُونَ منهم وتَسْتَهْزِئُونَ بهم. قرأ نافعٌ وحمزة والكسائيُّ : بضَمِّ السِّين ها هنا وفي ص ، وقرأ الباقونَ بكسرِها وهُما لُغَتان ، ولَم يختلفوا في الزُّخْرُفِ أنه بالضَّمِّ ؛ لأنه بمعنى التَّسخيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ } ؛ لاشْتِغالِكم بالسُّخرية منهم وبالضَّحكِ ، فنَسَبَ الأنبياءَ إلى عبادةِ المؤمنينَ ، وإنَ لَم يفعلوا ؛ لِمَا أنَّهم كانوا السببَ فيه.

(٠/٠)

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُواْ } ؛ على أذِيَّتِكُمْ واستهزَائِكم ، { أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ } ؛ في الجنَّةِ. قرأ حمزةُ والكسائيُّ (إنَّهُمْ) بالكسرِ على الاستئنافِ ، وقرأ الباقونَ بالفتح على معنى جَزَيْتُهُمْ بالْفَوْز.

(٠/٠)

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ } ؛ أي كم لبثتم في القبور ؟ وقيل المكث في الدنيا ، يقول الله تعالى للكفار يوم البعث : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ { قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ؛ فيَرَوْنَ أنَّهم لَم يلبَثُوا إلاَّ يوماً أو بعضَ يومٍ لعِظَمِ ما هُم فيه من العذاب ، نَسَوا ذلكَ. ويقالُ : يَلْحَقُهُمْ دَهْشَةً وَحَيرةٌ فيَنْسَوْنَ ذلكَ. وقولهُ تعالى : { فَسْئَلِ الْعَآدِّينَ } ؛ يعنِي الملائكةَ الذين يحفظونَ عليهم آجالَهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ : (قُلْ كَمْ لَبْثُمْ) على فعلِ الأمر ، وقولهُ : { قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ في جَنْب لُبْثِكُمْ في العذاب ؛ { لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }.

(٠/٠)

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً } ؛ أي أظَنَنْتُمْ أنّا خَلَقْنَاكُمْ للعَبَثِ تأكلونَ وتشربون وتفعلونَ ما تُريدون وتَموتون ، { وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ } ؛ أي فلا تُحشرونَ للحساب ، ولا تُرجعون إلى موضعٍ لا تَملِكون فيه لأنفُسِكم ضَرّاً ولا نفعاً؟

قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً كَمَا خَلَقْنَا الْبَهَائِمَ ، لاَ ثَوَابَ لها وَلاَ عِقَابَ عَلَيْهَا لَمَا قَالَ{ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[القيامة : ٣٦] أي يُهْمَلَ كَمَا تُهْمَلُ الْبَهَائِمُ ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } ؛ أي هو الْمَلِكُ الْحَقُّ الذي لهُ الملكُ ؛ لأنه مَلَكَ غَيْرَهُ ، وكلُّ مَن مَلَكَ غَيْرَهُ فملكهُ مستعارٌ له ، فإنه لا يَملِكُ إلاّ بتمليكهِ الله إياه ، فكأنه لا يعتَدُّ بملكه في ملكِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } ؛ سُمي العرشُ كَرِيْماً لكثرةِ خيرهِ بمن حولَهُ ، يقالُ : فلانٌ كريمٌ ؛ أي كثيرُ الخيرِ.

(٠/٠)

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ } ؛ أي مَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ لَم يَنْزِلْ بعبادتهِ كتابٌ ولا بُعِثَ لَها رسولٌ ولا حُجَّةَ لَهُ عليه ، فإنَّما حسابهُ عندَ ربهِ ، فهو يجازيهِ بما يستحقُّ كما قال تعالى : { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }[الغاشية : ٢٦] ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } ؛ أي لا يُسْعَدُ من جَحَدَ وكَذبَ ، ولا يَأْمَنُ ولا ينجُو من عذاب الله الكافرونَ.

(٠/٠)

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } ؛ يحتملُ أن يكون أمراً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بالاستغفارِ منهُ ، كما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ مَرَّةً " ، ويُروى " مِائَةَ مَرَّةٍ ".

وعن ابنِ مسعود : " أنَّهُ مَرَّ بشَابٍّ مُبْتَلَى ، فَقَرَأت فِي أُذُنِهِ { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً } [المؤمنون

: ١١٥] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ فَبَرِئَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وَمَاذا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ ؟ " فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : " وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ نَبيّاً ؛ لَوْ أَنَّ رَجُلاً مُؤْمِناً قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ ".

(٠/٠)

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

{ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا } ؛ أي هذهِ سورةٌ أنزَلْنَا جبريلَ عليه السلام بها ، وقرأ طلحةُ بن مُصَرِّف (سُورَةً) بالنصب على معنى : أنْزَلْنَا سورةً كما يقالُ : زيداً ضربتهُ ، ويجوزُ أن يكونَ نصباً على الإغراءِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَرَضْنَاهَا) أي أوْحَيْنَا فيها أحْكَاماً وفرائضَ مختلفة عليكمُ وعلى مَن بعدَكم إلى يوم القيامةِ ، وجَحَدَ من قرأ بالتخفيفِ ، قولهُ{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ }[القصص : ٨٥] أي أحكامَ القُرْآنِ ، والتشديدُ في (فَرَّضْنَاهَا) لكثرةِ ما فيها من الفرائضِ. قال مجاهدُ : (يَعْنِي الأَمْرَ بالْحَلاَلِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْحَرَامِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ؛ أي دلاَلاتٍ واضحاتٍ على وحدانيَّتنا وأحكامِنا لكي تتَّعِظُوا فتعمَلُوا بما فيها.

(٠/٠)

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ } ؛ قال سِيْبَوَيْهِ : (مَعْنَاهُ فِي الْفَرَائِضِ عَلَيْكُمْ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ؛ لأَنَّهُ لَوْلاَ ذلِكَ لَنُصِبَ بالأَمْرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ : { فَاجْلِدُواْ }). والْجَلْدُ في اللُّغة : ضَرْبُ الْجِلْدِ ، يقالُ : جَلَدَهُ ؛ إذا ضَرَبَ جِلدَهُ ورأسَهُ ، إذا ضَرَبَ رَأسَهُ وَبَطْنَهُ ، إذا ضَرَبَ بَطْنَهُ.
ومعنى الآيةِ : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي إذا كانا حُرَّيْنِ بالِغَين عاقلَين بكْرَين غيرِ مُحصنين ، فَاضْرِبُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ. فأمَّا إذا كانا مَملُوكَين ، فيُحَدُّ كلُّ واحدٍ منهما خمسونَ جلدةً في الزِّنا لقولهِ تعالى في الإمَاءِ : { فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ }[النساء : ٢٥] يعني إذا عَقِلْنَ فعليهنَّ نصفُ حدِّ الحرائرِ.
وإذا كان الزَّانِي مُحصِناً فحدُّهُ الرجمُ ؛ لأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رَجَمَ مَاعِزَ بنَ مالك الأسلمِيِّ

بزِنَاهُ ، وكان قد أحْصَنَ. وكانَ عمرُ عليه السلام يقولُ : (إنِّي لأَخْشَى إنْ طَالَ الزَّمَانُ أنْ يَقُولَ قَائِلٌ : لاَ نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَى ، فَيَضِلُّواْ بتَرْكِ الْفَرِيْضَةِ أنْزَلَهَا اللهُ ، وَقَدْ قَرَأنَا : [الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ] وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، وَلَوْلاَ أنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ : زَادَ عُمَرُ فِي كِتَاب اللهِ لَكَتَبْتُ ذلِكَ عَلَى حَاشِيَةِ الْكِتَاب). واجتمعتِ الأمةُ على رجمِ الْمُحْصَنَيْنِ إذا زَنَيَا إلاّ الخوارجَ.

وأما الإحصانُ في هذا فهو أن يكونَ حُرّاً بالِغاً عاقلاً مُسلماً قد تزوَّجَ قبلَ ذلك نِكاحاً صحيحاً ، ودخلَ بزوجتهِ في وقتٍ كانا جميعاً فيه على صفةِ الإحصانِ ، وهذا قولُ أبي حنيفةَ ومحمَّد ، فإنَّهما يشرُطانِ هذه الشَّرائطَ السبعةَ في إحصانِ الزَّانِي.

وأما أبو يوسُفَ فلا يجعلُ الإسلامَ من شرائطِ الإحصانِ ، ولا يشترطُ كونُهما على صفةِ الإحصانِ وقتَ الدُّخولِ في النكاحِ الصحيح ، فجعلَ الرجلَ البالغَ العاقل المسلمَ مُحْصَناً بالدخولِ بزوجتهِ الأَمَةِ والصبيَّة والكتابيَّة ، ويجعلُ الزوجينِ الرَّقيقين محصَنين بالدخولِ في النكاحِ الذي بينَهم إذا أُعْتِقَا بعدَ ذلك ، فإن لَم يوجد الدخولُ في ذلك النكاحِ بعد العِتْقِ إلى أن زَنَى واحدٌ منهما ، فهُمَا غيرُ محصَنين عندَهُ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه : " أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَاب جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ : أنْشُدُكَ اللهُ إلاَّ قَضَيْتَ لِي بكِتَاب اللهِ ، فَقَالَ الْخَصْمُ الآخَرُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ اقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ ، فَقَالَ : صلى الله عليه وسلم : " قُلْ " قَالَ : إنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيْفاً عَلَى هَذا ، فَزَنَى بامْرَأتِهِ ، وَإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ ، فَافْتَدَيْتُهُ بمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيْدَةٍ ، فَسَأَلْتُ أهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أنَّ عَلَى ابْنِي مِائَةَ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيْبَ عَامٍ ، وَأنَّ عَلَى امْرَأةِ هَذا الرَّجْمَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بكِتَاب اللهِ ، الْوَلِيْدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ ، وَاغْدُ يَا أنَسُ إلَى امْرَأةِ هَذا ، فَإنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا " قَالَ : فَغَدَا عَلَيْهَا ، فَاعْتَرَفَتْ ؛ فَأَمَرَ بهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَرُجِمَتْ ".

(٠/٠)

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَآ إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ ، دَخَلُواْ الْمَدِيْنَةَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسَاكِنُ وَلا مَالٌ يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَلاَ أهْلٌ يَأْوُونَ إلَيْهِمْ ، وَفِي الْمَدِيْنَةِ بَاغِيَاتٌ سَافِحَاتٌ يَكْرِيْنَ أنْفُسَهُمَّ وَيَضْرِبْنَ الرَّايَاتِ عَلَى أبْوَابِهِنَّ يَكْتَسِبْنَ بذلِكَ ، وَكَانَ أُوْلَئِكَ الْمُهَاجِرِيْنَ الْفُقَرَاءَ يَطْلُبُونَ مَعَايشَهُمْ بالنَّهَارِ وَيَأْوُونَ إلَى الْمَسَاجِدِ باللَّيْلِ ،

فَقَالُواْ : لَوْ تَزَوَّجْنَا مِنْهُنَّ فَعِشْنَا مَعَهُمْ إِلَى يَوْمِ يُغْنِيْنَا اللهُ عَنْهُنَّ ، وَقَصَدُواْ أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ وَيَنْزِلُواْ مَنَازِلَهُنَّ ، وَيَأْكُلُواْ مِنْ كَسْبِهِنَّ ، فَشَاوَرُواْ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فِي ذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَنُهُواْ أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى أنْ يُحِلُّوهُنَّ وَالزِّنَا).

والمعنى : لا يرغبُ في نكاحِ الزانية إلاّ زَانٍ مثلُها ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ }[النور : ٢٦] مَيْلُ الخبيثِ وميلُ الطيِّب إلى الطيب ، وقد يقعُ الطيبُ مع الخبيثِ ، لكن الأعمَّ والأغلبَ ما ذكرنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي حُرِّمَ على المؤمنينَ تزويجُ تلك الباغياتِ المعلِنات بالزِّنا ، وفيه بيانُ أن مَن يتزوجُ بامرأةٍ منهنَّ فهو زَانٍ ، فالتحريمُ كان خاصَّة على أولئكَ دون الناسِ.

ومذهبُ سعيدِ بن المسيَّب : أنَّ التحريمَ كان عامّاً عليهم وعلى غيرِهم ، ثُم نُسِخَ التحريمُ بقولهِ تعالى{ وَأَنْكِحُواْ الأَيَامَى مِنْكُمْ }[النور : ٣٢] ، فإن تزوجَ الرجلُ امرأةً وعاينَ منها الفجُورَ لَم يكن ذلك تَحريْماً بينَهما ولا طَلاقاً ، ولكنه يُؤْمَرُ بطلاقِها تَنَزُّهاً عنها ، ويخافُ عليه الإثمَ في إمساكِها ؛ لأن اللهَ تعالى شَرَطَ على المؤمنين نكاحَ الْمُحصَناتِ من المؤمناتِ.

" ورويَ أنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّ امْرَأتِي لاَ تَرُدُّ يَدَ لاَمِسٍ! فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " طَلِّقْهَا " فَقَالَ : إنِّي أُحِبُّهَا ، وَأخَافُ إنْ طَلَّقْتُهَا أنْ أُصِيْبَهَا حَرَاماً ، فَقَالَ لَهُ : " أمْسِكْهَا إذاً ". إلاّ أنَّ هذا الحديثَ فيه خلافُ الكتاب ؛ لأن اللهَ تعالى أذِنَ في نكاحِ الْمُحصَناتِ ، ثُم أنزلَ اللهُ في القاذفِ لامرأته آيةَ اللِّعانِ ، وسَنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم التفريقَ بينهما ، ولا يجتمعان أبداً ، فكيفَ يأمرهُ بالوقفِ على عاهرةٍ لا تَمتنعُ عمَّن أرادَها ، والحديثُ الذي ذُكِرَ لَم يصِحَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثُم إنْ صَحَّ فتأويلهُ أنَّها امرأةٌ ضعيفةُ الرَّأيِ في تضييعِ مال زوجِها ، فهي لا تَمْنعهُ مِن طالبٍ ولا تحفظهُ من سارقٍ ، وهذا التأويلُ أشبهُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأحرَى لحديثهِ. ويحتملُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } إشارةً إلى الزِّنا.

وعن عمرِو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جدِّه : (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَرْثَدَ الْغَنَوِيِّ ، كَانَ قَدْ أمَرَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ يَحْمِلُ ضَعَفَةَ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ إلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَمِنَ الْمَدِيْنَةِ إلَى مَكَّةَ ، وَكَانَتْ لَهُ صَدِيْقَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُقَالُ لَهَا : عِنَاقٌ ، فَلَقِيَتْهُ بمَكَّةَ فَدَعَتْهُ إلَى نَفْسِهَا فَأَبَى وَقَالَ : إنَّ الإسْلاَمَ قَدْ حَالَ دُونَ ذلِكَ ، فَقَالَتْ لَهُ : فَانْكَحْنِي ، فَقَالَ : حَتَّى أُشَاوِرَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَعَتْ بِهِ إلَى الْمُشْرِكِيْنَ ، فَهَرَبَ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَأخْبَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَشَاوَرَهُ فِي تَزَوُّجِهَا ، فأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } ؛ أي يرمُونَهم بالزنا ، { ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ } ؛ على صحَّة قَذْفِهم إياهُنَّ بالزنا ، { فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً }. والْمُحْصَنَاتُ : الحرائرُ الْمُسلِماتُ البالغاتُ العاقلات العفيفاتُ عن فعلِ الزِّنا. وفي ذكرِ عدد الأربعةِ من الشُّهود دليلٌ على أن المرادَ القذفُ بصريحِ الزنا ؛ لأن هذا العددَ لا يُشترط إلاّ في الزِّنا ، ولا يقبلُ في ذلكَ شهادةُ النساءِ. وفي الآيةِ دليلٌ على أن مَن قَذفَ جماعةً من الْمُحصَناتِ لَم يُضرب إلاّ حدّاً واحداً ، وإذا كان القاذفُ عبداً فحدُّهُ النِّصفُ كما بَيَّنَّا في حدِّ الزنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً } ؛ يعني المحدودين في القذفِ لا تقبلُ شهادتُهم أبداً ، { وَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ؛ أي الخارجونَ عن طاعةِ الله برَمْيِهِمْ إياهُنَّ زُوراً وكَذِباً.

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلِكَ } ؛ أي نَدِمُوا على قَذْفِهم وعَزَمُوا على تركِ الْمُعَاوَدَةِ { وَأَصْلَحُواْ } ؛ أعمالَهم فيما بينَهم وبين ربهم ، { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ لِمَن تابَ منهم ، { رَّحِيمٌ } ؛ لِمَن ماتَ على التوبةِ.

قال ابنُ عبَّاس : (هَذا الاسْتِثْنَاءُ لاَ يَرْجِعُ إِلَى الشَّهَادَةِ ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْفِسْقِ). وَقِيْلَ : إنَّ توبتَهُ فيما بينه وبينَ اللهِ مقبولةٌ ، وأما شهادتهُ فلا تقبلُ أبداً ، وهو قولُ شُريحٍ والحسن وإبراهيمَ ، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أن الاستثناءَ راجعٌ إلى الفسقِ وإلى ردِّ الشهادةِ ، ويكون معنى قولهِ تعالى (أَبَدَاً) ما دامَ على القذفِ ولَم يَتُبْ عنهُ. وأجْمَعُوا جميعاً أنَّ هذا الاستثناءَ لا يرجعُ إلى الْجَلْدِ ، وذلك يقتضي أن يكونَ مَقْصُوراً على ما يَلِيْهِ وهو الفسقُ.

وأجْمَعُوا أن المقذوفةَ إذا ماتت ولَم تُطالِبْ بحدِّ القذفِ ولَم يُحَدَّ القاذفُ ثُم تابَ ، فإنهُ يجوز قَبولُ شهادتهِ ؛ لأن على أصْلِنا أنَّ الحاكمَ إذا أقامَ الحدَّ على القاذفِ فكذبَهُ وأبطلَ حينئذٍ شهادتَهُ ، ولو جُعِلَ بطلانُ الشهادةِ حُكماً معلقاً بتسمية الفسق ولم يجعل حكماً على حالهِ مرتَّباً على الجلدِ لبطُلَتْ فائدةُ

قولهِ{ وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً }[النور : ٤] من كتاب الله ؛ لأن كلَّ فاسقٍ لا تقبلُ شهادتهُ إلاّ بعد توبتهِ عن الفسقِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ؛ الآيةُ ، " وذلكَ أنَّ اللهَ سُبحانه لَمَّا أنزلَ الآيةَ التي قبلَ هذه الآيةِ في قذفِ الْمُحصَنات وشَرَطَ فيها الإتيانَ بأربعةِ شهداءَ وإلاّ جُلِدَ ثَمانين جلدةً ، قَرَأهَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الْمِنْبَرِ.

فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ : يَا رَسُولَ اللهِ! جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ ، أرَأيْتَ إنْ رَأى رَجُلٌ مِنَّا مَعَ امْرَأتِهِ رَجُلاً عَلَى بَطْنِهَا ، فَأَرَادَ أنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ فَيَجِيْءَ بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ ، وَإنْ هُوَ عَجَّلَ فَقَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ ، وَإنْ تَكَلَّمَ بذلِكَ جَلَدْتُمُوهُ ، وَإنْ سَكَتَ ؛ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ شَدِيْدٍ ؟

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالسَّيْفِ " أرَادَ أنْ يَقُولَ شَاهِداً ، فَأُرْسِلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ بالسُّكُوتِ ، فَأَمْسَكَ لِئَلاَّ يَتَسَارَعَ أحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إلَى قَتْلِ أزْوَاجِهِمْ. "

وقال ابنُ عبَّاس : [" لَمَّا نَزَلَتْ : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } [النور : ٤] ، قَرَأهَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ – فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ مَقَالَتَهُ الَّتِي ذكَرْنَاهَا – وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ لَنَا بالشُّهَدَاءِ وَنَحْنُ إذا الْتَمَسْنَاهُمْ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ. وَكَانَ لِعَاصِمٍ هَذا ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ عُوَيْمِرَ ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأةٌ يُقَالُ لَهَا خَوْلَةُ بنْتُ قَيْسِي ، فَأَتَى عُوَيْمِرُ عَاصِماً فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ عَلَى بَطْنِ امْرَأتِي خَوْلَةَ ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْجُمُعَةِ الأُخْرَى ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا أسْرَعَ مَا ابْتُلِيْتُ بالسُّؤَالِ الذِّي سَأَلْتُ فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ فِي أهْلِ بَيْتِي ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَمَا ذاكَ ؟ " قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أخْبَرَنِي عُوَيْمِرُ أنَّهُ رَأى شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاء عَلَى بَطْنِ امْرَأتِهِ خَوْلَةَ.

وكَانَ عُوَيْمِرُ وَخَوْلَةُ وَشُرَيْكٌ كُلُّهُمْ بَنِي عَمِّ عَاصِمٍ ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِهِمْ جَمِيْعاً ، وَقَالَ لِعُوَيْمِر : " اتَّقِ اللهَ ؛ اتَّقِ الله فِي زَوْجَتِكَ وَخَلِيْلَتِكَ وَابْنَةِ عَمِّكَ فَلاَ تُعَذِّبْهَا بالْبُهْتَانِ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أُقْسِمُ باللهِ أنِّي رَأيْتُ شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِهَا. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " اتَّقِ اللهَ وَأخْبِرْنِي بمَا صَنَعْتِ " فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّ عُوَيْمِراً رَجُلٌ غَيُورٌ ، وَإنَّهُ رَآنِي وَشُرَيْكاً نَتَحَدَّثُ ، فَحَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ

عَلَى مَا قَالَ "

وروى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس : " لَمَّا نَزَل قَوْلُهُ : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } [النور : ٤] قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : وَاللهِ لَوْ أَتَيْتُ لُكَاعَ وَقَدْ تَفَخَّذهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أنْ أقْتُلَهُ وَلاَ أُهَيِّجَهُ وَلاَ أُخْرِجَهُ حَتَّى آتِيَ بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، وَلَمْ يَأْتِ بهِمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ وَيَذْهَبَ! فَإنْ قُلْتُ بمَا رَأيْتُ ضَرَبْتُمْ ظَهْرِي ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً!

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ! ؟ " قَالُوا : لاَ تَلُمْهُ فَإنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ ، مَا تَزَوَّجَ امْرَأةً قَطُّ إلاَّ بكْراً ، وَلاَ طَلَّقَ امْرَأةً فَاجْتَرَأ أحَدٌ مِنَّا أنْ يَتَزَوَّجَهَا. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ! بأَبي وَأُمي أنْتَ ، وَاللهِ إنِّي لأَعْرِفُ أنَّهَا مِنَ اللهِ وَأنَّهَا لَحَقٌّ ، وَلَكِنَّنِي عَجِبْتُ مِنْ ذلِكَ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " واللهُ يَأْبَى إلاَّ ذلِكَ ؟ " فَقَالَ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ.

فَلَمْ يَلْبَثُواْ إلاَّ يَسِيْراً حَتَّى جَاءَ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ إلَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أصْحَابهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنِّي جِئْتُ أهْلِي عِشَاءً فَوَجَدْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأتِي يَزْنِي بهَا ، رَأيْتُ بعَيْنِي وَسَمِعْتُ بأُذُنِي. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا أتَى بهِ ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ حَتَّى عُرِفَ ذلِكَ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ هِلاَلُ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنِّي لأَرَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِكَ لِمَا أتَيْتُكَ بهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أنِّي لَصَادِقٌ وَمَا قُلْتُهُ إلاَّ حَقّاً ، وإنِّي لأَرْجُو أنْ يَجْعَلَ اللهُ لِي فَرَجاً ، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَضْرِبَهُ الْحَدَّ.

وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ وَقَالُواْ : ابْتُلِيْنَا بمَا قَالَ سَعْدُ عُبَادَةَ إلاَّ أنْ يَجْلِدَ هِلاَلاً. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُرِيْدُ أنْ يَأْمُرَ بضَرْبِهِ ، إذْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَأَمْسَكُواْ عَنِ الْكَلاَمِ حِيْنَ عَرَفُواْ أنَّ الْوَحْيَ قَدْ نَزَلَ. فَلَمَّا فَرَغَ تَلاَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الآيَةَ : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ... } إلَى آخِرِ الآيَاتِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أبْشِرْ يَا هِلاَلُ ؛ فَإنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ فَرَجاً " فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أرْجُو ذلِكَ مِنَ اللهِ.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أرْسِلُواْ إلَيْهَا " فَجَاءَتْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ : كَذبَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ هِلاَلُ : يَا رَسُولَ اللهِ! مَا قُلْتُ إلاَّ حَقّاً وَإنِّي لَصَادِقٌ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " اللهُ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟ " فَقَالَ هِلاَلُ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَذبْتُ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لاَعِنُواْ بَيْنَهُمَا ".

فَقِيْلَ لِهِلاَلِ : اشْهَدْ باللهِ أرْبَعَ مَرَّاتٍ إنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ ، فَقَالَ هِلاَلُ : أشْهَدُ باللهِ إنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَيْتُهَا بهِ ، قَالَ ذلِكَ أرْبَعَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ : " اتَّقِ اللهَ يَا هِلاَلُ ، فَإنَّ عَذابَ الدُّنْيَا أهْوَنُ مِنْ عَذاب الآخِرَةِ ، وَإنَّ عَذابَ اللهِ أشَدُّ مِنْ عَذاب النَّاسِ ، وَإنَّ هَذِهِ الْخَامِسَةُ هِيَ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكُمَا الْعَذابَ ". فَقَالَ هِلاَلُ : وَاللهِ مَا يُعَذِّبُنِي اللهُ عَلَيْهَا ، كَمَا لَمْ يَجْلِدْنِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فَشَهِدَ الْخَامِسَةَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بهِ مِنَ الزِّنَا.

ثُمَّ قِيْلَ لِلْمَرْأةِ : اشْهَدِي أنْتِ ، فَقَالَتْ أرْبَعَ مَرَّاتٍ : أشْهَدُ باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَانِي بهِ مِنَ الزِّنَا.

فَقَالَ لَهَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ الْخَامِسَةِ : " اتَّقِ اللهَ فَإِنَّ الْخَامِسَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ ، وَإِنَّ عَذابَ اللهِ أَشَدُّ مِنْ عَذاب النَّاسِ " فَسَكَتَتْ سَاعَةً وَهَمَّتْ بالاعْتِرَافِ ، ثُمَّ قَالَتْ : وَاللهِ لاَ أَفْضَحُ قَوْمِي ، فَشَهِدَتِ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَ. فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَهُمَا ، وَقَضَى أَنَّ الْوَلَدَ لَهَا وَلاَ يُدْعَى لأَبٍ.
ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِزَوْجِهَا ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِلَّذِي قِيْلَ فِيْهِ ". فَجَاءَتْ بِهِ غُلاَماً أَحْمَرَ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَى الشَّبَهِ الْمَكْرُوهِ ، وَكَانَ بَعْدَ ذلِكَ أَمِيْراً عَلَى مِصْرَ لاَ يَدْرِي مَنْ أَبُوهُ ".

(٠/٠)

وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

قَوْلُهُ : { وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ } ؛ أي يدفعُ عنها الحدَّ : { أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ وقرأ حفصٌ : (وَالْخَامِسَةَ) بالنصب ، كأنهُ قال : وَشَهِدَ الْخَامِسَةَ. وقُرِئ (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ) بالرفع في قوله (أَرْبَعُ) على أنَّها خبرُ المبتدأ ، ويقرأُ بالنصب على معنى : فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَنَّ يَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } ؛ محذوفُ الجواب ؛ تقديرهُ : لَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَضَحَكُمْ بما تركبونَ من الفواحشِ ، ولعجَّلَكم بالعقوبةِ من غيرِ إمهالٍ ، ولَبَيَّنَ الصادقَ من الكاذب ، فيقامُ الحدُّ على الكاذب { وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } ؛ أي تَوَّابٌ على من رجعَ عن معاصي الله ، حَكِيْمٌ فيما فرضَ من الحدودِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } ؛ وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذا أرَادَ أنْ يَخْرُجَ إلَى سَفَرٍ أقرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَعَهُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا وَهِيَ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطلِقِ ، فَخَرَجَ فِيْهَا سَهْمِي ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَذلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ كُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي ، وَأُحْمَلُ فِيْهِ حَتَّى إذا فَصَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَتِهِ وَرَجَعَ وَدُرْنَا إلَى الْمَدِيْنَةِ.

فَلَمَّا كَانَ ذاتَ لَيْلَةٍ قُمْتُ حِيْنَ آذنُوا بالرَّحِيْلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أقْبَلْتُ إلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْري فَإذا عِقْدِي قَدِ انْقَطَعَ ، وَكَانَ مِنْ جَزْعِ ظَفَارٍ ، فَرَجَعْتُ ألْتَمِسُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

فَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِيْنَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي ، فَحَمَلُواْ هَوْدَجِي عَلَى بَعِيْرِي الَّذِي كُنْتُ أرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنِّي فِيْهِ ، وَكُنَّ نِسَاءً إذْ ذاكَ خِفَافاً لَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، وَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثُقْلَ الْهَوْدَجِ حِيْنَ رَفَعُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةٌ حَدِيْثَةَ السِّنِّ ، فَبَعَثُواْ الْجَمَلَ وَسَارُواْ ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بهَا دَاعٍ وَلاَ مُجِيْبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيْهِ ، وظَنَنْتُ أنَّ الْقَوْمَ يَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إلَيَّ.

فَبَيْنَمَا أنَا جَالِسَةٌ فِي مَجْلِسِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطِّلِ السُّلَمِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأى سَوَادَ إنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَى إلَيَّ فَعَرَفَنِي حِيْنَ رَآنِي ، وَقَدْ كَانَ رَآنِي قَبْلَ أنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ ، فَمَا اسْتَيْقَظْتُ إلاَّ باسْتِرْجَاعِهِ حِيْنَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بجِلْبَابِي ، فَوَاللهِ مَا كَلَّمَنِي بكَلِمَةٍ غَيْرِ اسْتِرْجَاعِهِ ، فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطَأْتُ عَلَى يَدِهَا وَرَكِبْتُهَا ، وَانْطَلَقَ يَقُودُ فِي الرَّاحِلَةِ حَتَّى أتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُواْ وَقْتَ الظَّهِيْرَةِ. فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي ، وخَاضَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ وَمُسْطَحُ بْنُ أثَاثَةَ وَحَمْنَةُ بنْتُ جَحْشٍ الأَسْدِيَّةُ فِي ذلِكَ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ.

فَقَدِمْتُ الْمَدِيْنَةَ ، فَأَصَابَنِي مَرَضٌ حِيْنَ قَدِمْتُهَا شَهْراً ، وَالنَّاسُ يَخُوضُونَ فِي قَوْلِ أهْلِ الإفْكِ ، وَلاَ أشْعُرُ بشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرُورُنِي فِي وَجْهِي لاَ أرَى مِنْهُ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أرَى مِنْهُ إذا مَرِضْتُ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ ، إنَّمَا كَانَ يَدْخُلُ فَيَقُولُ : " كَيْفَ تِيْكُمْ ؟ " فَذلِكَ يُحْزِنُنِي وَلاَ أشْعُرُ بالسِّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ.

فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَهِيَ مُتَبَرَّزُنَا ، وَلاَ نَخْرُجُ إلاَّ مِنْ لَيْلٍ إلَى لَيْلٍ ، وَذلِكَ قَبْلَ أنْ نَتَّخِذ الْكُنُفَ ، وَأمْرُنَا أمْرُ الْعَرَب الأَوَّلِ فِي التَّبَرُّزِ. فَانْطَلَقْتُ أنَا وَأُمُّ مُسْطَحٍ – وَهِيَ عَاتِكَةُ بنْتُ رُهْمِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا بنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ ، وَابْنُهَا مِسْطَحْ بْنُ أثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب – فَأَقْبَلْنَا حَتَّى فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّرِيْقِ عَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مُرْطِهَا فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٍ! فَقُلْتُ لَهَا : بئْسَ مَا قُلْتُ! أتَسُبِيْنَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً ؟ قَالَتْ : أي هَنَتَاهُ ، أي أوَ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : وَمَاذا قالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ ، فَازْدَدْتُ مَرَضاً إلَى مَرَضِي.

(٠/٠)

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً } ؛ أي هَلاَّ إذْ سَمِعْتُمُوهُ أنَّها العُصبة الكاذبةُ ؛ أي هَلاَّ إْ سَمعتُم قذفَ عائشةَ بصفوان ، ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ من العُصبةِ الكاذبةِ يعني حَمْنَةَ بنْتَ جَحْشٍ وحَسَّانَ ومُسْطَحٍ بأنفُسِهم خَيراً. قال الحسنُ : (بأَهْلِ دِيْنِهِمْ لأَنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ). ألا ترَى ظنَّ المؤمنونَ الذي هُم كنفسٍ واحدة فيما جرَى عليها من الأمور بأنفسهم خيراً ، { وَقَالُواْ هَاذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ } ؛ أي كَذِبٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ.
ورُوي : أن المرادَ بهذه الآيةِ أبو أيُّوب الأنصاريُّ وامرأتهُ أُمُّ أيوب ، قَالَتْ : أمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ ؟ قَالَ : بَلْ وَذلِكَ الْكَذِبُ الْبَيِّنُ ، أرَأيْتِ يَا أُمَّ أيُّوبَ كُنْتِ تَفْعَلِيْنَ ذلِكَ ؟ قَالَتْ : لاَ ؛ وَاللهِ مَا كُنْتُ أفْعَلُهُ ، قَالَ : فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ ، سُبْحَانَ اللهِ! هَذا بُهْتَانٌ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. والمعنى : هلاَّ إذا سَمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسِهم خيراً كما فعلَ أبو أيُّوب وامرأتهُ قالاَ فيها خيراً.

(٠/٠)

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ } ؛ أي هَلاَّ جاءَ العُصبة الكاذبةُ على قذفِهم عائشةَ بأربعةِ شُهَداءَ يشهدون بأنَّهم عايَنُوا منها ذلكَ ، { فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـائِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّهم كاذبونَ في قذفِها ، يعني : إنَّهم كاذبونَ في الظاهرِ والباطن ، وكفَى بهذا براءةً

لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، فمَن جَوَّزَ صِدْقُ أولئكَ في أمرِ عائشة صارَ كافراً باللهِ لا محالةَ ؛ لأنه رَدَّ شهادةَ اللهِ لَها بالبراءةِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ معناه : لولاَ مِنَّةُ اللهِ وإنعامه عليكم فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ بتأخيرِ العذاب عنكم ، وقَبُولِ التوبةِ لِمَنْ تابَ لَمَسَّكُمْ فيما خُضْتُمْ فيه من الإفْكِ عذابٌ عظيم هائلٌ في الدنيا والآخرة لا انقطاعَ له.

(٠/٠)

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ } ؛ قال الكلبيُّ : (وَذلِكَ أنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : بَلَغَنِي كَذا وَكَذا ، وَيَتَلَقَّوْنَهُ تَلَقِّياً) ، قال الزجَّاج : (يُلْقِيَهُ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) ، { وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } ؛ ولا بيانٌ ولا حجَّة ، { وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً } ؛ أي تظنُون أن ذلك القذفَ سهلٌ لا إثمَ فيه { وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ } ؛ في الوِزْر والعقوبةِ. قرأ أُبَيُّ : (إِذْ تَتَلَقَّوْنَهُ) بتاءَين ، وقرأت عائشةُ (إِذْ تَلِقُونَهُ) بكسرِ اللام وتخفيفِ القاف مِن الْوَلِق ، والوَلَقُ الكَذِبُ ، يقالُ : وَلَقَ فلانٌ إذا استمرَّ على الكذب ، ووَلَقَ فلانٌ السِّرَّ إذا استمرَّ بهِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَاذَا } ؛ معناه : هَلاَّ قُلْتُمْ حينَ سَمعتُم

ذلكَ : لا يحلُّ لنا أن نتكلَّمَ بهذا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَكَ } ؛ أي تَنْزِيْهاً للهِ تعالى أن تكون امرأةُ نَبيِّهِ زانيةً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } ؛ أي كَذِبٌ ، يقالُ : بَهَتَهُ يَبْهَتُهُ بَهْتاً وبُهْتَاناً ؛ إذا أخبرَهُ بالكذب عليه.

(٠/٠)

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

وقولهُ تعالى : { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً } ؛ أي يَنْهَاكُمُ اللهُ ويخوِّفُكم ويحرِّمُ عليكم أن تعودُوا لِمثل هذا القذفِ ، { إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ لأن قذفَ الْمُحصَنات لا يكونُ من صفاتِ المؤمنين ، وقولهُ تعالى { لِمِثْلِهِ } أي إلَى مِثْلِهِ. قولهُ تعالى : { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ } ؛ أي الأمرَ والنهيَ ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بمقالة الكاذِبين في أمرِ عائشةَ ، { حَكِيمٌ } ؛ في ما شَرَّعَ من الأحكامِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ فيه بيانٌ على أن العزمَ على الفسقِ فسقٌ ، وأنَّ على الإنسانِ أن يحبَّ للناسِ ما يحبُّ لنفسهِ ، وأن يكونَ في قلبهِ سلامةٌ للمؤمنين ، كما يكونُ مأموراً بكفِّ اللسان والجوارحِ. ومعنى الآيةِ : إن الذين يُحِبُّونَ أن يَفْشُو ويظهرَ الزِّنا في الذينَ آمَنوا بأن يَنْسِبُوهُ إليهم ويقذِفُوهم به ، { لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا } ؛ يعني الجلدَ ، { وَالآخِرَةِ } ؛ يعني عذابَ النار ، يريدُ بذلك المنافقينَ ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ } ؛ ما خُضْتُمْ فيه من الإفكِ ، وما فيه من سَخَطِ اللهِ ، { وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } ؛ ذلكَ ، فَحَذرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جميعَ قاذِفِي عائشةَ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } ؛ محذوفُ الجواب تقديرهُ : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } لَعَجَّلَ لكمُ العذابَ وعاقَبَكم في ما قُلْتُمْ في أمرِ عائشةَ ومحبَّتكم إشاعةَ الفاحشةِ فيها ، { وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } فلَمْ يُعاقِبْكم في ذلك. قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ مُسْطَحَ وَحَسَّانَ وَحَمْنَةَ).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } ؛ أي لا تَسْلُكُوا طُرُقَ الشَّيطانِ ، ولا تعمَلُوا بتزْيينه ووَسْوَسَتِهِ في قذفِ عائشةَ ، { فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } ؛ يأمرُ بعصيانِ الله وكلِّ ما يكرهُ اللهُ مما لا يُعْرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ. وَقِيْلَ : الفحشاءُ : القَبيْحُ من القولِ والعمل ، والمنكرُ : الفسادُ الذي يُنْكِرُ العقلُ صحَّتَهُ ويزجرُ عنه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً } أي ما صَلُحَ منكم من أحدٍ أبداً. وَقِيْلَ : معناهُ : ما طَهُرَ منك أحدٌ يُذْنِبُ ولا صَلُحَ أمرهُ بعد الذي قالَ في عائشةَ ما قالَ ، ولا قَبلَ توبةَ أحدٍ منكم ، { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ } ؛ أي يُطَهِّرُ مَن يشاءُ من الإثمِ بالرحمةِ والمغفرة ، فيوفِّقهُ للتوبةِ ، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } ؛ أي سَمِيْعٌ لِمقالَتِكم ، { عَلِيمٌ } ؛ بما في نُفوسِكم من النَّدامةِ والتوبة. وَقِيْلَ : معناهُ : سَمِيْعٌ لِمقالة الخائضِين في أمرِ عائشةَ وصفوان ، عَلِيْمٌ ببَراءتِهِمَا.

(٠/٠)

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي لا يَحْلِفُ ذوُو الغِنَى والسَّعَةِ منكم أن يُعطوا ذوي القُربَى والمساكين والمهاجرينَ من مكَّة إلى المدينةِ. نَزَلَ ذلكَ في أبي بَكْرٍ رضي الله عنه حين بَلَغَهُ مقالةُ مُسْطَحٍ وأصحابه في خَوْضِهِمْ في أمر عائشةَ ، حَلَفَ باللهِ لاَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ.

قِيْلَ : إنَّهُ دَعَاهُ وَقَالَ لَهُ : (أغْدُوكَ يَا مِسْطَحُ بمَالِي وَتُؤْذِيْنِي فِي وَلَدِي ؟ وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَيْكَ). وكان مِسْطَحُ ابنَ أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وكان مِسْطَحُ مِن المهاجرين البدريِّين. فلمَّا نزلت هذه الآيَةُ تَلاَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أبي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ : (بَلَى ؛ أُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، أُطِيْعُ رَبي وَأُرْغِمُ أنْفِي وَأرُدُّ النَّفَقَةَ عَلَيْهِ).

وقولهُ تعالى { أَن يُؤْتُواْ أُوْلِي الْقُرْبَى } معناهُ : أن لا يؤتُوا فحذفَ (لا). قال ابنُ عباس : (قَالَ اللهُ لأَبي بَكْرٍ رضي الله عنه : قَدْ جَعَلْتُ فِيْكَ يَا أبَا بَكْرٍ الْفَضْلَ وَالْمَعْرِفَةَ باللهِ وَصِلَةَ الرَّحِمِ ، وَجَعَلْتُ عِنْدَكَ السَّعَةَ فَأَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ ، فَلَهُ قَرَابَةٌ وَلَهُ هِجْرَةٌ وَلَهُ مَسْكَنَةٌ). وقولهُ تعالى : { وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ قال مقاتلُ : " قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لأَبي بَكْرٍ : " أمَا تُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكَ ؟ " قَالَ : بَلَى ، قَالَ : " فَاعْفُ وَاصْفَحْ " قَالَ : قَدْ عَفَوْتُ وَصَفَحْتُ ، لاَ أمْنَعُهُ مَعْرُوفِي بَعْدَ الْيَوْمِ أبَداً ، وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ "

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ } ؛ معناهُ : إن الذينَ يقذِفُون العفائفَ الغافلاتِ عمَّا قُذِفْنَ بِهِ كغَفْلَةِ عائشةَ عن ما قيلَ فيها ، { الْمُؤْمِناتِ } ، باللهِ ورسوله ، { لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ؛ أي عُذِّبُوا في الدُّنيا بالحدِّ ، وفي الآخرةِ بعذاب النار. وسُمِّيت عائشةُ غافلةً ؛ لأنَّها قُذِفَتْ بأمرٍ لَم يخطُرْ ببالِها ، فأصابَ كلُّ واحدٍ مِن قاذفيها ذاهبةً في الدُّنيا. أمَّا ابنُ أُبَيٍّ فقد ماتَ كافراً ونَهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الصَّلاةِ عليهِ ، وأما حَسَّانُ فقد دخلَ على عائشةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا بعد ما ذهبَ بصرهُ في آخرِ عمره ، وأنشدَها في بيتِها : حَصَانٌ رزَانٌ مَا تُزَنَّ بريْبَةٍ وَتَصْبحُ غَرْثى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِقَالَتْ : إنَّكَ لَسْتَ كَذلِكَ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا ، قِيْلَ لِعَائِشَةَ : إنَّ اللهَ وَعَدَهُمْ بعَذابٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؟ فَقَالَتْ : أوَلَيْسَ : هَذا عَذابٌ ؟ يَعْنِي ذهابَ بصرِهِ.

واختلفَ المفسِّرون في هذه الآية { لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ فقال مقاتلُ :

(هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ الْمُنَافِقِ وَرَمْيِهِ عَائِشَةَ) ، وقال ابنُ جبير : (هَذا الْحُكْمُ خَاصَّةً فِيْمَنْ قَذفَ عَائِشَةَ ، فَمَنْ قَذفَهَا فَهُوَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ) ، وقال الضحَّاك والكلبيُّ : (هَذا فِي عَائِشَةَ وَفِي جَمْيِعْ أزْوَاجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِيْنَ) ، قال ابنُ عبَّاس : (هَذِهِ الآيَةُ فِي شَأْنِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّةً لَيْسَ فِيْهَا تَوْبَةٌ ، وَأمَّا مَنْ قَذفَ امْرَأةً مُؤْمِنَةً مِنْ غَيْرِهِنَّ ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ تَوْبَةً). ثُمَّ قَرَأ{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ }[النور : ٤] إلى قولهِ : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ }[النور : ٥] ، قَالَ : (فَجَعَلَ اللهُ لِهَؤُلاَءِ تَوْبَةً ، وَلَمْ يَجْعَلْ لأُوْلَئِكَ).

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " مَنْ أشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً فَاحِشَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يُرِيْدُ أنْ يَسُبَّهُ بهَا فِي الدُّنْيَا ، كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يَدُسَّهُ بهَا فِي النَّارِ. وَإيَّمَا رَجُلٍ جَاءَ فِي شَفَاعَةِ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَيْهِ لَعنَةُ اللهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ".

(٠/٠)

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ } ؛ قال الكلبيُّ : (تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلْسِنَتُهُمْ بمَا تَكَلَّمُواْ بِهِ مِنَ الْفِرْيَةِ فِي قَذْفِ عَائِشَةَ) { وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، قال ابنُ عبَّاس : (تَنْطِقُ بمَا عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا) ، وهذه عامَّةٌ في القاذفِين وغيرِهم. قرأ حمزةُ والكسائيُّ : (يَوْمَ يَشْهَدُ) بالياء لتقدُّمِ الفعلِ.

(٠/٠)

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ } ؛ أي يُوَفِّيهِنَّ جزاءَهم الواجبَ على قدرِ أعمالِهم ، { وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } ؛ أي ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله تعالى هو الحقُّ الْمُبِيْنُ ، يقضِي بحقٍّ ويأخذُ بحقٍّ ويعطي بحقٍّ.

قال ابنُ عباس : (وَذلِكَ أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيَّ بْنَ سَلُولٍ كَانَ يَشُكُّ فِي الدِّيْنِ ، وَيَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ). قرأ مجاهدُ : (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهَمُ الْحَقُّ) برفعِ القاف على أنه نعتاً للهِ ، وتصديقهُ

قراءةُ أُبَيٍّ (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِيْنَهُمْ). وقولهُ تعالى { الْمُبِينُ } أي يُبَيِّنُ لَهم حقيقةَ ما كان بعدَهم في الدُّنيا.

(٠/٠)

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ } ؛ معناه : الكلماتُ الخبيثات للخبيثينَ من الرِّجال ؛ أي لا يتكلمُ بالكلماتِ الخبيثات إلاّ الخبيثُ من الرجالِ والنساء. وَقِيْلَ : معناهُ : إن الخبيثَ مِن القولِ لا يليقُ إلاّ بالخبيثِ من الناس ، وكلُّ كلامٍ إنَّما يحسنُ في أهلهِ ، فيضافُ سَيِّءُ القولِ إلى مَن يليقُ به ذلك ، وكذلك الطَّيِّبُ من القولِ ، وعائشةُ لا يليقُ بها الخبيثاتُ ؛ لأنَّها طَيِّبَةٌ فيضافُ إليها طيِّباتُ الكلامِ من الثَّناءِ الحسنِ وما يليقُ بها.

وقال بعضُهم : معنى الآيةِ : الخبيثاتُ من النساءِ للخبيثينَ من الرِّجالِ ، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من النساء للمشاكَلَةِ التي بينَهما ، والطيِّباتُ من النساءِ للطيِّبينَ من الرجالِ ، والطيِّبُونَ للطيِّبات من النساءِ. وفي هذا تَبْرِئَةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان مِن أطيب الطيِّبين ، فلا يكونُ له إلاَّ امرأةٌ طيِّبةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ } ؛ يعني أن الطيِّبين والطيبات مُبْرَّؤُنَ مما يقولُ الخبيثونَ ، والْمُبَرَّأُ هو الْمَنْفِيُّ عن صفةِ الْخُبْثِ ، والمرادُ به عائشةُ وصفوان ، فذكَرَهما بلفظِ الجماعة كما في قول تعالى{ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ }[النساء : ١١] والمراد أخَوَانِ. وقولهُ تعالى { مُبَرَّءُونَ } أي مُنَزَّهُونَ. وقولهُ تعالى : { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ؛ أي لَهم مغفرةٌ لذنوبهم وثوابٌ حَسَنٌ بإلْحَاقِهِمْ في الجنَّة من الأذِيَّةِ.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : (لَقَدْ أُعْطِيْتُ تِسْعاً لَمْ يُعْطَهُنَّ امْرَأةٌ : نَزَلَ جِبْرِيْلُ بصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حِيْنَ أمَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَتَزَوَّجَنِي ، وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بكْراً وَمَا تَزَوَّجَ بكْراً غَيْرِي ، وَلَقَدْ قُبِضَ وَرَأسُهُ فِي حِجْرِي ، وَلَقَدْ قُبرَ فِي بَيْتِي ، وَلَقَدْ حَفَّتِ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتِي ، وَلَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ تَفَرَّقْنَ عَنْهُ ، وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَأنَا مَعَهُ فِي لِحَافِهِ ، وَإنِّي لابْنَةُ خَلِيْفَتِهِ وَصَدِيقِهِ ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَقَدْ خُلِقْتُ طَيِّبَةً لِعَبْدٍ طَيِّبٍ ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيْماً).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا } ؛ في الآيةِ أمرٌ بالتَّحَفُّظِ عن الهجومِ عن ما لا يُؤْمَنُ من العوراتِ ، وإلى هذا " أشارَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حيث قالَ للرَّجُلِ الذي قالَ لهُ : أَسْتَأْذِنُ عَلَى أخَوَاتِي ؟ قَالَ : " إنْ لَمْ تَسْتَأْذِنُ رَأَيْتَ مِنْهَا مَا تَكْرَهُ " أيْ ربَّما تدخلُ عليها وهي منكشفَةٌ فترى ما تكرهُ. ومعنى قولهِ تعالى { حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ } أي حتى تَسْتَأْذِنُوا ، والاسْتِئْنَاسُ هو الاسْتِعْلاَمُ ليعلمَ مَن في الدارِ ، وذلك يكون بقَرْعِ الباب والتَّنَحْنُحِ وخَفْقِ النَّعْلِ.

وكان أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ وابن عباس والأعمشُ يقرأونَها (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا). وَقِيْلَ : إن في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ ؛ تقديرهُ : حتى تُسَلِّمُوا على أهلِها وتَسْتَأْذِنُوا ، وهو أنْ يقولَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ؛ أدْخُلُ؟.

ورُوي أنَّ " أعرابياً جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : ألِجُ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِخَادِمَةٍ يُقَالُ لَهَا رَوْضَةٌ : " قُومِي إلَى هَذا فَعَلِّمِيْهِ ، فَإنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ ، قُولِي لَهُ : تَقُولُ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ؛ أدْخُلُ ؟ ".

وعن زينبَ امرأةِ ابن مسعود قالت : (كَانَ عَبْدُاللهِ إذا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إلَى الْبَاب تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ ؛ كَرَاهَةَ أنْ يَهْجُمَ عَلَيْنَا وَيَرَى أمْراً يَكْرَهُهُ). وعن أبي أيُّوب قالَ : (يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بالتَّكْبِيْرَةِ وَالتَّسْبِيْحَةِ وَالتَّحْمِيْدَةِ ، وَيَتَنَحْنَحُ يُؤْذِنُ أهْلَ الْبَيْتِ).

ويُروى أنَّ أبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رضي الله عنه أتَى إلَى مَنْزِلِ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ؛ هَذا عَبْدُاللهِ بْنُ قَيْسٍ ؛ هَلْ أدْخُلُ ؟ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ؛ هَذا أبُو مُوسَى. فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، فَذهَبَ فَوَجَّهَ عُمَرُ بَعْدَهُ مَنْ يَرُدُّهُ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا مَنَعَهُ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " الاسْتِئْذانُ ثَلاَثٌ ، فَإنْ أُذِنَ لَكَ وَإلاَّ فَارْجِعْ ". فَقَالَ : عُمَرُ رضي الله عنه : لَتَأْتِيَنِّي بالْبَيِّنَةِ وَإلاَّ عَاقَبْتُكَ! فَانْطَلَقَ أبُو مُوسَى وَأتَى بأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَأبي سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ فَشَهِدَا بذلِكَ ، وَقَالَ لَهُ : إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ ذلِكَ ؛ فَلاَ تَكُونَنَّ عَذاباً عَلَى أصْحَاب مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا فَعَلْتُ؟! إنَّمَا أنَا سَمِعْتُ بشَيْءٍ فَأَحْبَبْتُ أنْ أتَثَبَّتَ.

ورُوي " أنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أأَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ : لَيْسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ ؟ قَالَ : " أتُحِبُّ أنْ تَرَاهَا وَهِيَ عَرْيَانَةٌ ؟ " قَالَ : لاَ ، قَالَ : "

فَاسْتَأْذِنْ ".

وَعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بغَيْرِ إذْنِهِمْ ؛ حَلَّ لَهُمْ أنْ يَفْقَأُواْ عَيْنَهُ ". وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

(٠/٠)

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ } ؛ أي قُلْ لَهُمْ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهِمْ عن النظرِ إلى ما لا يحلُّ لَهم. واختلفوا في قولهِ تعالى { مِنْ أَبْصَارِهِمْ } فقال بعضُهم : هي صِلَةٌ يغضُّوا أبصارَهم. وقال بعضُهم : هي ثابتةٌ في الحكمِ ؛ لأن المؤمنين غيرُ مأمورين بغضِّ البصرِ أصلاً وإنَّما أُمِرُوا بالغضِّ عمَّا لا يحلُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ } ؛ يعني عن الحرامِ ، قال صلى الله عليه وسلم : " اضْمَنُوا لِي شَيْئاً مِنْ أنْفُسِكُمْ أضْمَنُ لَكُمُ الْجَنَّةَ : اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ ، وَأوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ ، وَأدُّواْ إذا اؤْتُمِنْتُمْ ، وَاحْفَظُواْ فُرُوجَكُمْ ، وَغُضُّواْ أبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّواْ أيْدِيَكُمْ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " النَّظَرُ إلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيْسَ ، فَمَنْ رَدَّ بَصَرَهُ ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللهِ أبْدَلَهُ اللهُ بذلِكَ مَا يَسُرُّهُ ". وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ } ؛ أي أطهرُ وأصلحُ عندَ الله ، { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } ؛ في الفُروجِ والأبصارِ.

(٠/٠)

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ } ؛ أي قُلْ لَهُنَّ يَكْفُفْنَ أبصارَهن عن ما لا يجوزُ ، { وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } ؛ عن الحرامِ. وَقِيْلَ : { وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } أي يَسْتَتِرْنَ حتى لا يرَى فروجهن

أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا } ؛ أي لا يُبدينَ مواضعَ زينتِهنَّ إلاّ ما ظهرَ من موضعِ الزِّينة. والزِّيْنَةُ زينَتَانِ : ظَاهِرَةٌ وباطنةٌ ، فالباطنةُ : الْمَخَانِقُ وَالْمَعَاضِدُ وَالْقِلاَدَةُ وَالْخِلْخَالُ وَالسِّوارُ وَالْقِرْطُ وَالْمَعَاصِمُ. وأما الزينةُ الظاهرةُ : الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ وَالْخِضَابُ ، فليس على المرأةِ بحُكْمٍ إلاّ هذا بهِ سَتْرُ وجهِها وكفَّيها في الصلاة.

وفي غيرِ الصلاة يجوزُ للأجانب من الرِّجال النظرُ إلى وجهِها لغيرِ الشَّهوةِ. فأما النظرُ مع الشهوةِ فلا يجوزُ إلاّ في أربعةِ مواضع : إذا أرادَ أن يتزوَّج امرأةً ، أو يشتريَ جاريةً ، أو يتحمَّلَ الشهادةَ لَها أو عليها ، أو القاضي يقضي لَها أو عليها.

وعن ابنِ مسعودٍ : (أنَّ الزِّيْنَةَ الظَّاهِرَةَ : هِيَ الْجِلْبَابُ وَالْمِلاَءَةِ) يَعْنِي الثِّيَابَ لقولهِ{ خُذُواْ زِينَتَكُمْ }[الأعراف : ٣١] أي ثيابَكم. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ إذا عَرَكَتْ أنْ تُظْهِرَ إلاَّ وَجْهَهَا وَيَدَيْهَا وَإِلَى هَا هُنَا وَقَبَضَ عَلَى نِصْفِ الذِّرَاعِ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ } ؛ الْخُمُرُ : جَمْعُ خِمَارٍ ؛ وهُوَ مَا تُغَطِّي بهِ المرأةُ رأسَها ، والمعنى : وَلْيُلْقِيْنَ مَقَانِعَهُنَّ على جيوبهنَّ وصُدورِهن ليَسْتُرْنَ بذلك شُعورَهن ومُرُوطَهن وأعناقَهن ونحورَهن ، كما قال ابنُ عباس : (تُغَطِّي الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا وَصَدْرَهَا وَتِرَابَهَا وَسَوَالِفَهَا) لأن المرأةَ اذا أسْدَلَتْ خِمارَها انكشفَ ما قدَّامها وما خلفها فوقعَ الاطلاعُ عليها. والجيوبُ : جمعُ جَيْبٍ وهو جيبُ القميصِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ } ؛ أرادَ به موضعَ الزينةِ الباطنة التي لا يجوزُ كشفُها في الصَّلاةِ ، والمعنى : لا يُظْهِرْنَ موضعَ الزينة التي تكون تحتَ خُمُرِهِنَّ إلاّ لأزواجهِنَّ ، { أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ } أي لأزواجِهنَّ ، { أَوْ إِخْوَانِهِنَّ } ؛ في النَّسب أو الرَّضاعِ { أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ } ؛ وكلِّ ذِي رحمٍ مَحْرَمٍ منهُنَّ ، { أَوْ نِسَآئِهِنَّ } ؛ يعني نساء أهلِ دِينهنَّ وهُنَّ المسلماتُ ، ولا يحلُّ لِمسلمةٍ أن تنكشفَ بين يدَي يهوديَّة أو نصرانيةٍ أو مجوسية أو مشركة. وَقِيْلَ : المرادُ بذلك العفائفُ مِن النساءِ اللائي يكن اشكالاً لهن.

ولا ينبغِي للمرأة الصالحةِ أن تنظرَ إلى المرأةِ الفاجرة ؛ لأنَّها تَصِفُها عند الرجلِ ، ولا تضعَ جلبَابَها ولا خِمارَها عندها ، ولا يحلُّ لامراة مؤمنةٍ أن تنكشفَ أيضاً عند مُشركةٍ أو كتابية إلاّ أن تكون أمَةً لَها ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } ؛ ورُوي أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه كَتَبَ إلَى أبي عُبَيْدَةَ : (أمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَغَنِي أنَّ نِسَاءَكُمْ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ مَعَهُنَ نِسَاءُ أهْلِ الْكِتَاب ، فَامْنَعْ مِنْ ذلِكَ).

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْكِحُواْ الأَيَامَى مِنْكُمْ } ؛ أي تزوَّجُوهم ، والأيْمُ اسمُ المرأةِ التي لا زوجَ لَها ، والرجلُ الذي لا امرأةَ له ، يقال : رجلٌ أيْمٌ وامرأة أيْمٌ ، كما يقالُ : رجل بكْرٌ وامرأة بكْرٌ ، وقال الشاعرُ : فَإِنْ تَنْكِحِي أنْكَحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي أكُنْ مَدَى الدَّهْرِ مَا لَمْ تَنْكَحِي أتَأَيَّمِويقالُ : الأيْمُ في النِّساء كالعُزْب في الرِّجال ، وجمعُ الأيْمِ الأيَامَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ } ؛ أي وزوِّجُوا عبيدَكم وإمائَكم ، وهذا أمرُ ترغيبٍ واستحباب. وفائدةُ ذِكر الصالحين : أن المقصودَ من النكاحِ العفافُ ، والصالِحُ هو الذي يتعفَّفُ. وَقِيْلَ : الصلاحُ ها هنا الإيْمانُ ، ثُم رجعَ إلى الأحرار فقالَ : { إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } ؛ فيه حثٌّ على النكاحِ ؛ لئلا يَمتنِعُوا منه بسبب الفقر ، فإن اللهَ هو الغنيُّ والْمُغْنِي ، إن يكونوا فقراءَ لا سَعَةَ لَهم في التزويجِ { يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } أي يَوَسِّعُ عليهم عند التزوُّجِ.

واختلَفُوا في الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْكِحُواْ الأَيَامَى مِنْكُمْ } الآيةُ ؛ فقال بعضُهم : هذا الأمرُ على الْحَتْمِ والإيجاب ، أوجبَ اللهُ النكاحَ على مَن استطاعَهُ ، وتأوَّلَهُ الباقونَ على أنه أمرُ استحبابٍ ونَدْبٍ ، وهو المشهورُ الذي عليه الجمهور.

وَقِيْلَ : يجبُ على المرأةِ والرجل أن يتزوَّجَا إذا تاقت أنفسُهما إليه ؛ لأن اللهَ تعالى أمَرَ به ورَضِيَهُ وندبَ إليه ، وبَلَغْنَا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " تَنَاكَحُواْ ؛ فَإِنِّي أُبَاهِي بكُمُ الأُمَمَ حَتَّى السَّقْطَ ".

وقالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بسُنَّتِي " وهو النكاحُ ؛ لأنه ينتفعُ بدعاءِ ولده بعدَهُ ، ومن لَم تَتُقْ نفسهُ إليه فأحبُّ إلينا أن يتخَلَّى لعبادةِ الله.

وعن أبي نَجِيْحٍ السلميِّ ؛ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا " وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أدْرَكَ وَلَداً وَعِنْدَهُ مَا يُزَوِّجُهُ فَلَمْ يُزَوِّجْهُ فَأَحْدَثَ إثْماً فَالإثْمُ بَيْنَهُمَا " وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تَزَوَّجَ أحَدُكُمْ عَجَّ الشَّيْطَانُ " تأويلهُ : غَنِمَ ابنُ آدمَ مني ثُلثي دينه. وقال صلى الله عليه وسلم : " مِسْكِيْنٌ مِسْكِيْنٌ رَجُلٌ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ ، مِسْكِيْنَةٌ مِسْكِيْنَةٌ امْرَأةٌ لَيْسَ لَهَا زَوْجٌ " قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ! وَإِنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ : " وَإِنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ " وَقَالَ : " شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " أرْبَعَةٌ يَلْعَنُهُمُ اللهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ : رَجُلٌ يَخْصِي نَفْسَهُ عَنِ النِّسَاءِ فَلا يَتَزَوَّجُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ ، وَلاَ يَتَسَرَّى خِشْيَةَ أنْ يُولَدَ لَهُ ، وَرَجُلٌ تَشَبَّهَ بالنِّسَاءِ ، وَامْرَأةٌ تَشَبَّهَتْ بالرِّجَالِ ، وَرَجُلٌ يَتَهَزَّأُ بالْمَسَاكِيْنَ يَقُولُ لَهُمْ : تَعَالَوْا حَتَّى أُعْطِيَكُمْ ، فَإذا جَاءُوْا قَالَ لَهُمْ : لَيْسَ مَعِي شَيْءٌ ، وَيَقُولُ لِلأَعْمَى : احْذر الْحَجَرَ قِبَلَكَ ، وَاحْذرِ الدَّابَّةَ ، وَلَيْسَ قِبَلَهُ شَيءٌ ".

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي ليطلب الذين لا يجدونَ نكاحاً العِفَّةَ عن الزنا والحرام ، والمعنى : مَن لَم يجد سَعَةً للنكاحِ من مهرٍ ونفقة ، ولا يجدُ شيئاً يشتري به أمَةً فَلْيَسْتَعْفِفْ عن الزِّنا حتى يجدَ ما يكفيهِ ، كذلك وفي هذا بيانٌ أنه لا عُذْرَ لأحدٍ في السِّفاحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } ؛ معناهُ الذين يطلبون الْمَكَاتَبَةَ من عبيدِكم وإمائكم ، { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً } ؛ رُشداً وصَالاحاً وصِدقاً ووفاءً وأمانةً وقدرة على الْمَكْسَب ، وهذا أمرُ استحبابٍ في العبدِ الذي يقدرُ على الاكتساب وترغيبٍ في الكتابةِ. فأما الذي لا يقدرُ على الكسب ولا يرغبُ في الكتابة ، فلا يكون في كتابتهِ إلاّ قطعُ حقِّ المولَى عنه من غيرِ نفع يرجعُ إليه. ومعنى الكتابةِ : أن يُكَتِبَ مملوكَهُ على مالٍ سَلَّمَهُ إليه نُجوماً فيُعْتَقُ بأدائهِ ، وإن كانت الكتابةُ حالَّةً جازت عند أبي حنيفةَ وأصحابهِ ، والشافعي لا يُجَوِّزُ إلاّ مُنجَّماً ، وأقلُّهُ نَجمان فصاعداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ } ؛ اختلَفُوا في معنى ذلكَ ، فرُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنهُ أنهُ قالَ : (يُحَطُّ عَنِ الْمُكَاتَب رُبُعُ مَالِ الْكِتَابةِ). وعن ابن عباس : (يُحَطُّ عَنْهُ شَيْءٌ) ، وعن عبدِالله بن يزيدِ الأنصاريِّ أنه قالَ : (هَذا خِطَابٌ لِلأئِمَّةِ أنْ يُسَلِّمُوا إلَى الْمُكَاتَبِيْنَ مَا فَرَضَ اللهُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَفِي الرِّقَابِ }[البقرة : ١٧٧] وهذا أقربُ إلى ظاهرِ الآية ، لأن الإتْيَانَ في اللغة هو الإعْطَاءُ دونَ الْحَطِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بنِ أُبَيٍّ سَلُولَ ، كَانَتْ لَهُ جَوَارٍ حِسَانٌ : مِسْكَةُ وَأُمَيْمَةُ وَمَقَارَةُ ، كَانَ يُكْرِهُهنَّ عَلَى الزِّنَا لِيَكْتَسِبْنَ لَهُ بالْفُجُورِ ، وَكَذلِكَ كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ ، فَأَتَتِ الْجَوَارِي إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَشْكُونَ إلَيْهِ ذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

قال مقاتلُ : (نَزَلَتْ فِي سِتِّ جَوَارٍ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ سلول : مَعاذةُ وَمُسَيْكَةُ وَأُمَيْمَةُ وَعَمْرَةُ وَقُتَيْلَةُ وَأَرْوَى ، فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُنَّ ذاتَ يَوْمٍ بدِيْنَارٍ ، وَجَاءَتْ أُخْرَى ببُرْدَةٍ ، فَقَالَ لَهُمَا : ارْجِعَا فَازْنِيَا ، وَكَانَ يُؤَجِّرُهُنَّ عَلَى الزِّنَا ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَتْ مَعَاذةُ لِمُسَيْكَةَ : إنَّ هَذا الأَمْرَ الَّذِي نَحْنُ فِيْهِ قَدْ آنَ لَنَا أنْ نَدَعَهُ ، فَقَالَ

لَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أبي سَلُولٍ : إمْضَيَا فَازْنِيَا. فَقَالَتَا : وَاللهِ مَا نَفْعَلُ ذلِكَ قَدْ جَاءَ اللهُ بالإسْلاَمِ وَحَرَّمَ الزِّنا. ثم مَضَيَا إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَشَكَيَا عَلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها : ولا تُكْرِهُوا إمَاءَكم على البغَاءِ ؛ أي على الزِّنا ، { لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ مِن كَسْبِهِنَّ وبيعِ أولادِهن.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً } يعني إذا أرَدْنَ تَحَصُّناً ، خرجَ الكلامُ على وجهِ الحال لا على وجه الشَّرطِ ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ } ؛ أي أنزَلْنَا إليكم القُرْآنَ آياتٍ ظاهرات واضحات لتعملوا بها. وَقِيْلَ : يعني بذلكَ ما ذكَرَ في هذه السُّورة من الحلالِ والحرام. وقولهُ تعالى : { وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ } ؛ أي وأنزلَ فيها مَثَلاً ؛ أي خَبَراً مِن خَبَرِ الذين مَضَوا من قبلِكم لتعتَبروا ، { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } ؛ عن الشِّركِ والفواحشِ.

(٠/٠)

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي اللهُ هادِي أهلِ السَّموات وأهلِ الأرض بالآياتِ المبيِّنات ، لا هاديَ فيهما غيرهُ ، فبنُورِهِ الخلقُ يهتدونَ ، وبهداهُ من الضَّلالةِ يَنْجُونَ ، فلا يهتدي مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل إلاّ بهداهُ.
وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ اللهُ مُنَوِّرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ، وقال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : اللهُ مُدَبرُ الأُمُورِ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ، وقال الحسنُ وأبو العاليةِ : (اللهُ مُزَيِّنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ، يعني مُزَيِّنُ السَّموات بالشمسِ والقمر والنُّجومِ ، ومُزيِّنُ الأرضِ بالأنبياء والعُلماء والمؤمنينَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَثَلُ نُورِهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَثَلُ نُورِهِ الَّذِي أعْطَاهُ الْمُؤْمِنِيْنَ) ، وقال السديُّ : (مَثَلُ

نُورِهِ الَّذِي فِي قَلْب الْمُؤْمِنِ) ، وكان أُبَيٌّ يقرأُ (مَثَلُ نُور الْمُؤْمِنِيْنَ). وَقِيْلَ : كان يقرأ (مَثَلُ نُور مَنْ آمَنَ بِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } ؛ الْمِشْكَاةُ في لغة الحبشة : كُوَّةٌ غَيْرُ نَافِذةٍ ، والمصباحُ : هو السِّرَاجُ في القِنْدِيْلِ من الزُّجَاجِ الصَّافِيَةِ. وَقِيْلَ : الْمِشْكَاةُ : عَمُودُ الْقِنْدِيْلِ الذي فيه الفَتِيْلَةُ. وقال مجاهدُ : (هِيَ الْقِنْدِيْلُ) ، قال الزجَّاج : (النُّورُ فِي الزُّجَاجِ ، وَضَوءُ النَّارِ أَبَيْنُ مِنْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَضَوْؤُهُ يَزِيْدُ فِي الزُّجَاجِ وَيَتَضَاعَفُ حَتَّى يَظْهَرَ مِنْهُ مَا يُقَابِلُهُ مِثْلُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهَا مِصْبَاحٌ } أي سِرَاجٌ ، وأصلهُ من الضَّوءِ ، ومن ذلك الصُّبْحُ ، ورجلٌ صَبِيْحُ الوجهِ إذا كان وَضِيئاً ، وفرَّقَ قومٌ بين المصباحِ والسِّراج ؛ فقالوا : المصباحُ دونَ السِّراج ، والسراجُ أعظمُ من المصباحِ ؛ لأن اللهَ تعالى سَمَّى الشمسَ سِرَاجاً ، وقال في غيرِها من الكواكب{ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ }[الملك : ٥].

ثُم وصفَ اللهُ الزجاجةَ التي فيها المصباحِ ؛ فقالَ : { الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } ؛ شبَّهَ القنديلَ الذي يكونُ فيه السِّراجُ بالكوكب الدُّرِّيِّ ؛ وهو النجمُ الْمُضِيْءُ ، ودَرَاري النُّجومِ كبارُها ، وقولهُ { دُرِّيٌّ } نسبةً إلى أنه كالدُّرِّ في صفائهِ وحُسْنِهِ ، كأنَّ الكوكب دُرَّةٌ بيضاءُ.

قرأ أبو عمرٍو والكسائيُّ : (دِرِّئٌ) بكسرِ الدال مهموزٌ مَمدود ؛ وهو فِعِّيْلٌ من الدَّرْءِ بمعنى الدَّفعِ ، يقالُ : دَرَءَ يَدْرَأ إذا دَفَعَ ، فكأنه تَلأْلُؤٌ يدفعُ أبصارَ الناظرين إليه. ويقالُ : كأنه رَجَمَ به الشياطينَ فدرأهُم ؛ أي دفَعَهم بسرعةٍ في الانقضاضِ ، وذلك أضْوَءُ ما يكونُ.

وقرأ حمزةُ وأبو بكر : مضمومةُ الدالِ مهموزٌ مَمدود ، قال أكثرُ النُّحاة : هو لَحْنٌ ؛ لأنه ليسَ في كلامِ العرب ، فقيل بضمِّ الفاء وكسر العينِ ، وأنكرَهُ الفرَّاءُ والزجَّاج وأبو العباسِ ، وقال : (هَذا غَلَطٌ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلاَمِ الْعَرَب شَيْءٌ عَلَى هَذا الْوَزْنِ). وقرأ الباقون بضمِّ الدالِ وتشديد الياءِ من غير همزٍ ، فنسبوهُ إلى الدُّرِّ في صفائه وبَهائِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ } ؛ فيه أربعُ قراءاتٍ ، قرأ نافع وابن عامر : بياءٍ مضمومة يعنونَ المصباحَ ، وقرأ حمزةُ والكسائي وخلف : بتاءٍ مضمومة يعنون الزُّجاجةَ ، وقرأ أبو عمرٍو : (تَوَقَّدَ) بالتاء وفتحها وفتح الواو مشدَّدة بمعنى الماضِي ، وقرأ ابنُ محيصن : بتاءٍ مفتوحة وتشديد القاف مثل قراءةِ أبي عمرٍو إلاّ أنه رفعَ الدالَ بمعنى الفعلِ المستقبل بمعنى : تتوقَّدُ الزجاجةُ.

(٠/٠)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ } ؛ يعني ذلك المصباحَ في بُيُوتٍ ، قِيْلَ : معناهُ : تُوقَدُ في بيوتٍ وهي المساجدُ ، أذِنَ اللهُ في رفعِها ؛ أي رَفْعِ بنائها كما قال تعالى{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ }[البقرة : ١٢٧] ، ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ أن لا يؤذنَ في رفعِ شيء من الأبنية فوقَ الحاجة غيرَ المساجد التي يُصَلِّي فيها المؤمنونَ ، ويستضيءُ بنور قناديلها العابدونَ. وقال الحسنُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ } أيْ تُعَظَّمَ وَتُصَانَ عَنِ الأَنْجَاسِ وَاللَّغْوِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَعَنِ التَّكَلُّمِ بالْخَنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } ؛ وفي الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " جَنِّبُواْ مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِيْنَكُمْ ؛ وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ ؛ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ ؛ وَجَمِّرُوهَا فِي الْجَمعِ ، وَاجْعَلُواْ عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ ". قال ابنُ عبَّاس : (الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ ، وَهِيَ تُضِيْءُ لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيْءُ النُّجُومُ لأَهْلِ الأَرْضِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } أي ويُذْكَرُ في المساجدِ اسمُ الله تعالى وتوحيدهُ.

وقولهُ تعالى : { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا } ؛ أي يُصَلِّي للهِ تعالى في تلك البيوتِ الصلاةَ المفروضةَ ، { بِالْغُدُوِّ } ؛ أي صلاة الغداة ، وقولهُ تعالى { وَالآصَالِ } ، يعني العَشِيَّاتِ ، والأصِيلُ ما بين العصرِ إلى الليلِ ، وسُميت الصلاةُ تَسبيحاً لاختصاصها بالتسبيحِ. وقرأ ابنُ عامر : (يُسَبَّحُ) بفتحِ الباء على ما لَم يسمَّ فاعلهُ.

ثُم فسَّرَ مَن يُصلي فقال : { رِجَالٌ } ؛كأنه قالَ : مَن يُسَبِّحُ ؟ فقيلَ : رجَالٌ { لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ } ؛ أي لا تشغَلُهم تجارةٌ ، ولا بَيْعٌ عن طاعةِ الله ، وعن إقامةِ الصَّلاة في البيوتِ ، وعن إعطاءِ الزكاة.

قال الفرَّاءُ : (التِّجَارَةُ لأَهْلِ الْجَلْب ، وَالْبَيْعُ مَا بَاعَهُ الرَّجُلُ عَلَى يَدَيْهِ) وَخَصَّ قَوْمٌ التِّجَارَةَ هُنَا بالشِّرَاءِ لِذِكْرِ الْمَبِيْعِ بَعْدَهَا. والمعنى : لا يَمنعُهم ذلك عن حضور المساجد لإقامةِ الصلاة وإتْمَامِها ، وإذا حضرَ وقتُ الزكاةِ لَم يحبسُوها عن وقتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ } ؛ أي يفعلون ذلك خَوْفاً من يومٍ تَرْجِفُ فيه القلوبُ ، وتدورُ حُدَقُ العيونِ حالاً بعد حالٍ من الفَزَعِ والخوفِ رجاءَ أن { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ } ؛ فِي دارِ الدُّنيا ، { وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ } ؛ بغيرِ استحقاقٍ ، { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ؛ أي بغيرِ حَصْرٍ ولا نِهايةٍ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

قولهُ : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } ؛ معناهُ : أن أعمالَ الكُفَّارِ قد أُحبطُوا بكفرِهم ، كسَرَابٍ بأرضٍ مُستوية ملساءَ ، يظنُّهُ العطشانُ ماءً يرجُو به النجاةَ ، حتى إذا جاءَ السرابَ ليشربَ لَم يجدْهُ ماء ، بل رأى أرضاً بيضاءَ لا ماء فيها فيَئِسَ وتحيَّرَ ، كذلكَ الكافرُ في عملهِ ييأسُ في الآخرة عن عمله الذي كان يعتقدهُ يبرئ ، يتقطَّعُ عنه طمعهُ عند شدَّةِ حاجته إليه ، ثم يجدُ عند ذلك من العقاب كما قال تعالى : { وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ } ؛ أي عند عملهِ ، يعني : قَدِمَ على اللهِ ، { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } ؛ أي جَازَاهُ بعملهِ. والسَّرَابُ : هو الشعاعُ الذي يتراءَى للعين وقتَ الهاجرةِ في الفَلَوَاتِ ، يُرَى من بعيدٍ كأنه ماءٌ وليس بماء. والبِقِيْعَةُ : جمعُ بقَاعٍ ، والقِيْعَةُ جمعُ قَاعٍ ، نحوُ جَارٍ وجِيرَةٍ ، وهو ما انبسطَ من الأرضِ وفيه يكون السَّرابُ.

وَقِيْلَ : معناهُ : أنَّ الكافرَ يحسَبُ أن عملَهُ يُغنِي عنه وينفعهُ ، فإذا أتاه الموتُ واحتاجَ إلى عملهِ لَم يجدْهُ شَيْئاً ؛ أي لا منفعةَ فيهِ ووَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ بالمرصادِ عندَ ذلك فوفَّاهُ جزاءَ عملهِ ، { وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ؛ أي سريعٌ حِسَابُهُ كلَمْحِ البصرِ أو أقلَّ ؛ لأنه تَعَالَى لا يتكلمُ بآلةٍ حتى يشغلَهُ سَمعٌ عن سَمعٍ. وسُئِلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : كيفَ يُحَاسِبُهُمْ في حالةٍ واحدة ؟ فَقَالَ : (كَمَا رَزَقَكُمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ).

(٠/٠)

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ } ؛ هذا تخير في المثلِ ، والمعنى : أن مَثَلَ أعمالِ الكفار أيضاً في الدُّنيا ، ومثلَ قلوبهم في حياتِهم الدُّنيا كمثلِ ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ؛ أي عميقٍ كثير الماء يعلوهُ موجٌ ومن فوق ذلك الموجِ الأعلى سحابٌ.

وهذا حدُّ الكلام ، ثُم ابتدأ فقال : { ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } ، أرادَ به ظلمةَ البحرِ وظُلمةَ الموجِ الأدنى وظلمةَ الموجِ الأعلى وظلمةَ السَّحاب وظلمة الليلِ. قال المفسِّرون : أرادَ بالظُّلماتِ أعمالَ

الكفارِ ، وبالبحرِ اللُّجِّيِّ قلبَ الكافرِ ، وبالموجِ ما يغشَى عليه من الجهلِ والشكِّ والحيرة ، وبالسَّحاب الدِّينَ والختمَ والطبعَ على قلبهِ.

قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ في هذه الآية : (الْكَافِرُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسٍ مِنَ الظُّلَمِ : فَكَلاَمُهُ ظُلْمَةٌ ؛ وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ ؛ وَمَدْخَلُهُ وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ ؛ وَقَلْبُهُ ظُلْمَةٌ ؛ وَمَصِيْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ظُلْمَةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً }[الحديد : ١٣].

وقولهُ تعالى : { إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } ؛ أي إذا أخرجَ يَدَهُ من هذه الظُّلمات لَم يرَها ولَم يُقَارِبْ أن يرَاها من شدَّةِ الظلماتِ ، فكذلك الكافرُ لا يُبْصِرُ الحقَّ والهدى. وقولهُ تعالى : { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ } ؛ أي مَن لَم يهدهِ اللهُ فما له من إيْمَانٍ ، ومَن لَم يجعلِ اللهُ له نوراً في الدُّنيا ، فما له من نورٍ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَنِي مِنْ نُورِهِ ، وَخَلَقَ أبَا بَكْرٍ مِنْ نُورِي ، وَخَلَقَ وَخَلَقَ عُمَرَ وَعَائِشَةَ مِنْ نُورِ أبي بَكْرٍ ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أُمَّتِي مِنْ نُورِ عُمَرَ ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنَاتِ مِنْ أُمَّتِي مِنْ نُور عَائِشَةَ. فَمَنْ لَمْ يُحِبَّنِي وَيُحِبَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَائِشَةَ ؛ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ".

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ } ؛ معناهُ : ألَمْ تعلَمْ ؛ { أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ } ؛ أي يُنَزِّهُهُ ؛ { مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } مِن العُقَلاَءِ وغيرِهم ، وكَنَّى عن الجميعِ بكلمة (مَنْ) تغليباً للعقلاءِ على غيرِهم. وَقِيْلَ : أرادَ بالآيةِ العقلاءَ ، وهذا عمومٌ أرادَ به الخصوصَ في أهلِ الأرض وهم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ } ؛ أي ويسبحُ له الطيرُ باسطاتٍ أجنِحَتِها في الهواءِ ، والبَسْطُ في اللغة : الصَّفُّ ، والصَّفُّ في اللغة هو البَسْطُ ، ويسمَّى القَدِيْدُ صَفِيْفاً لأنه يُبْسَطُ. وخصَّ الطيرَ بالذِّكرِ من جُملةِ الحيوان ؛ لأنَّها تكون بين السَّماء والأرضِ ، وهي خارجةٌ عن جُملة مَن في السَّمواتِ والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلٌّ } ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاء ، { قَدْ عَلِمَ } ؛ اللهُ ؛ { صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ }. قال المفسِّرون : الصلاةُ لبني آدمَ ، والتسبيحُ عامٌّ لِما سواهم من الخلقِ. وفيه وجوهٌ مِن التأويلِ :

أحدُها : كلُّ مُصَلٍّ ومُسَبحٍ قد عَلِمَ اللهُ تعالى صلاتَهُ وتسبيحَهُ ، والثاني : أن معناهُ : كُلَّ مُصَلٍّ ومسبحٍ قد عَلِمَ صلاةَ نفسهِ وتسبيحَ نفسهِ ، والثالثُ : قد عَلِمَ كلٌّ منهم تسبيحَ اللهِ وصلاتَهُ ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

يَفْعَلُونَ } ؛ من الطاعةِ وغيرِها. وقولهُ تعالى : { وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له تقديرُهما وتدبيرُهما وتصريفُ أحوالِهما ، { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ؛ أي يُنْشِؤُهُ ويَسُوقُهُ سَوْقاً دفِيقاً قِطَعاً قِطَعاً ، { ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ } ؛ أي يجمعُ بين قِطَعِ السَّحاب المتفرقةِ ، والسَّحَابُ جمعٌ واحدهُ سَحَابَةٌ ، والتَّأْلِيْفُ ضَمُّ بعضٍ إلى بعض حتى يجعلَهُ قطعةً واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } ؛ أي مُتَرَاكِماً بعضهُ فوق بعضٍ ، { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ } ؛ أي ترَى المطرَ يخرجُ من وَسَطِهِ وأثنائِه ، والْخِلاَلُ جمعُ الْخَلَلِ مثل الجبال والجبل. قال الليثُ : (الْوَدْقُ الْمَطَرُ كُلُّهُ ، شَدِيْدُهُ وَهَيِّنُهُ ، وَخِلاَلُ السَّحَاب مَخَارِجُ الْقَطْرِ مِنْهُ). قرأ ابنُ عبَّاس والضحاك : (مِنْ خِلَلِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ } ؛ أي من جبلٍ في السَّماء ، وتلك الجبالُ من بَرَدٍ. قال ابنُ عبَّاس : (أَخْبَرَ اللهُ أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالاً مِنْ بَرَدٍ) ومفعولُ الإنزالِ محذوفٌ ، تقديرهُ : وينَزِّلُ اللهُ من جبالٍ بَرَدَ فيها ، واستغنَى عن ذكرِ المفعول للدلالة عليه ، ومِن الأُولَى لابتداء الغايةِ ، لأن ابتداءَ الإنزالِ من السَّماء ، والثانية للتبعيضِ ؛ لأن ما يُنْزِلُهُ اللهُ بعض تلك الجبالِ التي في السَّماء ، والثالثةُ لتبيين الجنسِ ؛ لأن جنسَ تلك الجبالِ البَرَدَ ، كما تقولُ : خَاتَمٌ مِن حديدٍ.

وكان عمرُ رضي الله عنه يقول : (جِبَالُ السَّمَاءِ أَكْثَرُ مِنْ جِبَالِ الأَرْضِ) ، { فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ } ؛ أي فيصيبُ بالبَرَدِ مَن يشاءُ فيهلكهُ ويهلِكُ زَرْعَهُ ، { وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ } ؛ فلا يضرُّهُ في زرعِهِ وثَمرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ } ؛ أي كادُ ضَوْءُ برقِ السَّحاب يذهبُ بالأبصارِ من شدَّة ضوئهِ وبريقه ولَمَعَانِهِ ؛ لأن مَن نَظَرَ إلى البرقِ خِيْفَ عليه ذهابُ البصرِ. قرأ أبو جعفر : (يُذْهِبُ بالأَبْصَارِ) بضمِّ الياء وكسر الهاء.

(٠/٠)

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } ؛ أي يقلِّبُها في الذهاب والْمَجِيءِ والزيادةِ والنُّقصان ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ } ؛ أي إنَّ في ذلك التقلُّب ، وفيما ذُكِرَ عِبْرَةً لذوي العقولِ من الناس ، يقالُ : فلانٌ صاحِبُ بَصَرٍ ؛ أي صاحبُ عَقْلٍ.

(٠/٠)

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ } ؛ من النُّطفةِ ، من ماءِ الذكر والأُنثى ، والْخَلْقُ من الماءِ أعجبُ ؛ لأنه ليس شيءٌ إلاّ وهو أشدُّ طَوْعاً من الماءِ ؛ لأنَّ الماءَ لا يُمكِنُ إمساكهُ بيدهِ ولا أن يَبْنِي عليهِ ولا أن يتخِذ منهُ شيءٌ. والمعنى : واللهُ خَلَقَ كلَّ حيوانٍ شاهد في الدُّنيا ، ولا تدخلُ الجنُّ والملائكةُ في هذا لأنَّا لا نشاهِدُهم.
وقولهُ تعالى : { فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ } ؛ كالحيَّاتِ والْهَوَامِ والحيتان ، وإنَّما قال فمنهم (مَنْ) تغليباً للعُقَلاءِ ، ولو كان لِمَا لا يعقلُ لقال : فمنهم مَن يَمشي على بطنهِ ، { وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ } ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ ، { وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } ؛ كالبهائمِ والسِّباعِ. والدَّابَّةُ اسمٌ لكلِّ حيوانٍ مِن مُمَيِّزٍ أو غيرهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ ظاهرُ المعنى ، قرأ الكوفيُّون غير عاصمٍ (وَاللهُ خَالِقُ) على الاسمِ.

(٠/٠)

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ } ؛ يعني القُرْآنَ هو مُبَيِّنُ الْهُدَى والأحكامِ ، { وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي يرشدُ مَن يشاءُ إلى دِين الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ وطريقُ رضَاهُ وجَنَّتَهُ.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا } ؛ يعني المنافقينَ يقولون صَدَّقْنَا بتوحيدِ الله وبالرَّسولِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأطَعْناهُما فيما حَكَمَا ، { ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ } ؛ أي ثُم تعرضُ طائفة منهم ، { مِّن بَعْدِ ذلِكَ } ؛ أي مِن بعد قولِهم آمَنَّا ، { وَمَآ أُوْلَئِكَ } ؛ الذين أعرَضُوا عن حكمِ الله ورسوله ، { بِالْمُؤْمِنِينَ }.

(٠/٠)

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } ؛ معناهُ : إذا دُعُوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكُمَ بينَهم الرسولُ فيما اختلفوا فيه ، { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ } ؛ عما يُدْعَوْنَ إليه ، نزلت هذه الآياتُ في بشْرِ المنافقِ وخصمِهِ اليهوديِّ حين اختصمَا في أرضٍ ، فجعلَ اليهوديُّ يجذبهُ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليحكُمَ بينَهما ، وجعلَ المنافقُ يجذبهُ إلى كعب بن الأشرفِ ، يقولُ : إنَّ مُحَمَّداً يَحِيْفُ عليه ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ } عن الكتاب والسُّنةِ.

(٠/٠)

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ } ؛ معناهُ : وإن يكن لَهم القضاءُ على غيرِهم يأتونَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم مُسرعينَ مطيعينَ مُنقادين لحكمهِ. والإذْعَانُ : الإقرارُ بالحقِّ مع الانقيادِ له. قال الزجَّاجُ : (الإذْعَانُ : الإسْرَاعُ مَعَ الطَّاعَةِ).

(٠/٠)

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ؛ لفظهُ لفظُ الاستفهامِ ، ومعناهُ التوبيخُ ، وذلك أشدُّ ما يكون في الذمِّ كما جاءَ في المبالغةِ في المدح : أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِيَعْنِي أنتُم كذلك.

(٠/٠)

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)

قولهُ : { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ؛ انتصبَ (قَوْلُ) على خبرِ كانَ ، واسْمُها { أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا }.
وذلك أن عَلِيّاً رضي الله عنه بَاعَ مِنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه أرْضاً بالْمَدِيْنَةِ لاَ يَنَالُهَا الْمَاءُ ، فَجَاءَ قَوْمٌ عُثْمَانَ فَنَدَّمُواْ عُثْمَانَ عَلَى مَا صَنَعَ وَقَالُواْ لَهُ : لاَ تَذْهَبْ فِي خُصُومَتِكَ مَعَ عَلِيٍّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَإِنَّهُ يَحْكُمُ لَهُ! فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ عُثْمَانُ ، وَتَحَاكَمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَضَى لِعَلِيٍّ رضي الله عنه ، فَأَبَى قَوْمُ عُثْمَانَ أَنْ يَرْضُواْ بقَضَائِهِ ، فَقَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه : { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي سَمعنا قولكَ يا رسولَ اللهِ وأطَعْنا أمرَكَ ورضينا بحُكمِكَ وقضائِكَ ، وإنْ كان ذلك فيما يكرهونَهُ ويضرُّ بهم. وقولهُ تعالى : { وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ؛ يعني الرَّاضِينَ بقضاءِ الله ورسوله.
فلما نزلَتْ هذه الآيةُ أقْبَلَ عثمانُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : (يَا رَسُولَ اللهِ ؛ وَاللهِ لَئِنْ شِئْتَ لأَخْرُجَنَّ مِنْ أرْضِي كُلِّهَا الَّتِي أمْلِكُهَا وَأدْفَعُهَا إلَيْهِ) فأنزلَ اللهُ تعالى : { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ } ؛ معناهُ : ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فيما ساءَهُ وسرَّهُ ويخشَ الله فيما مضى من ذنوبهِ ويتَّقِ اللهَ فيما بعدُ فلم يَعْصِ اللهَ ، { فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْفَآئِزُون } ، برضَى الله وحسناتهِ.

(٠/٠)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

وقولهُ : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } ؛ أي حَلَفُوا باللهِ وبالَغُوا في القَسَمِ ، { لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ } ، مِن مالِهم كلِّه لفَعَلُوا ، { قُل } لَهم : { لاَّ تُقْسِمُواْ } ؛ أي لا تَحْلِفُوا ، وتَمَّ الكلامُ ها هنا. ثُم قالَ : { طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ } ؛ أي هذا القولُ منكم يعني القَسَمَ طاعةٌ حَسَنَةٌ.
وقال بعضُهم : هذه الآيةُ نزلت في المنافقينَ ؛ كانوا يَحْلِفُونَ لَئِنْ أمَرَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالخروجِ إلى الجهادِ ليخرجُنَّ ، ولَم يكن في نيَّتِهم الخروجُ ، فقيلَ لَهم : لا تُقسِمُوا طاعةٌ معروفة مِثْلُ من قَسَمِكُمْ بما لا تصدِّقون ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ يعني عَلِيْمٌ بما تعملون مِن طاعتكم بالقولِ " و " مخالفتكم بالفعل.

(٠/٠)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

وقولهُ تعالى : { قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } ؛ ظاهرُ المعنى ، وقولهُ تعالى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ } ؛ أي فإن أعرَضُوا عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسوله فإنَّما على الرسولِ ما حُمِّلَ من التبليغِ وأداءِ الرسالة ، وعليكم ما حُمِّلْتُمْ من الطاعةِ ، { وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ } ؛ أي ليس عليهِ إلاَّ أن يُبَلِّغَ ويُبَيِّنَ لكم.

(٠/٠)

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ نزلت هذه الآيةُ في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أقَامُوا بمَكَّةَ مدَّةً قبلَ الهجرةِ لا يُمكِنُهم إظهارُ الإسلامِ ، ولا أُذِنَ لَهم في القتالِ ، وكذلك بعدَما هاجَرُوا إلى المدينةِ وَآوَتْهُمُ الأنصارُ ، رَمَتْهُمُ العربُ عن قوسٍ واحدة ، وكانوا لا يَبِيْتُونَ إلاّ مع السِّلاحِ ولا يُصبحُونَ إلاَّ فيه. فجاءَ رجلٌ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أهَكَذا جَالَدتَّنَا أبَداً ؟ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ } أي لَيُبَوِّأَنَّهُمْ أرضَ المشركين من العرب والعَجَمِ كما استخلفَ بني اسرائيلَ بأرضِ مِصْرَ والشَّام بعدَ إهلاكِ الجبابرة بأَنْ أورثَهم أرضَهم وديارَهم وجعلهم سُكَّاناً ومُلُوكاً.
وقولهُ تعالى : { وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ } ؛ أي ولِيُوَسِّعَ لَهم البلادَ حتى يَملكُوها ويُظْهِرَ دِينَهم على جميعِ الأديانِ ، { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } ؛ وقولهُ تعالى : { يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً } ؛ يجوزُ أن يكون في موضعِ نصبٍ على الحال ؛ أي لأَفْعَلَنَّ ذلك في حالِ عِبَادتِهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }. وقولهُ تعالى : { وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ ظاهرُ الْمُرَادِ.

(٠/٠)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي ولا تَحْسَبَنَّ كفارَ مكة يا مُحَمَّدُ فَائِتِيْنَ من عذاب الله أو يفُوتُنَا هَرَباً ، فقدرةُ اللهِ تعالى محيطةً بهم ، { وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ }.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ } ؛ أي لِيَسْتَأْذِنْكُمْ في الدُّخولِ عليكم عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ منك أي مِن أحرارِكم من الرِّجال والنساءِ ، والمعنى : لَيَسْتَأْذِنْكُمْ عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ من صغيرِ أولادِكم من الأحرارِ في الدُّخول عليكم في ثلاثِ أوقاتٍ من الليلِ والنهارِ يكون الغالبُ فيها كشفُ العوراتِ.

ثُمَّ بَيَّنَ الأوقاتَ الثلاث فقال : { مِّن قَبْلِ صَلاَوةِ الْفَجْرِ } ؛ أي وقتَ القيامِ مِن المضاجع والتَّهَيُّؤِ للصَّلاةِ بالطهارةِ ، { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ } ؛ وهو وقتُ القَيْلُولَةِ ، { وَمِن بَعْدِ صَلاَوةِ الْعِشَآءِ } ؛ أرادَ به العشاءَ الأخيرةَ ، وهذه الأوقاتُ الثلاثة : { ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ } ؛ لأنَّ الإنسانَ يضعُ ثيابه فيها في العادةِ.

من قرأ (ثَلاَثُ) بالرفع ، فمعناه : هذه الأوقاتُ الثلاثة ثلاثُ عوراتٍ لكم. ومَن قرأ (ثَلاَثَ) بالنصب جعلَهُ بدَلاً من قولهِ (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ). قال السديُّ : (كَانَ أُنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُعْجِبُهُمْ أنْ يُوَاقِعُواْ نِسَاءَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ الثَّلاَثِ لِيَغْتَسِلُواْ ثُمَّ يَخْرُجُواْ إِلَى الصَّلاَةِ ؛ فَأَمَرَهُمُ اللهُ أنْ يَأْمُرُواْ الْغِلْمَانَ وَالْمَمَالِيْكَ أنْ يَسْتَأْذِنُواْ فِي هَذِهِ الثَّلاَثِ سَاعَاتٍ إذا دَخَلُواْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ } ؛ أي لا جناحَ عليكم ولا عليهم في أنْ لاَ يستأذِنُوا في غيرِ هذه الأوقات.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ } ؛ أي طَوَّافُونَ عليكم يدخلُونَ ويخرجون ويذهبون ويجيئون ويتردَّدُون في أحوالِهم واشتغَالِهم بغيرِ إذنٍ ، يريدُ أنَّهم خَدَمُكُمْ ، شئ فلا بأسَ أن يدخلُوا في غيرِ هذه الأوقات بغيرِ إذن. قال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : يَطُوفُ بَعْضُهُمْ وَهُمُ الْمَمَالِيْكُ عَلَى بَعْضٍ وَهُمُ الْمَوَالِي).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ } ؛ أي هكذا يُبَيِّنُ اللهُ لكم الدَّلالاتِ والأحكامِ في أمر الاستئذان ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بمصالحِ العباد ، { حَكِيمٌ } ؛ فيما حَكَمَ من استئذانِ الْخَدَمِ في هذه الأوقاتِ الثلاثة.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ } ؛ معناهُ : إذا بَلَغَ الأطفالُ مِن أحرارِكم وعبيدكم فليستأذِنُوا في جميعِ الأوقات وفي عمومِ الأحوال ، { كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ المذكورين مِن قَبْلِهم على ما بَيَّنَ اللهُ في كتابهِ ، يعني بقوله ؛ الأحرارُ الكبارُ الذين أُمِرُوا بالاستئذانِ على كلِّ حالٍ في قوله{ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا }[النور : ٢٧] فليس للعبدِ البالغ أن يدخلَ مَنْزِلَ مولاهُ ولا للولدِ البالغِ أن يدخلَ على أُمِّهِ وعلى ذاتِ محارمه في كلِّ وقتٍ بإذن { كَذالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }.

(٠/٠)

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ اللَّاتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ } ؛ معناهُ : والقَوَاعِدُ من النِّساءِ اللاتِي قَعَدْنَ عن الحيضِ من الكِبَرِ وهنَّ العجائزُ اللاتِي لا يُرِدْنَ النكاحَ لكِبَرِهنَّ ، فليس عليهنَّ حرجٌ فِي ، { أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ } ؛ يعني الْجِلْبَابَ والرِّداءَ والقناعَ الذي فوقَ الخِمَارِ لأجلِ الثياب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ } ؛ التَّبَرُّجُ : أن تُظْهِرَ المرأةُ مَحَاسِنَهَا مِن وجهِها وجَسَدِها ، والمعنى من غير أنْ يُرِدْنَ بوضعِ الجلباب أن يُرَى زينَتُهن. قال مقاتلُ : (لَيْسَ لَهَا أنْ تَضَعَ الْجِلْبَابَ ، تُرِيْدُ بذلِكَ أنْ تُظْهِرَ قَلاَئِدَهَا وَقِرْطَهَا وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الزِّيْنَةِ).

وقولهُ تعالى : { وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ } ؛ معناهُ : وأن يَسْتَعْفِفْنَ فلا يضعْنَ الجلبابَ في الْمِلاَءَةِ والقِنَاعِ فهو خيرٌ لَهنَّ مِن أن يَضَعْنَ ، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } ؛ مقالةَ العبادِ ، { عَلِيمٌ } ؛ بأعمالِهم. يقالُ : امرأةٌ عِدَادٌ أُقْعِدَتْ عنِ الحيضِ ، فإذا قالَ : قَاعِدَةٌ بالهاءِ أراد به جالسةً ، والجمعُ فيهما جميعاً قَوَاعِدُ.

(٠/٠)

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ } ؛ وذلك أنَّ المسلمينَ كانوا إذا غزَوا خلَّفُوا أزْمانَهم وكانوا يدفعونَ إليهم المفاتيحَ ويقولونَ لَهم قد أبَحْنَا لكم أن تأكُلُوا مِما في بُيُوتِنَا ، فكانوا يتحرَّجُون مِن ذلك ويقولونَ : لا ندخُلُها وهم في غَيْبٍ امتثالاً لقوله تعالَى{ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ }[النساء : ٢٩] فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ رُخصَةً لَهم.

ومعناها : نَفْيُ الحرجِ عن الزَّمْنَى في أكْلِهم من بيوتِ أقاربهم أو بيوتِ مَن يدفعُ إليهم المفتاحَ إذا خرجَ للغَزْوِ وخَلَفَهُ بحفظِ ماله ؛ لأنَّهم كانوا يتحَرَّجون أن يأكلُوا مما يحفظونَهُ ، فأَعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى أنه لا جُنَاحَ عليهم في ذلكَ.

وذهبَ الحسنُ إلى أن معنى الآيةِ : (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيْضِ حَرَجٌ فِي تَرْكِ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ } ؛ أي لا حرجَ عليكم أن تأكلوا من بيتكم ، أرادَ بهذا بيوتَ أبنائِكم ونسلهم ، وإنَّما أضافَ بيوتَ الأبناءِ إليهم لأنَّهم مِن أنفسهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " أنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيْكَ " ولِهذا قابلَهُ ببيوتِ الآباء ، فقالَ : { أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ } ؛ ولَم يقل بيوتَ أبنائكم ، فعُلِمَ أن المرادَ بقوله : { وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ } أي بيوتِ أبنائِكم وأزواجِكم ، وبيتُ المرأةِ كبيت الزَّوجِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ } ؛ أخرجَ الكلامَ على وفْقِ العادةِ ؛ لأن الغالبَ مِن أحوالِ هؤلاء أن تَطِيْبَ أنفسُهم بذلكَ ، فجازَ الأكلُ مِن بيوتِهم بغيرِ إذنٍ لدلالة الحالِ.

فأمَّا إذا عَلِمَ أن صاحبَ البيت لا تطيبُ نفسهُ بذلكَ ، لا يحلُّ له أن يتناولَ شيئاً من ذلكَ ، { أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ } ؛ يعني بيوتَ عبيدِكم وإمائكم ، وذلك أن السيِّدَ يَملِكُ بيتَ عبدهِ ، أو الْمَفَاتِحُ معناها الخزائنُ ، كقولهِ تعالى{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ }[الأنعام : ٥٩] أي خزائنُ الغيب.

ومعناهُ : المفاتيحُ التي يُفْتَحُ بها الخزائنُ ، يعني بذلك الوكلاءَ والأُمَنَاءَ والعبيدَ الذين يَملكون أمرَ

الخزائنِ وتكون مفاتِحُها بأيديهم ، فليس عليهم في الأكلِ جُنَاحٌ إذا كان أكْلاً يَسيراً مثل أن يأكُلَ مِن ثَمَرِ حائطٍ يكون قَيِّماً عليه أو يشربَ مِن لبنِ ماشية يكون قَيِّماً عليها. وقال السديُّ : (الرَّجُلُ يُوَلِّي طَعَامَهُ غَيْرَهُ يَقُومُ عَلَيْهِ ، فَلاَ بَأْسَ أنْ يَأْكُلَ مِنْهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ صَدِيقِكُمْ } ؛ يعني صَدِيْقاً يسرُّهُ أن يأكلَ من طعامِهِ ، وإنَّما أطلقَهُ على عادةِ الصحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كما روي في سبب نزُول هذا : أنَّ مَلِكَ بْنَ يَزِيْدٍ وَالْحَارِثَ بْنَ عَمْرٍو كَانَا صَدِيْقَيْنِ ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ غَازِياً وَخَلَّفَ مَالِكاً فِي أهْلِهِ وَخَزَائِنِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنَ الْغَزْوِ رَأى مَالِكاً مَجْهُوداً ، قَالَ : مَا أصَابَكَ ؟ قَالَ : لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي أنْ آكُلَ مِنْ مَالِكَ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ صَدِيقِكُمْ }.

(٠/٠)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ } ؛ في الآية ثَنَاءٌ على المؤمنين ، وإذا كانُوا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في أمرٍ جامع ؛ أي في أمرِ طاعةٍ يجتمعون عليه لِحَقِّ الْجُمُعَةِ وصلاةِ العيدين والْجِهَادِ وأشباهِ ذلك ، { لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ }.

قال المفسِّرون : كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا صَعَدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَأرَادَ الرَّجُلُ أنْ يَخْرُجَ لِطَاعَةٍ أوْ عُذْرٍ ؛ لَمْ يَخْرُجْ حَتَّى يَقُومَ بحِيَالِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حَيْثُ يَرَاهُ ، فَيَعْرِفَ أنَّهُ إنَّمَا قَامَ لِيَسْتَأْذِنُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ. قال مجاهدُ : (وَإذا أذِنَ الإمَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أنْ يُشِيْرَ بيَدِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ نزلَتْ في عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه حِيْنَ اسْتَأْذَنَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فِي الرُّجُوعِ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إلَى الْمَدِيْنَةِ لِعِلَّةٍ كَانَتْ بِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ } ؛ قِيْلَ : إنَّ هذا منسوخٌ بقوله تعالى{ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ }[التوبة : ٤٣] ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ } ؛ أي استغفِرْ لِهؤلاء المستأذِنين إذا استأذنوكَ لعُذرِهم ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ للنَّاسِ ، { رَّحِيمٌ } ؛ بهم.

(٠/٠)

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً } ؛ أي ادْعُوهُ بالْخُضوعِ والتعظيمِ ، وقولوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ ويَا نَبيَّ اللهِ ، في لِيْنٍ وتواضعٍ وخَفْضِ صوتٍ ، ولا تقولُوا : يا مُحَمَّدُ! ولا يا أبَا القَاسِمِ! كما يدعُو بعضُهم بعضاً باسْمِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً } ؛ أرادَ به المنافقين ، كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَابَهُمْ فِي خُطْبَتِهِ ، فَإذا سَمِعُواْ ذلِكَ نَظَرُواْ يَميناً وَشِمَالاً ، فَإنْ أبْصَرَهُمْ أحَدٌ لَمْ يَقُومُواْ ، وَإنْ لَمْ يُبْصِرْهُمْ أحَدٌ قَامُواْ فَخَرَجُواْ مِنَ الْمَسْجِدِ يَتَسَلَّلُونَ. وَالتَّسْلُّلُ الْخُرُوجُ فِي خِفْيَةٍ.

وَاللِّوَاذُ : أن يَسْتُرَ بعضهُ بعضاً ثُم يَمضِي ، يقالُ : لاَوَذْتُ بفُلاَنٍ مُلاَوَذةً وَلِوَاذاً. قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ أنْ يَلُوذ بغَيْرِهِ فَيَهْرُبَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذانٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ } ؛ أي لِيَحْذر الذين يُعرِضُونَ عن أمرِ الله ويخالِفُون في أمرِهِ ، { أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } ؛ أي بَلِيَّةٌ ، { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } في الآخرةِ.

(٠/٠)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له كلُّ ذلك مُلْكاً وقدرةً وإحاطة ، { قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ } ؛ أي يعلمُ ما يُبْدِيْهِ كلٌّ منكم وما يخفِيه ، وقولهُ تعالى : { وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ } ؛ معناهُ : يعني يَعْلَمُ يومَ يُبعثونَ متى هو ، { فَيُنَبِّئُهُمْ } ؛ فيهِ ؛ { بِمَا عَمِلُواْ } ؛ أي يجزيَهم بما عملوا في دارِ الدُّنيا ، { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ } ؛ من أعمالِ العباد وغيرِ ذلك.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ النُّورِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا بَقِيَ ".

(٠/٠)

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)

{ تَبَارَكَ } ؛ أي عَظُمَتْ وكَثُرَتْ بركاتُ اللهِ. والبَرَكَةُ : هي الخيرُ الكثيرُ. وَقِيْلَ : معناهُ : تَبَارَكَ : أي تَعَالَى ، قولهُ : { الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ } ؛ أي الذي نَزَّلَ جبريلَ بالفُرْقَانِ ، { عَلَى عَبْدِهِ } ، مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } ؛ أي مُعْلِماً بموضع المخافةِ. والفُرْقَانُ : البيانُ الذي يُفَرِّقُ بهِ بين الحقِّ والباطلِ ، ويَزْجُرُ عن القبائحِ ، ويدعُو إلى الْمَحاسنِ ، ويعني بالعالمينَ : الْجِنَّ والإنسَ.

(٠/٠)

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي للهِ خزائنُ السَّمواتِ والأرض والقدرةُ على أهلِها ، { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً } ؛كما قال اليهودُ والنصارى والمشركونَ ، { وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } ؛ فيعاونهُ على مُلكِهِ ، { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } ؛ أي قَدَّرَ طُولَهُ وعَرْضَهُ ولونَهُ ورزقَهُ وأجَلَهُ.

(٠/٠)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } ؛ فمعناه : واتخذ كفارُ مكَّة من دونِ اللهِ آلِهَةً يعبدونَها ؛ هي الأصنامُ لا يقدرونَ أن يخلِقُوا شيئاً وهم يُخلقون ، ما مِن شيء يكون منها من ذهبٍ أو فضَّةٍ أو صفر أو خشبٍ إلاّ واللهُ خالِقُها ، { وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً } ؛ أي لا يَملكون الأصنامَ لأنفُسِها دفعَ ضُرٍّ ولا جَرَّ نفعٍ ؛ لأنَّها جَمَادٌ لا قدرةَ لَها ، { وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً } ؛ أي لا يَملِكُ أن يَموتَ أحدٌ ولا يحيي أحد ، ولا تَملِكُ بعثاً للأمواتِ ، فكيفَ يعبدُ هؤلاء

مَن لا يقدرُ على أن يفعلَ شيئاً مِن هذا ؟ ويتركونَ عبادةَ ربهم الذي يَملِكُ ذلك كلَّه. يقالُ : أنْشَرَ اللهُ الأمواتَ فَنَشَرُواْ ؛ أي أحيَاهُم فحيُوا.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَاذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } ؛ أي قال الذينَ كفروا : ما هذا القُرْآنُ إلاّ كذبٌ اختلقَهُ مُحَمَّدٌ مِن تلقاءِ نفسه وأعَانَهُ عَلَيْهِ قومٌ آخرون مِن أهل الكتاب ، يعنونَ (جَبْراً) مولَى لقريشٍ ، ويسارَ أبا فُكَيهَةَ مولَى لبنِي الحضرميِّ ، وعَدَّاساً مولَى لحويطبَ بنِ عبد العزَّى ، كان هؤلاء يقرأونَ التوراةَ قبل أن يُسْلِمُوا ، فلما أسلَمُوا رأوا التوراةَ تشبهُ القُرْآنَ ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَمُرُّ بهم ويتعاهَدُهم ، فمِن ذلك قال الكفارُ : وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً } ؛ أي قال الكفارُ هذه المقالةَ شِرْكاً وكَذِباً ، زعَمُوا أن القُرْآنَ ليس مِنَ اللهِ ، والمعنى : فقد جاءُوا بظُلْمٍ وزوراً فيما قالُوا ، فلمَّا سقطَتِ الباءُ أفضَى إليه الفعلُ فنصَبهُ.
والزُّورُ : وضعُ الباطلِ في موضعِ الحقِّ.

(٠/٠)

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي قالَ النَّضرُ بن الحارث وأصحابهُ : هذا القُرْآنُ أحاديثُ الأوَّلين في دَهْرِهم كما كنتُ أحدِّثُكم عن الأعاجمِ ، { اكْتَتَبَهَا } ؛ مُحَمَّدٌ أي أنسَخَها من عداسٍ وجبرٍ ويسار ، { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ } ؛ فهي تُقْرَأُ عليه ، { بُكْرَةً وَأَصِيلاً } ؛ أي أمَرَ أن يَكْتُبَ له فهي تقرأ عليه غدوةً وعشيَّة ليحفظَها.

(٠/٠)

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَنزَلَهُ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : أَنْزَلَ القُرْآنَ { الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ، لا يخفَى عليه شيءٌ فيهما ، { إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً } ؛ لِمَن تابَ وآمنَ ، { رَّحِيماً } ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ مَالِ هَاذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ } ؛ أي قال المشركون على وجهِ الذمِّ والتَّعيير للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : ما لِهذا الرسولِ يأكلُ مِما يأكلُ الناس ، ويَمشي في الطُّرُقِ كما نَمشي لطلب المعيشة. والمعنى : أنه ليسَ بمَلَكٍ لأن الملائكةَ لا تأكلُ ولا تشرب ، والملوك لا يسبقون ، { لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } ؛ يكون معهُ شريكاً في النبوَّة ، { أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ } ؛ ينتفعُ به ، { أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا } ؛ مِن ثَمرها ، يعني بُستاناً يأكلُ من ثَمره ، ومعنى قولهِ تعالى { أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ } أي يَنْزِلُ عليه مالٌ ينفعهُ ولا يحتاجُ إلى طلب المعاش. وقولهُ تعالى { يَأْكُلُ مِنْهَا } قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفُ بالنُّون ؛ أي نَأْكُلُ من جنَّتِهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } ؛ أي قالَ المشركون للمؤمنينَ : ما تَتَّبعُونَ إلاّ رَجُلاً مَخدُوعاً مغلوباً على عقلهِ قد سُحِرَ وأُزيلَ عنه الاستواءُ.

(٠/٠)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ } ؛ معناهُ : انْظُرْ يا مُحَمَّدُ كيفَ ضرَبُوا لكَ الأمثالَ ، يعني : مَثَّلُوهُ بالمسحورِ وبالْمُحتاجِ. وَقِيْلَ : معناهُ : انظُرْ كيفَ وصَفُوا لكَ الأشياءَ : إنكَ ساحرٌ وكاهن

وكذابٌ وشاعر ومجنونٌ ، فَضَلُّوا عن الصواب والْهُدَى وأخطاؤا النسبةَ ، { فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } ؛ أي فلا يَجِدُونَ طريقاً إلى إلزامِ الحجَّةِ ولا مَخْرَجاً لأنفُسِهم بإثباتِ العُذْر في تركِ الإيْمَانِ به ، وذلك أنَّهم جعَلُوا معذرَتَهم في ذلكَ أشياءَ ليست بعُذرٍ.

أما أكلُ الطَّعامِ فإنه كان في الرُّسُلِ قبلَهُ ، فلم يكن ذلك عُذْراً في تركِ الإيْمَانِ به ، ولو أنْزَلَ مَلَكاً لكان يحتاجُ إلى أن يَنْزِلَ من السَّماءِ ويتردَّدُ في الأرضِ لتبليغِ الرسالةِ ، كما قالَ تعالى{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً }[الأنعام : ٩] ولو جُعِلَ الْمَلَكُ شَريكاً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم مُعاوناً له في الإنذارِ ، أدَّى ذلك إلى استِصْغَارِ كلِّ واحد منهما في أنهُ لا يكون كلُّ واحد منهما قائماً بنفسهِ في أداءِ الرسالة.

وأما الكَنْزُ فإنه قد وَجَدَ كثيرٌ مِن الفراعنةِ ولَم يوجِبْ ذلك اتباعَهم ، وعُدِمَ مع كثير من الأنبياء الذين أقرَّ الخلقُ برسالَتِهم ، وكذلكَ الحياةُ ؛ ولأن الأنبياءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إنَّما يُبعثون لتزهيدِ الناس في الكنُوز والحياة ، وترغيبهم في الآخرةِ ، فكيف يجوزُ أن يَمنَعُوا الناسَ عنه ويشتَغِلوا به هُم؟

(٠/٠)

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : " وَذلِكَ أنَّ مَلَكاً أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَالَ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنَّ اللهِ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أنْ يُعْطِيْكَ خَزَائِنَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَفَاتِيْحَ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ قَبْلَكَ ، وَلَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ بَعْدَكَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُنْقِصَكَ شَيْئاً مِمَّا ادَّخَرَ لَكَ فِي الآخِرةِ ، وَبَيْنَ أنْ يَجْمَعَهَا لَكَ فِي الآخِرَةِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " بَلْ يَجْمَعُهَا لِي فِي الآخِرَةِ) ".

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " خَيَّرَنِي جِبْرِيْلُ بَيْنَ أنْ أكُونَ نَبيّاً مَلِكاً وَبَيْنَ أنْ أكُونَ نَبيّاً عَبْداً ، فَاخْتَرْتُ أنْ أكُونَ نَبيّاً عَبْداً ؛ أشْبَعُ يَوْماً وَأجُوعُ يَوْماً ، أحْمَدُ اللهَ إذا شَبِعْتُ ، وَأتَضَرَّعُ إلَيْهِ إذا جِعْتُ ".

و "كان صلى الله عليه وسلم يَأكُلُ عَلَى الأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ النَّعْلَ ، وَيُرَقِّعُ الثَّوْبَ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ، وَكَانَ قَدْ مَاتَ ذِكْرُ الدُّنْيَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَقُولُ : (وَا عَجَباً كُلَّ الْعَجَب لِلْمُغْتَرِفِ بدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَعْمَلُ لِدَارِ الْغُرُور) ".

ومعنى الآية : تَبَارَكَ وتعالى إنْ شاءَ يجعلُ لكَ خيراً مما قالوهُ في الدُّنيا من جناتٍ وقصُورٍ ، وإنْ شاءَ يجعل لكَ قصُوراً في الدُّنيا ؛ أي لو شاءَ جعلَ لك أفضلَ من الكنْزِ والبستان الذي ذكَرُوا ، ويجعل لكَ جناتٍ تجري من تحتِها الأنْهارُ يعني في الدُّنيا ؛ لأنه قد شاءَ أن يعطيَهُ في الآخرةِ.

وقولهُ تعالى { وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً } مَن قرأ بالجزمِ ، كان المعنى إن شاءَ جَعَلَ لكَ الجناتِ ويجعل لك

قصُوراً في الدُّنيا ، لأنه قد شاءَ ، وإنَّما لَم يجعلِ الحكمةَ التي أوجبت لك. قرأ ابنُ كثير وابن عامر وعاصمُ : (وَيَجْعَلُ) بالرفعِ على الاستئناف بمعنى : وسيجعلُ لكَ قصُوراً في الجنَّةِ في الآخرةِ. والقُصُورُ : هي البيوتُ المشيَّدَةُ ، سُمِّي القَصْرُ قَصْراً ؛ لأنه قُصِرَ ومُنِعَ مِن الوُصولِ إليه.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : " لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالْفَاقَةِ فَقَالُواْ : مَا لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ، وَيَمْشِي فِي الْمَعَاشِ ، تَعِبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذلِكَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام مُعَزِّياً لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ : { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ } [الفرقان : ٢٠] لِطَلَبِ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا.

فَبَيْنَمَا جِبْرِيْلُ وَالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَحَدَّثَانِ إِذْ أَقْبَلَ رضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ مِنْ نُورٍ يَتَلأْلأُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ ، وَيَقُولُ لَكَ : هَذِهِ مَفَاتِيْحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا مَعَ أَنَّهُ لاَ يُنْقَصُ حَظُّكَ فِي الآخِرَةِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَنَظَرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى جِبْرِيْلَ مُشِيْراً ، ثُمَّ قَالَ : " يَا رضْوَانُ ؛ لاَ حَاجَةَ لِي فِيْهَا ، الْعَفْوُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَنْ أَكُونَ عَبْداً صَابراً شَكُوراً حَامِداً مِنَ السَّمَاءِ " فَرَفَعَ جِبْرِيْلُ رَأْسَهُ ، فَإِذا السَّمَوَاتُ قَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا إِلَى الْعَرْشِ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ أَنْ تُدْلِي أَغْصَانَهَا ، فَإِذا غُرْفَةٌ مِنْ زُبُرْجُدَةٍ خَضَرَاءَ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ بَابٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ بَصَرَكَ ، فَرَفَعَ فَرَأَى مَنَازِلَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ فَصَلَ بهَا مِنْ دُونِهِمْ ، وَإِذا بمُنَادٍ : أَرَضِيْتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " قَدْ رَضِيْتُ ".

(٠/٠)

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً } ؛ معناهُ : لا يستطيعونَ سَبيلاً إلى إلزامِ الْحجَّةِ وإثباتِ المعذرةِ ، ولكن كَذبُوا بالسَّاعةِ ، وأعْتَدْنَا لِمَنْ كذبَ بقيامِ السَّاعة ناراً مُسَعَّرَةً ، { إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } ؛ من مسيرةِ خَمسمائةِ عامٍ ، { سَمِعُواْ لَهَا } ؛ للنارِ غَلَيَاناً ، { تَغَيُّظاً وَزَفِيراً } ؛ كَتَغَيُّظِ بَنِي آدمَ ، وصَوْتاً كالزَّفيرِ عند شدَّةِ التهَابها واضطِرَابها ، وإنَّما قال { إِذَا رَأَتْهُمْ } وهم يرونَها على معنى : كأنَّها تراهمُ رؤيةَ الغَضْبَانِ الذي يَزْفِرُ غَيْظاً. قِيْلَ : إنَّها لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لا يبقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ إلاّ خرَّ لوجهِهِ.

(٠/٠)

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُور } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُطْبَقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُطْبَقُ الزَّجُّ فِي الرُّمْحِ ، قال صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ إنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ ". والمعنَى : إذا طُرِحُوا في مكانٍ ضَيِّقٍ من النَّارِ مُقَرَّنِيْنَ ؛ أي مَغْلُولِيْنَ قد قُرِّنَتْ أيدِيهم من الجنِّ والإنسِ يقُولُونَ : وَا ثُبُورَاهُ ، وَاهلاكاهُ.

وفي الخبرِ : أنَّهم إذا أُلْقُوا على باب جهنَّمَ ، وتضايقَ عليهم كتضايُقِ الزَّجِّ في الرُّمحِ ، فيزدَحِمونَ في تلكَ الأبواب الضيِّقة ، يرفَعُهم اللَّهَبُ وتخضِعُهم مقامعُ ملائكةِ العذاب ، فعند ذلك يَدْعُونَ بالويلِ والثُّبُورِ ، ويقالُ لَهم : { لاَّ تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً } ؛ فإنَّ سببَ الثُّبور دائمٌ لا ينقطعُ.

(٠/٠)

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَذالِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ } ؛ أي قُلْ أذلكَ العذابُ والسَّعيرُ خيرٌ أم جَنَّةُ الْخُلْدِ التي وُعِدَ الْمُتَقُونَ ، وهذا على طريقِ التعجُّب والتبعيدِ لا على طريقِ الاستفهام ؛ لأنه ليس في السعير خيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً } ؛ أي كانت الجنَّةُ للمتقينَ جزاءً ومرْجِعاً في الآخرةِ ، { لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ } ؛ أي لَهم في جنَّةِ الْخُلْدِ ما يشاؤُون ، { كَانَ } ؛ ذلك الْخُلْدُ ، { عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً } ؛ وذلكَ أم المؤمنين سألُوا ربَّهم في الدُّنيا حين قالوا{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ }[آل عمران : ١٩٤] فقالَ اللهُ تعالى : كان إعطاءُ اللهِ للمؤمنين جنَّةَ الْخُلْدِ وَعْداً وَاجِباً ، وذلكَ أمِ المسؤولُ واجبٌ ، وإن لَم يُسأَلْ كالدَّين ، ونظيرهُ قولُ العرب : أعطيتُكَ ألْفاً وَعْداً مسؤُولاً ، يعني أنه

واجبٌ لكَ فَسْأَلْهُ. وَقِيْلَ : معنى الوعدِ المسؤولِ : أنَّ الملائكةَ تسألُ لَهم ذلكَ ، يقولون{ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ }[غافر : ٨].

(٠/٠)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ يعني كفارَ مكَّةَ وسائرَ المشركين مِمَّن كان يعبدُ غيرَ اللهِ ، يعني : الذين يعبدونَ الملائكةَ وعُزيراً وعيسى والأصنامَ ، فيقولُ اللهُ تعالى للكفارِ : لِماذا عبدتُم غَيرِي ؟ فيقولونَ : لأنَّهم أمَرُونا بعبادَتِهم ، { فَيَقُولُ } اللهُ تعالى للملائكة ولعيسى ولعُزَير على وجه التَّنكيتِ والتقريع للكفارِ : { أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ } ؛ حتى عَبَدُوكم وأنتم أمَرْتُموهم بعبادتِكم ، { أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } ؛ وأخطَأوُا الطريقَ بهوَى أنفُسِهم ؟ ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ }[المائدة : ١١٦].

(٠/٠)

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ } ؛ أي قالُوا تَنْزِيهاً لكَ مِن أن نعبدَ غيرَك ، وما ينبغِي لنَا ولعابدنا أن نَتَّخِذ مِن دونِكَ من أولياءَ ، فكيفَ جازَ لنا أن نأْمُرَهم يعبدونَنا دونكَ ، { وَلَاكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حَتَّى نَسُواْ الذِّكْرَ } ؛ ولكن طَوَّلْتَ أعمارَهم ووسَّعتَ لَهم في الرِّزقِ وأمهَلتَهم في الكُفرِ حتى غيَّروا بذلكَ وتركوا التوحيدَ والطاعة ، ونَسُوا القُرْآنَ ، { وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً } ؛ أي هَلْكَى فَاسِدِي القلوب. والبُوَارُ هو الهلاكُ ، والبَوْرُ الفاسدُ ، والأرضُ البَائِرُ هي التي عُطِّلَتْ عن الزراعةِ. وَقِيْلَ : معناهُ { وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً } : أي هَالِكين فاسِدين قد غَلَبَ عليهم الشَّقاءُ والْخُذْلاَنُ ، ومنه بَوَارُ السِّلعةِ ، والإثم إذا كَسَدَ فَسَدَ.
قرأ أبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ ويعقوب : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) بالياء ، وقولهُ تعالى (ومَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ) ، قرأ الحسنُ وأبو جعفرٍ (نُتَّخَذ) بضمِّ النون وفتحِ الخاء.

(٠/٠)

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ } ؛ أي كذبَكم المعبودُ بقولِكم : إنَّها آلِهَةٌ شركاءُ اللهِ ، ومَن قرأ (بمَا يَقُولُونَ) بالياء ؛ فالمعنى : كذبُوهم بقولِهم{ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ }[الفرقان : ١٨]. قال عكرمةُ والضحَّاك والكلبيُّ : (يَأْذنُ اللهُ لِلأَصْنَامِ فِي الْكَلاَمِ وَيُخَاطِبُهَا فَيَقُولُ : أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ أَمَرْتُمُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاكُمْ ؟ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ السَّبِيْلَ ؟ قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ؛ أي أَطَلْتَ أَعْمَارَهُمْ وَوَسَّعْتَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ؛ أي تَرَكُوا القُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلُواْ بمَا فِيْهِ). وَقِيْلَ : نَسُوا الإِيْمَانَ والتوحيدَ ، وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ، فيقول اللهُ للمشركينَ : { فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً } ؛ أي لا يقدِرُون على صَرْفِ العذاب عن أنفُسِهم ولا على نَصْرِ أنفسهم ، ودفعِ العذاب والبلاءِ الذي هم فيه ، ولا أن ينتَصِرُوا مِن مَعبُودِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً } ؛ أرادَ بالظُّلْمِ الشركَ ، ومَن يُشْرِكْ باللهِ نُذِقَهُ فِي الآخرةِ عَذاباً شَديداً.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ } ؛ أي يأكلونَ كما تأكلُ أنتَ ، ويَمشونَ في الأسواقِ ، وهذا احتجاجٌ عليهم في قولِهم{ مَالِ هَاذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ }[الفرقان : ٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً } ؛ أي بَلِيْهِ ابتلاءُ الشريفِ بالوضِيع ، والعربيِّ بالمولَى ، فإذا أراد الشريفُ أن يُسْلِمَ ورأى الوضيعَ قد أسْلَمَ قَبْلَهُ أبَى وقال : أُسْلِمُ بَعْدَهُ فيكونُ له عليَّ السابقةُ والفضلُ! فيقيمُ على كُفْرِهِ. ويَمتنعُ من الإسلام ، فذلكَ افْتِتَانُ بعضِهم ببعضٍ ، وهذا قولُ الكلبيِّ.

وَقِيْلَ : الفتنةُ ها هنا هي العداوةُ التي كانت بينَهم في الدِّين ، وما كان المؤمنونَ يَلْقَوْنَ من أذى الكُفَّارِ ، { أَتَصْبِرُونَ } ؛ أيُّها المؤمنونَ على أذاهُم حتى تَصِلُوا إلى ثواب الصابرين ، فإنَّ بعضَهم لبعضٍ فتنةٌ ، يقولُ الفقيرُ : لو شاءَ اللهُ أغْنَانِي مثلَ فُلانٍ ، ويقولُ السَّقيمُ : لو شاءَ اللهُ أصحَّني مِثْلَ فُلانٍ ، ويقولُ الأعمَى : لو شاءَ اللهُ أبْصَرَنِي مثلَ فُلانٍ ، { وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً } ؛ بالأغنياءِ والفُقراءِ وغيرِهم ، أغنَى مَن أوجبَتِ الحكمةُ غِنَاهُ ، وأفْقَرَ مَن أوجبَتِ الحكمةُ فَقْرَهُ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } ؛ أي قال الَّذينَ لا يَخَافُونَ البعثَ بعدَ الموتِ : هَلاَّ أُنْزِلَ عَلَينَا الملائكةُ رُسُلاً أو نَرَى رَبَّنَا فيُخبرَنا بذلك ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ } ؛ أي لقد تَعَظَّمُواْ في أنفُسِهم حيثُ سأَلُوا مِن الآياتِ ما لَمْ يَسْأَلْهُ أحدٌ قطُّ ، { وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } ؛ حين قَالُوا { أَوْ نَرَى رَبَّنَا }. والعُتُوُّ : مُجَاوَزَةُ الحدِّ في الظُّلمِ ، وَقِيْلَ : العُتُوُّ : أسدُّ الكفرِ. والمعنى : وجَاوَزُوا الحدَّ مجاوزةً شديدةً.

(٠/٠)

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ } ؛ أعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ الوقتَ الذي يَرَوْنَ فيه الملائكةَ هو يومُ القيامةِ ، وأنَّ اللهَ حَرَمَهُمُ البُشْرَى في ذلكَ اليوم ، فقال { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ } يعني يومَ القيامةِ ، لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ للمشركينَ ؛ أي لا بشَارَةَ لَهم بالجنَّةِ والثوابَ ، { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً } ؛ أي يقولُ الملائكةُ : حَرَاماً مُحَرَّماً أنْ يدخلَ الجنَّةَ إلاَّ مَن قالَ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.
وَقِيْلَ : يقولُ الملائكة للمجرمينَ : { حِجْراً مَّحْجُوراً } أي حَرَاماً مُحَرَّماً عليكم البُشْرَى. وَقِيْلَ : حرامٌ عليكم الجنَّةُ. وَقِيْلَ : تقولُ الملائكةُ : حُرِّمَ عليكم سَمَاعُ البُشْرَى حَرَاماً مُحَرَّماً ، وكانتِ العربُ إذا أرادَ الرجلُ منهم أن يُحَرِّمَ شيئاً يُطْلَبُ منهُ ؛ قال : حِجْراً مَحْجُوراً ؛ لِيُعْلِمَ السائلَ بذلك أنهُ لا يريدُ أن يفعلَ.

والْحَجْرُ في اللغة : هو الْمَنْعُ ، ومنهُ الْحَجْرُ على الصبيِّ ، ويجوزُ أن يكون مَحْجُوراً مِن قول الكفَّارِ للملائكةِ ؛ أي قالُوا للملائكةِ بُعْداً بَيْنَنَا وبينَكُم. قال مجاهدُ : (يَعْنِي عَوْذاً مَعَاذاً يَسْتَعِيذُونَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ).

(٠/٠)

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } ؛ أي عَمَدْنَا إلى أعمَالِهم التي عمَلُوها في الدُّنيا التي كانوا يعتَقِدونَها طاعةً ، فجعلناها في الآخرةِ بمنْزِلة الْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ وهو ما يقعُ في الكُوَّةِ مِن شُعاعِ الشَّمسِ ، فيقبضُ القابضُ عليه فلا يحصلُ على شيءٍ. وَقِيْلَ : هو الترابُ الذي يصعدُ من حوافرِ الدَّواب ، يُرَى ولكن لا يُقْدَرُ عليهِ. وقال ابنُ شُمَيْلٍ : (الْهَبَاءُ الْمَنْثُورُ الَّذِي تُطَيِّرُهُ الرِّيَاحُ كَأَنَّهُ دُخَانٌ) ، فالمعنَى : فجعلناهُ بَاطِلاً لا ثوابَ لهُ ؛ لأنَّهم لَم يعملوهُ للهِ ، وإنَما عِملوهُ للشَّيطانِ.

(٠/٠)

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً } ؛ أي أصحابُ الجنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُسْتَقَرّاً من هؤلاءِ المشركينَ المتكبرينَ المفتَخِرين بأعمالِهم ، وأحْسَنُ مَوْضِعاً عندَ القَيْلُولَةِ من منازِلِ الكفَّار. قال ابنُ مسعودٍ : (لاَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْبلَ هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلاَءِ فِي النَّارِ).

(٠/٠)

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ } ؛ قرأ أبو عمرٍو والكوفيُّون بالتشديدِ فيهما على معنى

تَتَشَقَّقُ السماءُ عن الغمامِ و(الباء) و(عن) يتعاقَبانِ ، يقال : رميتُ بالقَوسِ وعَنِ القوسِ ، ومعنى الآيةِ : ويَوْمَ تَصَدَّعُ السَّماءُ لنُزولِ الملائكةِ في الغمامِ بأمرِ الله كما تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قولهِ تعالى{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ }[البقرة : ٢١٠] وهو غَمَامٌ أبيضُ رقيقٌ مثل الضُّبَابَةِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً } ؛ أي نُزِّلَ أهلُ كلِّ سَماءٍ على حِدَةٍ منها إلى الأرضِ لإكرام المؤمنينَ وإهانةِ الكفَّار ، وأهوالِ ذلك اليوم. ويقالُ : إن الغمامَ سحابٌ أبيض فوقَ السَّموات السَّبعِ ، كما رُوي أنَّ دعوةَ المظلومِ تُرفَعُ فوقَ الغَمامِ ، فعلى هذا يكونُ المعنى : ويوم تَشَقَّقُ السمواتُ السَّبعُ ويظهرُ الغَمامُ. قرأ ابنُ كثير : (وَنُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ) بنُونَين ونصب الملائكة.

(٠/٠)

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ } ؛ أي الْمُلْكُ الذي هو الْمُلْكُ حقّاً مُلْكُ الرَّحْمَنِ يومَ القيامةِ ، { وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً } ؛ أي عَسُرَ ذلك اليومُ لشدَّتهِ ومشقَّتهِ ، ويَهُونُ على المؤمنينَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } ؛ نزلت في عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعيْطٍ كان إذا أرادَ أن يُؤْمِنَ فقالَ لهُ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ وكان صَديقاً لهُ : صَبَأْتَ يَا عُقْبَةُ! لَئِنْ آمَنْتَ لَمْ أُكَلِّمْكَ أبَداً ، فامتنعَ عن الإيْمانِ حتى قُتِلَ يومَ بدرٍ كافراً ، وقَتَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ يومَ أُحُدٍ.
وَقِيْلَ : " إنَّ عُقْبَةَ بنَ أبي مُعيْطٍ كان لا يقْدُمُ من سَفَرٍ إلاّ صَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ أشْرَافَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَدِمَ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ سَفَرٍ ، فَصَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَدَعَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا قَرُبَ الطَّعَامُ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا نَأْكُلُ مِنْ طَعَامِكَ يَا عُقْبَةُ حَتَّى تَشْهَدَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ " فَقَالَ عُقْبَةُ : أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ

رَسُولُ اللهِ ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. وَكَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ غَائِباً ، فَلَمَّا أُخْبِرَ بِإِسْلاَمِ عُقْبَةَ وَكَانَ صَدِيْقَهُ ، قَالَ لَهُ : أَصَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ؟! فَقَالَ : لاَ ؛ وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَإِنَّ أَخَاكَ كَمَا تَعْلَمُ ، وَلَكِنِّي صَنَعْتُ طَعَاماً فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي إِلاَّ أَنْ أَشْهَدَ ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ ، فَشَهِدْتُ لَهُ وَلَيْسَ فِي نَفْسِي ذلِكَ ، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ : يَا عُقْبَةُ! مَا أَنَا بِالَّذِي أَرْضَى مِنْكَ أَبَداً حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ! فَفَعَلَ عُقْبَةُ ذلِكَ ".

قال الضحَّاكُ : (لَمَّا بَزَقَ عُقْبَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، عَادَ بُزَاقُهُ فِي وَجْهِهِ وَلَسَعَهُ لَسْعَةً فَأَحْرَقَ خَدَّيْهِ ، وَكَانَ أَثَرُ ذلِكَ فِيْهِ حَتَّى الْمَوْتِ). وعن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاس قال : (كَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يُجَالِسُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَيَسْمَعُ كَلاَمَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ ، فَلَمَّا أَرَادَ عُقْبَةُ بْنُ أبي مُعِيْطٍ أَنْ يُؤْمِنَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم زَجَرَهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ ، وَكَانَ خَلِيْلاً لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ بَايَعْتَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم. فَلَمْ يُؤْمِنْ وَاتَّبَعَ رضَى أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } يعني عقبةَ بن أبي مُعيطٍ ، يعضُّ على يديه تَنَدُّماً وتَحَسُّراً وأسَفاً على ما فَرَّطَ في جنب الله. قال عطاءُ : (يَأْكُلُ يَدَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَا إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ يَنْبُتَانِ ، فَلاَ يَزَالُ هَكَذا دَأْبُهُ ، كُلَّمَا نَبَتَتْ يَدُهُ أَكَلَهَا نَدَامَةً عَلَى مَا فَعَلَ ، وَذلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُم { يَقُولُ } ، على وجه التحسر : { يالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً } ؛ أي لَيْتَنِي اتبعتُ الرسولَ وسلكتُ طريقته فإنَّها طريقُ الهدى ، { يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً } ؛ يعني أُبَيَّ بنَ خلفٍ ، { لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي } ؛ أي لقد صَرَفَنِي عن القُرْآنِ بعد إذ دعانِي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الرَّسُولُ } ؛ أي ويقولُ الرسولُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم : { يارَبِّ إِنَّ قَوْمِي } ؛ يعنِي قُريشاً ، { اتَّخَذُواْ هَاذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً } ؛ هَجَرُوا تلاوتَهُ والعملَ به ، قالوا فيه غيرَ الحقِّ ، وزعَمُوا أنه سِحْرٌ وشِعرٌ ، وقالوا هو أساطيرُ الأوَّلين ، وتركُوا الإيْمانَ به. قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ ، وَعَلَّقَ مُصْحَفاً وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْهِ ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقاً بِهِ ، يَقُولُ : يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ ؛ عَبْدُكَ هَذا اتَّخَذنِي مَهْجُوراً ، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ".

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)

وقولهُ تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي كما جعلنا لكَ يا مُحَمَّدُ أعداءً من مشركِي قومِكَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ ؛ أي من كفَّارِ قومهِ ، فلا يَكْبُرَنَّ عليك ذلكَ ولا يشقُّ عليك ، فإن الأنبياءَ قبلكَ قد كُذِّبوا ، { وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } ؛ لكَ وللخلق وناصراً لك على أعدائِكَ. وانتصبَ قولهُ (هَادياً) على الحالِ أو على التمييز.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } ؛ وذلك أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا تَحدَّاهم بالْقُرْآنِ وأمرَهم أن يأتُوا بسورةٍ من مثلهِ ، فعجَزُوا عن ذلكَ ولزِمَتهم الحجةُ فجعلوا يطلبون الحجَّة بالشُّبهةِ ، فقالوا : لو كانَ نبيّاً لأُنزِلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحدةً ، كما أُنزِلَتِ التوراةُ والإنجيل والزَّبورُ.

والمعنى : أن الكفارَ قالوا : هَلاَّ أُنزِلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحدة في وقتٍ واحد ، كما أنزلت التوراةُ على موسى ؛ والإنجيلُ على عيسَى ؛ والزبورَ على داودِ ، فبيَّنَ اللهُ أن ذلك ليس بشبهةٍ ، فقال : { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } ؛ أي كذلكَ أنزلناهُ إليكَ متفرِّقاً لنقوِّي به قلبَكَ ، فنزدادُ به بصيرةً ويسهلُ عليك ضبطهُ وحِفظهُ ، فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ ولا يكتبُ ، بخلافِ موسى وعيسى. ويقالُ : كأنَّ الله تعالى يعلمُ أن القومَ يسألونَهُ عن أشياء ويؤْذُونه ، فأنزَلَ الجوابَ عَقِبَ السُّؤالِ ليكون أحسنَ موقِعاً وأدعَى إلى الانقيادِ وأبلغَ في إلزام الحجَّة.

وقولهُ تعالى : { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } ؛ أي فرَّقناهُ تفْريقاً ، فقال لو رتل إذا كان متفرِّقاً غيرَ منظومٍ ، وأسنانٌ مرتَّلةٌ : اذا كانت مفلَّجَة ، ومنهُ قوله{ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً }[المزمل : ٤] أي فَرِّق الحروفَ بعضها ببعض. قال ابنُ عباس : (مَعْنَاهُ : وَبَيَّنَّاهُ تَبْيِيناً) ، وقال السديُّ : (فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيْلاً).

(٠/٠)

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } ؛ أي لا يأتوكَ بشُبهةٍ للاحتجاجِ بها في إبطالِ أمرِكَ إلاّ جئناكَ بالذي هو الحقُّ ، والذي هو أحسنُ تفسيراً من مثَلِهم.
والمعنى : (لاَ يَأْتُونَكَ) يعني المشركين (بمَثَلٍ) ضربوهُ لكَ في إبطالِ أمرِك ومخاصمتِكَ (إلاَّ جِئْنَاكَ) (بـ) الذي هو (الْحَقِّ) لتردَّ به خصومتَهم وتُبطِلَ به كيدَهم ، (وَأحْسَنَ تَفْسِيراً) بما أتَوا به من المثلِ. والتفسيرُ : كشفُ المعنى المغطَّى.

(٠/٠)

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ } ؛ فقاتل كفار مكة ، وذلك أنَّهم كانوا قالُوا : إن مُحَمَّداً وأصحابَهُ شرُّ خلقِ الله ، فقالَ اللهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً } ؛ أي منْزِلاً ومَصيراً وأضلُّ طريقاً من المؤمنين ، وقولهُ تعالى { يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّ } أي يُسْحَبُونَ على وجوهِهم في النارِ.
وعن أنسٍ : أنَّ " رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ : " إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثةِ أصْنَافٍ : صِنْفٌ عَلَى الدَّوَابِ ، وَصِنْفٌ عَلَى أقْدَامِهِمْ ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ ".

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً } ؛ أي آتَينا موسَى التوراةَ

وجعلنا معهُ أخاهُ هارونَ مُعِيناً يُعِينهُ على تبليغِ الوحي ، والوَزِيْرُ في اللغة : هُوَ الَّذِي يُرْجَعُ إلى رَأيِهِ ، وَالْوِزْرُ : ما يُلْتَجَأُ إليهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ فادعُوهم إلى الإيْمانِ ، فَفَعَلاَ ذلك فلَمْ يُجِيبُوا أمرَهم ، { فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً } ؛ أي أهلكنَاهم إهلاكاً بما كان فيهِ عِبْرةٌ لِمنِ اعتبرَ.

(٠/٠)

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً } ؛ أي واذكُرْ قومَ نُوحٍ حين كذبُوا نُوحاً ومَن قبلَهُ من الرُّسل فأغرَقناهم بالطُّوفانِ ، وجعلنا إهلاكَهم للناسِ عِظَةً وعبرةً ودلالةً على قُدرَتِنا ، { وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ } ؛ أي الكافرينَ ، { عَذَاباً أَلِيماً } ؛ في الآخرةِ سِوَى عذابهم في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } ؛ أي أهلَكْنا عَاداً وثَموداً وأصحابَ الرِّسِّ. قال قتادةُ : (الرَّسُّ بئْرٌ بالْيَمَامَةِ) ، قال السديُّ : (بَأَنْطَاكِيَّةَ وَنَبِيُّهُمْ حَنْظَلَةُ) ، وإنَّما سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ ؛ لأنَّهم قَتلُوا نَبِيَّهُمْ ورَسُّوهُ في تلكَ البئرِ ، والرَّسُّ واحدٌ. وقال مقاتلُ والسدي : (هُمْ أصْحَابُ الرَّسِّ ، وَالرَّسُّ بئْرٌ ، فَقَتَلُوا فِيْهَا حَبِيْبَ النَّجَّارِ فَنَسَبَهُمْ إلَيْهَا ، وَهُمُ الَّذِيْنَ ذكَرَهُمْ فِي سُورَةِ يس). وَقِيْلَ : هم أصحابُ الأُخْدُودِ فِي قَوْمٌ رَسُّوا لِنَبِيِّهِمْ) أي دَسُّوهُ في البئرِ.
رُوي أن رَجُلاً سألَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ أخبرْني عن أصحاب الرَّسِّ ، أينَ كانت منازلُهم ، وبماذا أُهلِكُوا ، ومَن نبيُّهم ، فإنِّي أجدُ في كتاب الله ذِكْرَهم ، ولا أجدُ خَبَرَهم ؟ فقال عليٌّ رضي الله عنه : (لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ حَدِيْثٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أحَدٌ قَبْلَكَ ، وَلاَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أحَدٌ بَعْدِي ، وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهِمْ أنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً يَعْبُدُونَ شَجَرَةَ صُنَوْبَرٍ ، كَانَ غَرَسَهَا يَافِثُ بْنُ نُوحٍ عَلَى شَفِيْرِ عَيْنٍ جَارِيَةٍ ، وَإنَّمَا سُمُّواْ أصْحَابَ الرَّسِّ ؛ لأنَّهُمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ فِي الأَرْضِ ، وَذلِكَ أنَّهُ قِيْلَ لِسُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد ، وَكَانُوا إثْنَا عَشَرَ قَرْيَةً عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ الرَّسُّ مِنْ بلاَدِ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ مَلِكُهُمْ يُسَمَّى

تَرْكُولُ بْنُ عَامُورَ بْنِ يَاوِيْسَ بْنِ شَارب بْنِ نَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ ، وَكَانَ أعْظَمُ مَدَائِنِهِمْ سِنْدِبَادُ بهَا الْعَيْنُ ، وَالصُّنوبَرَةُ وهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيْمَةٌ.

وَكَانُوا قَدْ حَرَّمُوا مَاءَ الْعَيْنِ وَهِيَ غَزِيْرَةُ الْمَاءِ ، فَلاَ يَشْرَبُونَ مِنْهَا ، وَلاَ يَسْقُونَ أنْعَامَهُمْ ، وَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ ، وَيَقُولُونَ : هِيَ حَيَاةُ آلِهَتِنَا! فَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَنْقُصَ مِنْ حَيَاتِهَا. وَقَدْ جَعَلُواْ فِي كُلِّ شَهْرٍ عِيْداً يَجْتَمِعُ إلَيْهِ أهْلُ كُلِّ قَرْيَةٍ ، وَيَضْرِبُونَ عَلَى الشَّجَرَةِ ثِيَاباً مِنْ حَرِيْرٍ فِيْهَا مِنْ أنْوَاعِ الصُّوَرِ ، ثُمَّ يَأْتُوا بشِيَاهٍ وَبَقَرٍ فَيَذْبَحُونَهَا قُرْبَاناً لِلشَّجَرَةِ ، ثُمَّ يُوقِدُونَ النَّارَ وَيَشْوُونَ اللَّحْمَ ، فَإذا انْقَطَعَ الدُّخَّانُ وَالنَّارُ خَرُّوا سُجَّداً لِلشَّجَرَةِ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ إلَيْهَا أنْ تَرْضَى عَنْهُمْ.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَجِيْءُ فَيُحَرِّكُ أغْصَانَهَا وَيَصِيْحُ فِي سَاقِهَا : إنِّي قَدْ رَضِيْتُ عَنْكُمْ عِبَادِي ، فَطِيْبُوا نَفْساً وَقَرُّوا عَيْناً ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ وَيَضْرِبُونَ الدُّفُوفَ وَيَشْرَبُونَ الْخُمُورَ.

فَلَمَّا طَالَ كُفْرُهُمْ بَعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولاً ، فَلَبثَ فِيْهِمْ زَمَاناً طَوِيْلاً يَدْعُوهُمْ إلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا رَأى تَمَادِيْهِمْ فِي الْغَيِّ والضَّلاَلِ قَالَ : يَا رَب إنَّ عِبَادَكَ أبَوا وَكَذبُواْ وَعَبَدُواْ شَجَرَةً لاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ ، فَأَيْبسْ شَجَرَتَهُمْ يَا رَب ، فَأَصْبَحواْ وَقَدْ يَبسَتْ شَجَرَتَهُمْ فَهَالَهُمْ ذلِكَ ، وَقَالُواْ : إنَّ هَذا أيْبَسَ شَجَرَتَكُمْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلْ غَضِبَتْ آلِهَتُكُمْ حِيْنَ رَأتْ هَذا الرَّجُلَ يَعِيبَهَا وَيَدْعُوهُمْ إلَى عِبَادَةِ غَيْرِهَا ، فَحَيَتْ وَغَضِبَتْ لِكَيْ تَغْضَبُواْ لِغَضَبهَا وَتَنْصُرُونَهَا. فَاجْتَمَعَ رَأيُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ ، فَطَرَحُوهُ فِي بئْرٍ ضَيِّقَةِ الْمَدْخَلِ عَمِيْقَةِ الْقَعْرِ ، وَجَعَلُواْ عَلَى رَأسِهَا صَخْرَةً عَظِيْمَةً ، وَقَالُواْ : إنَّمَا غَرَضُنَا أنْ تَرْضَى بنَا آلِهَتُنَا إذا رَأتْ أنْ قَدْ قَتَلْنَا مَنْ كَانَ يَعِيْبُهَا وَدَفَنَّاهُ بحُكْمِ كَرْبي ، فَارْحَمْ ضَعْفِي وَقِلَّةَ حِيْلَتِي وَعَجِّلْ قَبْضَ رُوحِي ، وَلاَ تُؤَخِّرْ إجَابَةَ دَعْوَتِي.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا } ؛ حين فَرُّوا في آثارِهم فيخافُوا ويعتبروا ، { بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً } ؛ أي كانوا لا يخافونَ البعثَ والنُّشورَ. أخبرَ اللهُ تعالى أن الذي جرَّأهم على التكذيب أنَّهم لا يصدِّقون بالبعثِ.

(٠/٠)

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً } ؛ أي واذا رَأوْكَ كفارُ مكَّة أبو جهلٍ وأصحابهُ ما يتَّخِذُونَكَ إلاّ هُزواً ؛ أي مَهْزُوءً يستهزِؤنَ بكَ ويقولون على وجهِ الاستهزاء : { أَهَاذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً } ؛ إلينا ، { إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا } ؛ أي لقد كادَ يصرفُنا عن عبادةِ آلِهتنا ، { لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا } ؛ على عبادتَها. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ؛ يومَ القيامةِ ، { حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } ؛ أي من أخطأُ طَريقاً عن الْهُدَى والدِّين والحجَّة هم أمِ المؤمنونَ.

(٠/٠)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـاهَهُ هَوَاهُ } ؛ أي أرأيتَ مَن عَبَدَ الأصنامَ بهوَى نفسهِ ، عَجَّبَ اللهُ تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم من نِهاية جهلِهم حين عبَدُوا ما دعاهم إليه الْهَوَى ، فقال : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـاهَهُ هَوَاهُ }. قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أرَأَيْتَ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ إِلَهِهِ وَخَالَفَهُ ، ثُمَّ هَوَى حَجَراً يَعْبُدُهُ مَا حَالُهُ عِنْدِي) ، قال مقاتلُ : (وذَلِكَ أنَّ الْحُرَيْثَ بْنَ قَيْسٍ السَّهْمِيَّ هَوَى شَيْئاً فَعَبَدَهُ) ، وقال سعيدُ بن جبيرٍ : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْحَجَرَ ، فَإذا رَأوْا أحْسَنَ مِنْهُ أخَذُوهُ وَتَرَكُوا الْحَجَرَ الأَوَّلَ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } ؛ أي كَفِيلاً حافظاً تحفظهُ من اتِّباعِ هواهُ وعبادةِ ما يهوَى ، أي لستَ كذلكَ ، إنَّما بُعِثْتَ دَاعياً لا حَافِظاً.

(٠/٠)

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ } ؛ أي أتَظُنُّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أكثرَهم يسمعون سَماع تَدْبيْرٍ وتَفَكُّرٍ ، ويعقلونَ ما يُعَاينُونَ من الْحُجَجِ ، { إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ } ؛ يسمعونَ الصوتَ ولا

يعقلون حقيقتَهُ ، وهذا مِثْلُ قولهِ{ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً }[البقرة : ١٧١] وقولهُ تعالى : { بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } ؛ أي بل هُمْ أضلُّ من الأنعامِ ؛ لأن الأنعامَ إذا زُجِرَتْ انزَجَرَتْ وهم لا يَنْزَجِرُونَ ، ولأن الأنعامَ تفهمُ بعضَ ما تسمعُ ؛ لأنَّها تُنَادَى على صفةٍ فتقِفُ وتنادى على صفةٍ فتسيرُ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً } ؛ معناه : أَلَم تَرَ إلى صُنْعِ ربكَ كيف بَسَطَ الظلَّ من وقتِ غُروب الشَّمسِ إلى وقتِ طُلوعِها من المشرقِ إلى المغرب. وَقِيْلَ : مِن طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس ، ولو شاءَ لجعلَ الظلَّ سَاكناً ؛ أي دائِماً لا يزولُ على أن لا تطلعَ الشمسُ ، { ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً } ؛ على الظلِّ بمعنى أنهُ لولاَ الشمسُ لَمَا عُرِفَ الظلُّ ؛ لأن الظلَّ يتبعُ الشمسَ في طولهِ وقِصَرِهِ ، فإذا ارتفعَتِ الشمسُ في أعلى ارتفاعِها قَصُرَ الظلُّ ، وذلك وقتَ صلاةِ الضُّحى إلى أن تبلُغَ الشمسُ في الارتفاعِ مبلَغاً يزولُ عنده الظلُّ ، ولا ينقصُ الظلُّ بعد ذلك ، بل يأخذُ في الزيادةِ فيكون الوقتُ وقتَ صلاةِ العصر ، فما دامَتِ الشمسُ تنحطُّ يصير الظلُّ طويلاً تحتَ ذلك الانحطاطِ. والظلُّ تابعٌ للشمس التي هي دليلهُ ، ويقالُ : معنى الآية : جعلنا الشمسَ مع الظلِّ دليلاً على توحيدِ الله وكمَالِ قدرتهِ.

(٠/٠)

ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً } ؛ إذا طلعَتِ الشمسُ قَبَضَ اللهُ الظلَّ قبضاً يَسيراً خَفِيّاً ؛ أي سَلَّطْنَا الشمسَ عليه حتى تَنْسَخَهُ شيئاً فشيئاً وتنقصَهُ نقصاً خفِيّاً لا يستدرَكُ بالمشاهدةِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ لِبَاساً } ؛ أي يَسْتُرُ كلَّ شيء تطلبهُ كاللِّباس الذي يسترُ البدنَ ، { وَالنَّوْمَ سُبَاتاً } ؛ أي راحةٌ لأبدانِكم ، يقالُ : سَبَتَ إذا تمدَّدَ فاستراحَ ، ومن ذلك يومُ السَّبتِ ؛ لأن اليهودَ كانوا يستَرِيحون فيه بقطعِ أعمال الدُّنيا ، والسُّبَاتُ قطعُ العملِ ، { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } ؛ أي تَنْشُرُونَ فيه لِمعاشِكم وحوائجِكم ، والنُّشور ها هنا بمعنى التفرُّق والانبساطِ في التصرُّف.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } ؛ أي أرسلَ الرِّياحَ ينشرُ بها الغيمَ ، ويبسطُ في السَّماء قُدَّامَ المطرِ. وإنَّما قِيْلَ في الرحمةِ : رياحٌ ؛ لأنَّها الجمعُ : الجنوبُ والشَّمالُ والصَّبا ، وَقِيْلَ في العذاب : ريْحٌ ؛ لأنَّها واحدٌ وهي الدَّبُّورُ وهو عقيمٌ لا يلقح.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً } ؛ وهو الْمَطَرُ ، وهو طاهرٌ ومُطَهِّرٌ من الأنجاسِ والأحْدَاثِ ، { لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً } ؛ أي لنُحْيي بالمطرِ بلدةً ليس فيها أشجارٌ ولا أثْمَارٌ ولا مرعًى ، { وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً } ؛ أي نسقِي بذلك الماءَ كثيراً من خلْقِنا من الأنعامِ. والأنَاسِيُّ : جمعُ إنْسِيٍّ مثل كُرْسِي وكَرَاسِي ، ويقال : جمعُ إنْسَانٍ ، وأصلهُ أنَاسِيْن ، كما يقالُ : بستانٌ وبساتين وسَرْحَانٌ وسراحين.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ } ؛ أي صرَّفنا المطرَ فقسَّمناهُ بينَهم على ما توجِّهُ الحكمةُ لتذكُرُوا أنْعُمَ اللهِ فتشكرُوها ، { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً } ؛ أي جُحُوداً به كلَّما أنزلَ المطرَ ، يقولون

: مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذا.
وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : (مَا عَامٌ بأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ ، وَلَكِنَّ اللهَ يُقَسِّمُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ، قال صلى الله عليه وسلم : " مَا سَنَةٌ بأَمْطَرَ مِنْ أُخْرَى ، وَلَكِنْ إذا عَمِلَ قَوْمٌ بالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللهُ ذلِكَ إلَى غَيْرِهِمْ ، فَإذا عَصَوا جَمِيْعاً صَرَفَ اللهُ ذلِكَ إلَى الْفَيَافِي وَالْبحَار ".

(٠/٠)

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً } ؛ أي لو شِئنا لبعَثنا في كلِّ قريةٍ نَذيراً ينذِرُهم ، ولكن بعثناكَ يا مُحَمَّدُ إلى القُرَى رَسُولاً لعِظَم كرامَتِك علينا ، وليكون كلُّ الثواب والكرامة لك خاصَّةً ، { فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ } ؛ فِيما يطلبونَ منكَ أن تعبُدَ آلِهَتهم ، ومداهنَتَهم ، { وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } ؛ أي بالقُرْآنِ ، { جِهَاداً كَبِيراً } ؛ شَديداً.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَاذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَاذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } ؛ أي وهو الذي أرسلَ البَحْرَيْنِ في مجارَيهما ، يقالُ : مَرَجْتُ الدَّابَّةَ ؛ أي أرسَلْتُها في الْمَرْجِ ترعَى.
وأرادَ بقوله { هَاذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ } النيلُ والأنْهارُ العِظَامُ ، والفراتُ ما يكون في غايَةِ العذُوبَةِ ، وأرادَ بالملحِ الأُجَاجِ الذي يكون ماؤُها في غايةِ المرارة ، ويقالُ : في غاية الحرارةِ ، من قولِهم : أجَّجْتَ النارَ إذا وَقَدْتَها ، وتأجَّجَتِ النارُ إذا توقَّدَت ، ويقالُ : ماءُ مِلْحٌ ولا يقال : مالِحٌ إلاّ لِمَا يُلْقَى فيه الملحُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً } ؛ أي حَاجِزاً يَمنَعُ كلَّ واحدٍ منهما من تغييرِ الآخر ، وهو ما بين العَذْب والملحِ من الأرض. ويقال : أصلُ الْمَرْجِ الْخَلْطُ ، وَمِنْ ذلِكَ الْمَرْجُ ؛ لأنه يكون فيه أخلاطٌ من النباتِ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ }[ق : ٥] أي مُختَلِطٍ بالملحِ والعَذْب في مرأى العينِ مختلِطَان ، وفي قدرةِ الله منفَصِلان ، لا يغيِّرُ أحدُهما طَعْمَ الآخرِ. { بَيْنَهُمَا

بَرْزَخاً } أي حَاجِزاً من قدرةِ الله تعالى ، و { حِجْراً } أي مانعاً يَمْنعُ من اختلاطِهما ، وفسادِ أحدهما بالآخرِ ، ومعنى قولهِ تعالى { وَحِجْراً مَّحْجُوراً } أي حَرَاماً مُحَرَّماً أن يُفْسِدَ الملحُ العذبَ.

(٠/٠)